حرمتان ومحرم

صبحي فحماوي

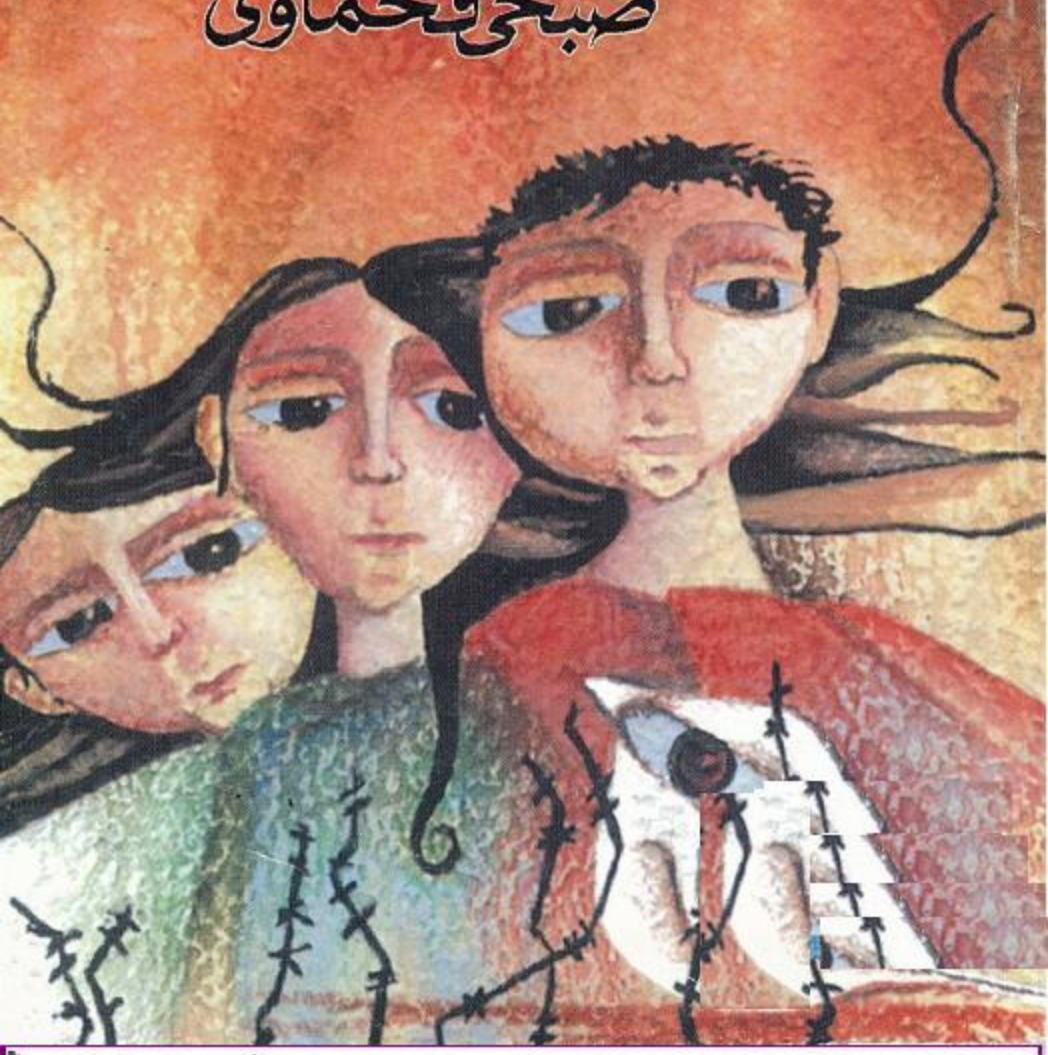

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

حرمتان ومحرم

صبحي فحماوي

دار الهلال

الخطوط للفنان : محمد العيسوى

الغلاف للفنانة : صفاء علاء الدين

المتابعة : ياسر شعبان

إهـــــداء

إلى أطفال غزة...
أنا فى طبق القرن العشرين،
أؤكل بالشوكة والسكين.
وجهى لوح زجاج يكسر كل صباح.
صدرى حائط،
ظهرى حائط،
شريانى حبل غسيل.
لكن سوف يجيئون،
سوف يجيئون،
وتكسر هذى الآلة.
من مسرحية «ثورة الزنج» للشاعر معين بسيسو -القاهرة - ١٩٧٠

النجم الساطع

في معسكر الحصار، يتوسط حي "سلام الشجعان" سوق شعبي تقليدي يغص بمحلات تجارية عديدة.

وفي الزاوية البعيدة تقبع محددة العودة، التي تلفت الانتباه إليها بأصوات طَرَقاتها والرائحة الخانقة المنبعثة من أشعة لحام الأكسجين، والشرر المتطاير من جسدٍ حديدي يتم تقطيعه من الوريد إلى الوريد.. والمحددة تحشر أنفها بين عدد من الدكاكين التي تجاورها ذات اليمين وذات الشمال، فمن هنا منجرة أبو ريالة، وبقالة)غظب(، ومستودع البطل لمواد الحديد، ومن هناك مستودع الفار للبلاط، ومحل ألبان الثور، ومحلات المهلبي للإسمنت، ومغسلة السلطة للسيارات، وبجوارها محل بناشر العذراء، وميكانيكي الضبع تخصص جميع أنواع السيارات، ومحلات رخام الدفش، ومحل العصفورية لمواد البناء، ومطعم فلفل للفول والفلافل المفلفل، ودكان حلاق الزهور، ومستودع أسطوانات غاز الثورة، تشم رائحة غازاته القاتلة من بعيد، وعدة مداخل صغيرة لبيوت عائلات مستورة، تتصدرها بوابات ضيقة العرض صفيحية وخشبية مهترئة، إحداها تنحرف مكسورة الفصالات الحديدية الصدئة، يدخل ويخرج منها أحياناً أشخاص بسيطون على باب الله، مصبوغون بانكفاء على الذات، وتفكير في المجهول، وحزن في العيون، ولكنها عيون)مفنجلة(، حذرة مترقبة مهدودة، ومفتوحة على الآخر.. والشارع شبه ترابي، تنبعث رماله من كل جروحه، ويتمدد مثقلاً

بأوساخه، كعمود فقري لموقع مهترىء، تملأ حفره سوائل مجارٍ، وأوراق بلاستيك، وعبوات شرائح البطاطا الاصطناعية وأكياس الإسمنت الفارغة.... تمر سيارة مسرعة بعجلاتها التي تطبطب فوق حفر الطريق، فتطرطش المارة بالمياه العادمة والمعدومة، المنسابة من مجاري الجيران والمحلات المجاورة، وأشياء كثيرة تتطاير بعفوية هنا وهناك، لتخلق جواً من الحركة، وتشغل بال سكان المكان عن توترات الأحداث المخيفة في المنطقة..!

وعلى بعد مئتي متر تقريباً تنهض تلة قمامة عملاقة، تفوح من ربوتها روائح منتنة، وتتصاعد أبخرتها الزرقاء الرمادية المسودّة الخانقة، لتحل محل الضباب الشفاف الذي كان أيام زمان يغلف سماء المكان، تربض فوقها دبابة مركافا جديدة بكرتونها،)آخر موديل(تتدله فرحة بشبابها، وترصد الغادي والعائد، والقائم والقاعد، والفاعل والتارك، والصاحي والنائم، والله في السموات والأرض..

تمر تغريد بجمالها الأخّاذ، أمام محددة العودة، فينتصب الحداد جهاد واقفاً متملياً وجهها المشرق، وجسدها الفتّان، وكأنها شمس تشع، فتذيب كل شموعه، وتسيِّحها على جسده، بشكل مزاريب من العرق، أو برق يضيء ليل تجاويف ذاته، وهو الواقف أمام تقدمها متهيباً، تتسارع دقات قلبه، ويتضخم صدره، صاعداً نازلاً بلهاث من يركض في سباق الماراثون، منتشياً أمام تقدمها بسعادة لا توصف، ثم المنهار بغدوها، بعذاب لا يرحم، بريئة الإطلالة...عينان خجولتان حذرتان، تنأيان عن حُفَر الطريق، شقراء شفافة، زهرية الوجه واليدين والكعبين، وهذا ما يراه من جسدها، ناهد الصدر، هضيم الكشح، ريّا المخلخل.. ها هي تغريد تذهب إلى كُلِّيتها، ناثرة خلفها عبير عطرها الياسميني الفواح، بينما ملابسها البسيطة المختارة بعناية، تبرز تضاريس جسدها، وتضفي عليها تلك الأنوثة المحتشمة، تعود مساءً وهي تحمل بعض الكتب بأناملها الرقيقة، وترسم على وجهها ابتسامةً تشرح

قلب الحداد جهاد الأسمر، الهائم بحبها، فيقف متملياً بنعَم الله على عباده، ومن أروع هذه النعم، إشراق وجهها الذي يعيد له إنسانيته وشعوره بأن الحياة تستحق أن تعاش خارج هذا الحديد والصاج الذي لا يحس، وأشعة اللحام التي تعمي البصر والبصيرة، وتهلكه بغازاتها الخانقة..!

هذا ما كان يشعر به لحظة عبور الثريا أو مذنّب هالي، الذي يخلب الأبصارَ نورُه، فتجده يتوقف عن طرق الحديد، وتسقط الأشياء من بين يديه دون أن يشعر بها؛ سواء كان فرد لحام، أو صاروخ قص، أو قضيب حديد أو غيره، ويقف مستمتعاً بالخدر اللذيذ الذي يسري في أوصاله، وحقنات من هرموناته الذكرية تندلق داخل شرايينه،)فتهدّ حيله(وهو يتأمل تلك الصبيّة التي لم يخلق مثلها في البلاد. !

وكثيراً ما حدّث جهاد الأسمر نفسه قائلاً: لقد كبرت يا تغريد...! كنت تلعبين في الحارة،)النطة، والإكس، ولعبة الحبل(، وها أنت تتكور فيك الأشياء، وتنضج فيك الثمار، وتتفتح فيك الأزهار..

)طفلة الأمس التي كانت على بابك تلعب،

والتي كانت على حضنك تغفو، حين تتعب،

أصبحت قطعة جوهر،

لا تقدر..!

....

صارت المرآة لو تلمس نهدي تتخدّر..!

فتصوّر... (!

ما هذا يا نزار قباني؟ هل كنت تشاهد تغريد وأنت ترسم قصيدتك هذه بألوان وروائح بتلات أزهار المشمش والدراق واللوز والتفاح والكرز، بتلة

بتلة... ؟

ها أنت يا تغريد، تمرين من أمامي كالنجم الساطع! لم كل هذا الدلال وهذه العزلة التي تفرضينها على نفسك وعليّ، فتحرمينني من جناك المعلل؟ بالأمس كنت تلعبين في الحارات، هكذا ببراءة الطفولة، تزورينا، وتلعبين مع أختي ماجدة، وتتضاحكان معاً، أخجل أن ألعب معكما، ويشاهدني والدي ألتفت إليكما وأدور حول نفسي تائهاً، فيستدعيني للعمل في المحددة، فكنت وأنا مراهق حسّاساً ناميَ الجسد الذي يفور داخل ملابسي الرثة الممزقة المثقبة بنيران شرار الحديد، والمحروقة أطرافها بنيران لحام الصاج، أعمل في المحددة، فأصرف طاقتي اليافعة في معالجة الحديد، بينما أنت وأختي ماجدة تتدللان، وتمضيان الوقت في ألعاب بناتية، لم أجد الوقت للاستمتاع بالتفرج عليكما، والإحساس بدفء مصاحبتكما وأنتما تلعبانها.. كنت أشعر أنك ما زلت صغيرة، أنا في الصف السابع الابتدائي، وأنت وماجدة في الصف الخامس.... وكبرتُ وتخرّجتُ من المدرسة الثانوية، فأرسلني أبي إلى كلّية الصناعة، لأتخصص بالحدادة، وأما أخوك غازي فلم يبق معنا، بل سافر إلى أمريكا في بعثة تعليمية، ودرس التوجيهية هناك، وقال إنه سيعود بعد سنة، وها قد مضت سنتان، ولم يعد بعد..! ترى لو كان غازي معنا هذا اليوم، فهل سيدعم عقد قراننا، ويسرع بزواجنا، أم أنه سيؤيد أهلك بانتظار تخرجك من الكلية، ثم يفرضون عليك العمل سنتين إلزاميتين، لتسددي نفقات دراستك، ثم يصرفونك من الخدمة لصالحهم؟ ولكن جمالك صار يعطل المركب السائر، ويلهب المشاعر، ورائحة ياسمينك تغري النفس، وتسيل اللعاب.....! يقولون إن أجمل منظر في الطبيعة، هو منظر الغزال الملتفت إلى الخلف..... أيّ جمال، وأي غزال هذا الذي يتحدثون عنه..! وأي يد فنان موهوبة ساحرة، تستطيع رسم هذا العنق المصقول كالرخام، الطري كاللبان، النابضة عروقه بالحيوية والحب والأمل،

الشاهق الارتفاع، مثل يد شعلة الأولمب، والمطل بكبريائه على الدنيا كلها، وأن تعطي كل هذا البهاء، وكل هذه الرقة... ؟ يا إلهي كيف صنعت كل هذا، سبحانك..!

تمر تغريد أمامه، فتُصَبِّح، أو تمسي عليه، فتنتعش روحه، ويروي سلامها أرضه العطشى، ويُخصِّب غدده الصماء، فتنتشي حياته بعبيرها اللاهث..!

وجهاد هذا رجل جادّ في عمله، في العشرين من عمره، شديد البأس، يمتلك مواصفات حدّاد متمكن، ومع اشتداد الانتفاضة، وقلة فرص العمل، صارت محددة العودة تشتغل ببطء،)دَقّة عالحافر، ودقّة عالمسمار(فالطلب المتزايد على أبواب الأمان، وتحديد حمايات للشبابيك، وأبواب حديدية متينة للمحلات التجارية، بسبب الخوف من مداهمات قوات التحالف – آسف قوات الاحتلال – لبيوتهم ليلاً أو نهاراً، وكذلك الخوف من اللصوص، والحماية ممن هبّ ودَبّ، فلا يفل الحديد إلا الحديد.. يضاف إلى ذلك زيادة الطلب على أفران الخبز المصنوعة من الصاج المعدني، والتي استعادت أهميتها الفاعلة، فبعد أن انتشر خبز الأفران العامة، وعم التمدن، وتراخت النساء وتكاسلت وتدللت، فلم تعد تعجن وتخبز كأيام زمان، وصار أظلم شنب في الحارة، لا يستطيع أن يأمر زوجته أن تعجن وتخبز، بل صار شراء الخبز من المخبز مباشرة، وبرغم ليونة وطراوة الحريم، ودلالهن وغنجهن الذي يفرض سطوة أنثوية على رجالهن الممسوكين من أعضائهم التي توجعهم، فقد استردت الأفران البيتية الهيبة إلى نفسها بالقوة، واستعادت سطوتها ومكانتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية والاستيراتيجية الهامة، وذلك بفعل حصار الانتفاضة، فاضطروا لأن يقعدوها في صدر البيت، ويقولوا لها: صدر البيت لك يا فُرنيَّتنا الحبيبة...! وحيث إن)الرجعة فجعة(، فلقد استقبلها الناس بطلب شديد..... فأثناء الحصار، ومنع التجول في طرقات المعسكر، وانبثاق زخات متجمعة ومتفرقة من

طلقات رصاصية ومعدنية ومطاطية ودمدمية، ومن مختلف الأنواع، بين الحين والآخر، لتنغرس في أي جسم تطلق عليه، سواء كان رجلاً، أو طفلاً، أو شجرة مقاومة، أو جحشاً يرعى ورق البلاستيك من المزابل، نظراً لشح الموارد، واعتقال أعشاب الرعي التي جُرِّفت أرضها بالجرافات، صار الخارج من بيته مفقوداً، والعائد إليه مفقوداً أيضاً، وصار كل يوم يمر على الشخص دون أن يموت، يُعَدُّ فاتحة حياة، وعمراً جديداً مكتوباً له، فيحمد الله عليه، ويفكر بعمل الخير فيه، بهدف وداع هذه الدنيا الفانية..! ولكن هذا دفع العاطلين عن العمل، والذين يُقدّرون بنسبة خمسة وسبعين في المئة من القوى العاملة، لتأسيس محلات حدادة كثيرة.. صارت المحادد تنافس المحادد، فنزلت الأسعار، وقل الطلب على المحددة الواحدة، ولهذا ضعف حافز العمل عند جهاد الأسمر، فتراخى في عمله، وقلت إيراداته المالية، وما باليد حيلة ....!

وفي معسكر الحصار المحتل، كما في سائر بقاع الإقليم الفلسطيني المكتظ، صار المارّون ينطفئون مثل الشموع على الطرقات، وداخل البوابات، وفي صف المدرسة تنقصف زهرة برية؛ فتاة بعمر الزهور، كانت تتلقى درسها مع رفيقاتها الطالبات، وترفع ذراعها داخل الصف، مشيرة بإصبعها:

- أنا معلمتي، أنا معلمتي.....

ولكنها ويا حسرة قلب معلمتها، ماتت وهي رافعة أصبعها، وتقول:

- أنا معلمتي، أنا معلمتي.. دوّت طلقة زائرة من الشباك، مخترقة جسدها الطري، وسكنت قلبها الرضيع، طلقة نفذت إليها من النافذة، اغتصبت روحها حيث سكنت، فسكنت الطفلة على دُرج كتبها، وانكسرت الزنبقة على حضن أوراقها التي تعلمها القراءة والكتابة..!

صار من يفكر بالخروج من منزله، يتحمل مسؤولية الرصاصة التي

ستقتله، أو الدمدم الذي سينغرس في لحم جسده، فيشل أعصابه، أو يفتت عضلاته، أو يعيق عمل جهاز ما في جسده... ولهذا صارت كل أسرة تختزن مؤونتها من الطحين داخل بيتها، لستة أشهر قادمة.

وعندما يُفرض منع التجول، تنشغل أم غازي بتحضير عجينها، وبعد أن يختمر، تخبزه في فرنيّتها، فتقرأ تغريد كل يوم ما هو مكتوب بالقلم العريض على بابها، عبارة)محددة العودة(وتستبشر بها، متذكرة جهاد الأسمر الذي يروي عروق مخيلتها كل صباح، بتلك القامة المشدودة الصلبة القاسية الحنونة..

ما أقواك يا جهاد، فأنت الرافعة الحديدية العملاقة التي ستحملني بين ذراعيها، وتوصلني إلى شاطىء الأمان، أنت قوي وفاعل، وأنا محتاجة فعلاً إلى شاب قوي، أداري بجواره ضعفي، وعدم قدرتي على السير وحدي في الطرقات، دون رجل يسندني، ويحمي أنوثتي الرقيقة، وأكون له رفيقة درب، فقطاز الحياة يا جهاد لا يسير إلا على قضيبين، والحمام لا يطير فرادى، بل أزواجاً، ولاعب التنس لا يستطيع أن يلعب إلا مع رفيق، والشمس تتناوب إضاءة الأرض مع القمر، فأنت الشمس، وأنا القمر، ولو أن كلاً منا يسبح في فلك.. أنا محتاجة إليك يا جهاد، لتسبر أغواري، وتملأ حياتي الخاوية على عروشها، بهجة وسعادة غامرة.. الحارة موحشة، والأشياء من حولي عيون تحدجني، وتبحلق بي، والصقور تحوم فوق رأسي..! هل يا ترى أنجح في تحقيق ذاتي معك، أم أنها لا تعدو كونها مجرد أمنيات، لا تلبث أن تزول، مثل الغيوم المتحركة؟

يأكل أطفال أم غازي خبزاً ساخناً طازجاً من يديها، وفي "حي الجبّارين"، يتراكضون مع رفاقهم، وهم يقذفون حجارة من سجيل على السيارات العسكرية المصفّحة المتقدمة باتجاههم، بينما الدبابات الرابضة الهادرة في مواقع استراتيجية محصنة، تدور برؤوسها المجنونة يمنة ويسرة، تبحث عن

أي حركة، أو عمّن يقول)بم(، لتنفث في وجهه قذائف النابالم ، أو القنابل العنقودية، أو قذائف المسامير الانشطارية، أو القذائف "الخارئة الحارئة"، آسف، الخارقة الحارقة، وكل أنواع القذائف المحرّمة دولياً، لكن كل ونصيبه، وكل وجه وما يصلح له، وكل واحد يأكل نسيبه.. آسف، يأكل نصيبه... !

لا أدري لماذا أخطىء كثيراً في كتابة روايتي هذه؟ قد يكون الخوف سبب ذلك، ورهبة المواقف..! فأنا لم أتعود أن أكون مخبراً صحفياً، أو تلفازياً يبث أخباره من أرض المعركة..ولكن للضرورات أحكام.. أجدني مضطراً لمراقبة ساحات الإعدامات، لأصور معالم روايتي..

وكان الطفل نضال شلهوب، والذي طوله ونحول جسمه، يذكرني بقلم الرصاص، يداً تقذف الحجارة على الدبابات ومصفحات الدوريات العسكرية، ويده الأخرى تمسك برغيف الخبز المدهون من الداخل بمسحة حمراء من شطّة الفلفل، الذي تلهب حرارته الحلق والمعدة، أحضرته له ابنة جيرانهم؛ الطفلة عائدة، ساخناً طازجاً، من فُرنيّة والدته أم غازي.

– خذ.. خذ يا نضال.. هذه الخبزة بالفلفل، أرسلتها خالتي أم غازي لك..

– كيف عرفتِ يا عايدة أنني هنا ؟

– شاهدتُك من بعيد مع رفاقك، تقذفون الحجارة، وعندما انصرف رفاقك، أتيت إليك، خفت عليك. !

– ألم تخافي من الدبابات ؟

– جئت لأبعدك عنها، تعال نذهب من هنا.. !

– إلى أين نذهب ؟

– دعنا نغادر المكان، أريدك أن تعيش، كي أبقى أراك في الحارة..!

- نحن في معركة تحدٍّ معهم يا عايدة.. إنهم يدخلون حارتنا! يجب ألا ندير ظهورنا لدباباتهم.. اقتربي مني يا عائدة، دعيني أشم رائحتك.. رائحة عرقك الأشهى من رغيف الخبز. تعرفي يا عائدة، عندما أقترب منك، وأشم رائحة بدنك، وعرق عنقك، وأضع خدي على خدك، وأدع أصابعي تتغلغل بين شعاب شعرك، أشعر أنني لست وحدي.. أشعر بالسعادة، أشعر بأنني في بيت الأمان.. أشعر بالحياة ملونة، أحبك يا عائدة.. يقترب منها.. يدفعها باتجاه كومة هياكل السيارات المحروقة، ثم يختفيان عن الأنظار خلف كومة جذوع الأشجار المخلوعة.. أعطيني بوسة يا عائدة.. يحتضنها، فتدير وجهها بعيداً وهي خجلى، فيحاول أن يُقرِّب فمه من خدها، فتبتعد عنه بخوف.. !

- أنا خائفة..!

- ممن تخافين؟

- عين الدبابة علينا.. انظر! إنهم يراقبوننا من فوهة المدفع.. أريد أن أعود إلى بيتنا، تعال نهرب من هنا.. !

- سأبقى هنا.. !

يقضم رغيف الشطّة الحارّة على دفعات، وكل حجرين أو ثلاثة أحجار، تليها قضمة خبز ملتهبة بالشطّة..!

من قال: إن العين لا تلاطم المخرز ؟

شاهدت عائدة أخاها جعفر الأسمر يقترب من الجرف، فهربت مسرعة.

اقترب جعفر الأسمر من رفيقه نضال شلهوب الواقف في أرض منخفضة لمزرعة جرفتها الدبابات، واقتلعت أشجارها، ولم يبق منها سوى حفريات، وبقايا أشياء، وهيكل عظمي لحمار نافق، ورمال يتنطط فيها أطفال الحجارة، ومرتفعات تربض فوقها الدبابات الغازية.. لاحظ جعفر الأسمر

أخته عائدة، عائدة من عنده، فسأله :

- ماذا كانت عايدة تعمل هنا ؟

- كانت تعطيني رغيف خبز بالفلفل، أرسلته لي أمي.. فعلّق عليه ساخراً، قاصداً إغاظته :

- نعم يا رفيق..! يد على الزناد، ويد على الفلفل.. صاروا يصنعون بارود المدافع من حرارة الشطة !

وبسبب الشطة الحارة، والرشح الذي يهده، ومرض الحساسية يضعف بنيته، راح نضال شلهوب يمسح المخاط المنساب من أنفه بطرف قميصه. وكانت ريح صرصر عاتية تهب من جهة الدبابات الرابضة فوق التل المجاور، فتحمل معها ما يتطاير من القاذورات، والأبخرة المتصاعدة من نفايات التل البعيد، وهو يقول لجعفر الأسمر متضايقاً :

- نعم.. ؟! أنت جئت هنا فقط للمسخرة، وقلة الحياء، والتهكم على عباد الله.. بدل أن تقذف لك عليهم حجرين ثلاثة. ! أنت هنا فقط للفلفسة، وخذ منك تعليمات. !

رغيف الخبز المدهون بالأحمر بيد نضال شلهوب أشعر جعفر الأسمر بالجوع، وراحت نمنمات الفلفل الأحمر الحار تتفاعل وتشاغب داخل معدته، فعاد باتجاه بيتهم ليطالب أمه برغيف شطة مماثل، أو شريحة من رغيف، يُصبِّر بها معدته المطالبة بالطعام.. لم يصل إلى حافة الشارع، إلا وهو يسمع طلقات بارودة قناصة، التفت إلى الوراء، فشاهد ابن جيرانهم نضال يسقط مصاباً بعيار ناري، هجم ليسعف رفيقه، وركض باتجاهه، وما تزال تنطلق رصاصات متفرقة نحو المكان، كان يشعر بالخوف في لحظات، وتتملكه الشجاعة في لحظات أخرى، ثم ينتابه شعور بعدم القدرة على الوفاء لصديقه في لحظات قاتلة... لماذا أنا بالذات المكلف بحمل الأمانة ؟!

أسئلة وأحاسيس كثيرة كانت تنتابه وهو يتقدم باتجاه نضال، الواقع بين الأنقاض...

إنني أتقدم باتجاه طلقات الموت.. هذه ليست مسؤوليتي.. لا بل مسؤوليتي..! إنه رفيق عمري..! أحاسيس متداخلة وممزوجة ومجعلكة ومشوّهة وأصيلة وصريحة من الخوف والشجاعة وروح المسؤولية والتخلي عن المسؤولية والمحبة والجبن والشهامة والاندفاع والتضحية والأنانية وحب الوطن والنذالة والضيق و)ما بعد الضيق إلا الفرج(وواجب الإسعاف و)يا روح ما بعدك روح(و)الهروب ثلثي المراجل(..... إن احتمال تعرض صديقه للقتل يستحق منه الهجوم للإسعاف الفوري! كان شعور الخوف يدفعه للهروب إلى الأمام..باتجاه الجريح نضال.. !

كانت تراوده فكرة أنه لو استشهد نضال، فسوف تشبع الدبابة نهمها في القتل، ولن تتابع قتل الرغيف الذي سقط مغشياً عليه، فتعفرت الشطّة الحمراء بالتراب، وامتزجت معها نقاط من الدم..! وحتى الأسد - أشرس الحيوانات - يكتفي بفريسة واحدة، وعلى هذا الأساس من الثقة بأن أشرس الوحوش لا تفعلها، عاد جعفر الأسمر، وهجم باتجاه صديقه نضال شلهوب، ووضع يده تحت رقبة الطفل الذي كان يتلوى على الأرض، ولكنه لا يصرخ يبدو أن الإصابة بسيطة.. لا، لا، قد تكون قاتلة، والصبي قد أسقط في يديه، أدخل الطفل جعفر الأسمر يده اليسرى تحت فخذي صديقه نضال شلهوب، وهمّ برفعه إلى أعلى ليأخذه إلى أهله، أو إلى أقرب مستشفى يعالج الإصابة، ولكنه فوجيء برصاصات أخرى تخترق جسده هو شخصياً....! لا، لا، لم تكن رصاصات موجعة، ذلك لأنه لم يحس بها مؤلمة، شعر بأن شيئاً ساخناً يخترق جسده، فتهاوى الطفل، وأنزل حمولته، وأقعى مُسجياً رفيق عمره على الأرض.... وبالرغم من اصطدام الطلقات بالصخور والرمال، ومخلّفات الأشجار، والنفايات المجاورة للصبي؛ زخّات

هنا وهناك، إلا أن جعفر الأسمر لم يكن يُصدِّق أن هذه الهياكل الحديدية العملاقة المجنونة، مُصمِّمة لفتح معركة متكاملة بينها وبين رغيف خبز الطفل، المحشو بالفلفل..! ترى هل أثارتها حرارة الشطة، ففتحت شهيتها على جنون القتل؟ وهل قتل الدبابة للطفل كان بهدف خطف رغيف الخبز من فمه؟ وهل حسدت الدبابة نضالاً على رغيف خبزه المحشو بالشطة، فقامت بتشليح الطفل من حياته، لتنعم هي برغيف الشطة؟ أرض اللبن والعسل..! أرض الشطة والعسل..! أرض الشطّة والشطّة، أرض القتل والعسل..! أرض القتل والقتل..! واستمر انهمار زخات طلقات غزيرة، تنغرس في جسدي الطفلين، وفي الرمال والصخور المحيطة بهما... كانت المركافا الحضارية الديمقراطية العظمى تتمطى في الوقت الضائع بلعبة تمضية الوقت، وتتسلى بتجارب ممارسة المهنة، مهنة القتل، فقط لتتأكد من مدى فعالية سلاحها، ودقة إصابته. قتل تجريبي، أو تجريب القتل..أو كنوع من عرض العضلات..أو نوع من التمرين الرياضي الصباحي الذي تجريه كل يوم، فتحرك خرطومها الطويل بأوامر الكمبيوتر الخفي... يمين، يسار.. يمين.. يسار.. فوق.. تحت..فوق.. تحت.. استرح.. استعدّ.. استرح.. استعدّ...! رماية..! طُرر كانت مجرد طلقات تشبه بَرَدَ الشتاء، الذي يضرب الأرض بقوة، إلى أن ارتميا فوق بعضيهما والدماء نقطتان.. لم تكونا بقعتي دماء، بل نقطتين حمراوين قد جفتا، ذلك لأن الطفلين كانا يعانيان من فقر دم حاد، فلم ينزفا كثيراً، وراحت الأشياء تتلاشى من ناظريهما.. واختفت الألوان ولم يبق سوى)الأبيض والأسود(وكانت الكرة الأرضية تدور بهما،)حبّة فوق وحبّة تحت(والأشجار المجرفة والمخلوطة مع صفيح السيارات المهشمة بضربات طائرات الأباتشي والممزوجة مع قطع لحوم بشرية ونُتف طوب وأعمدة وجدران العمارات المغدورة والمجروشة بسنابك، وأسنان جرافات الكاتربلر العملاقة تتراكم وتتمدد في الساحة المشحونة بالغبار والأعاصير والعواصف في

والبرق والنيران تشتعل فيها والشاحنات تمر مسرعة فتدوس عجلاتها كل المارة المكتظين الذين يقطعون الطريق وتحولهم إلى معاجين من لحوم السنيورة والمرتديلا والبسطرمة والسجق وكانت عوادم السيارات الشاحنة تضخ دخانها الأسود الكثيف فوق اللحوم فتحولها إلى أصناف لحوم مُدَخّنة مميزة يصدرونها إلى مختلف تلفزيونات العالم الفضائية فتنعم بمشاهدتها الأجيال المبتهجة بتشعلقها فوق الكرة الأرضية ودبابات المركافا تتحول إلى طائرات الهنود الحمر الأباتشي الذين نهضوا من الأنقاض لينتقموا لأنفسهم ويقاوموا الانقراض الذي حل بهم فوجدوا أنفسهم يطيرون في الاتجاه المعاكس وطائرات الهليوكوبتر تطير فوق المكان كالغربان فوق بقايا جثث الوعول والغزالات التي أكلتها الضباع...كانت الصور تتلاشى تدريجياً في مخيلة الطفلين فلم يبق غير السماء والأرض وما بينهما من غبار وقاذورات تعصف وتدور بها الرياح، وفيروز تغني)شو بيبقى من الليل.... من الحكي.. من الضحك.. من البكي..شو بيبقى.. شو بيبقى يا حبيبي..؟ بتبقى قصص زغيرة.. عم بيطيرها الريح..(! وبسرعة غير متوقعة أطارت الريح معالم المكان وتبدد كل شيء ، ولم يبق غير)السواد (... وبرد جسداهما ، ولم يستطع أحد من الأطفال الصغار، ولا حتى الرجال الكبار، الاقتراب من ذلك الكمين المستمر في استقبال رشقات الرصاص على جورة الحفريات، التي كان الطفل يتخندق فيها ، ويلاعب الدبابة.. !

غبار

أبو مهيوب رجل في الخمسين من عمره، أشيب الشعر، نحيل الجسم، معتدل الطول، يطقطق بأعمال البستنة، في معسكر الحصار، في الجيب الفلسطيني المحتل للمرة التاسعة والتسعين، حيث يكتظ السكان هناك بشكل لا يُطاق ولا يحتمل، فتجد البيوت المبنية من الطوب المقصور، وغير المقصور، بطبقات متراصة فوق بعضها البعض، تعلو بعضها مثنى وثُلاث ورُباع، فتلتصق الشرفات بالشرفات المقابلة، وترتفع العمارات آخذةً بعضها بالأحضان، كمجمعات سكنية شعبية مهترئة متسخة، لانهائية الامتداد، والناظر إليها من بعيد يقول:

- يبدو أن الشرفات العالية تعشق بعضها بعضاً، وتلتقي بمثيلاتها بالأحضان، لاحظ المحبّة، وهدوء البال، وإلى أي مدى تتآلف العائلات هناك، وتحب وتتعاون فيما بينها..! تجدهم هناك مثل الإخوة، يأكلون من طبق واحد، وينشرون غسيلهم على حبل واحد، ويُوقظون بعضهم في ليالي رمضان.. الله..! ما أحلى ليالي رمضان.. عندما يتسحرون معاً، ويتبادلون أحاديث تُفَطِّس من الضحك، وأحاديث تُبكي، وخرافيات جدتي... ما أحلى خُرافيات الجدة التي تجمع أطفال العائلة المتناثرين، وتخرفهم خُرافيات تخيف وتمتع.. فيرد عليه أحد سكان العمارة، الذي يعيش الحدث:

- لو تدري شدة الصراعات العائلية، والغيرة القاتلة، والحسد والنكد، الذي ينشب بيننا وبين جيراننا هناك في علّيّين.. فهذه الجارة التي تربي الأرانب في الشرفة، تهب روائحها النتنة فتُفطِّس أنوفنا، وتخنقنا ونحن في

غرف نومنا، وهذا الولد المراهق يفتح مسجل الأغاني بأعلى صوت، فيتجشأ صوت المغني الألمعي جورج بتشوف)بحبِّك... بحبَّك... روح قلبي... نار قلبي.... الحب في القلب، زي الرز في الكوسا...نغم...(!.. وذاك العجوز الذي قضى عمره في)اللّي يسوى، واللّي ما يسواش(والمُصرّ على دخول الجنة بالقوة، تحت شعار)قضى عمره في أعمال البرِّ والتقوى(يا أخي عندما يموت أي شخص، تجدهم يكذبون فوراً في سيرته، ويشهدون زوراً بأنه قضى كل عمره في أعمال البر والتقوى..! وقبل وفاته بأعوام، تجد الحاج يهمد في سريره،)تسألني لماذا سموه)الحاج(مع أنه لم يحج، ولم يسموه مثلاً)المُصلّي(أو)المُزكّي(مع أنها كلها أركان الإسلام الخمسة؟ فأنا لا أعرف..! يصحو الحاج مبكراً مع صلاة الفجر، فيمد يده إلى مفتاح المذياع، فيفتحه بأعلى صوت، ليسمعه أهل حي الجبّارين القريب، ويفهم كل حي سلام الشجعان البعيد أن هناك داخل تلك الكومة من الطوب المتهالك فوق بعضه البعض، بقايا رجل تقيٍّ وورع، مُتمدِّد في غرفة ما..

وبعدها يبدأ التحضير لصلاة الفجر، فيتنحنح الشيخ بسماعة المئذنة عدة مرات، فنصحو كلنا من النوم، ويؤذن لصلاة الفجر أربع مرات متباعدات.. تسألني لماذا أربع مرات، مع أن الأذان الحقّ هو مرة واحدة؟ فأنا لا أعرف.. وأحياناً يترك شيخ الجامع سماعة المئذنة الموصولة بالإذاعة، ثم تأتي لحظات الإعلانات..... ثم يتقدم المذيع، وعلى تردد قدره ثلاثون)ميغاهيرتس(... ولو قال لهم المذيع: طائرة)ميغ(، فإن الناس يفهمونها، ولكنهم لا يفهمون معنى)ميغاهيرتس(... ! كانت السماعة في ذلك اليوم غير)مدوزنة(، وكأن شرخاً في الصوت العظيم، يصل إلى جروح أعصابي ، وينخفض الصرير ثم يعلو الصريخ في تماوج)طالع نازل.. طالع نازل(يجعلني أقف كالمسمار في أرض الغرفة، ويجعل شعري يقف كالمسامير فوق رأسي... ويبقى المذياع يصيح بأعلى صوته..... ونوح الذي عاش ألف

عام..! طيب يا أخي الله يرحمه.. !

ثم يعود المقرىء الشيخ لقراءة القرآن الكريم المستمرة بأعلى صوت، دون توقف، حتى بعد ذهاب الأطفال إلى المدارس ثم عودتهم منها، وانشغال الناس في بلاويهم ثم عودتهم للعشاء ثم النوم عند منتصف الليل، بينما الحاج صاح ومتابع لمذياعه لتحسين صوت مذياعه..! وذات مرّة، قلت له: يا سيدي الشيخ: يقول ديننا):....واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات....(وقال الرسول الكريم) :إن المُنبَتّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى(فاتهمني الشيخ بالزندقة، وأقام عليّ الحد، وكي يغيظني، اشترى ساعة أكبر شبيهة بالأطباق اللاقطة للمحطات الفضائية بقطر ١٨٠ سنتيمتراً.... وهات يا تردُّد وقدره.... وهذه الجارة تتهم جارتها بالتلصص على زوجها الغافل، وهو متمدد بملابسه الداخلية على سريره، فتجيبها جارتها بأن زوجها المتغافل هذا قد غمزها عدّة مرات من شرفة منزله، ولكنها تجاهلت فُجُوره، وإن تمدده بملابسه الداخلية أمام مرأى الجارات، وسماعنا أصوات ضراطه، مختلفة النغمات، التي يتخيلها مثل مختلف نغمات الهاتف النقال، يُصنّف تحت بند الفضائح.. فاستري على زوجك يا)مَرَة(، ثم بعد ذلك اتهمي النساء المحصنات الغافلات..! سبحان الله..! صار كل الرجال والنساء هذه الأيام، محصنات غافلات.. !

وعلى سطوح العمارة)كراكيب(ومخزونات كثيرة، ومكعبات صفيحية لتخزين المياه، وفي الزاوية تنحشر غرفتان، مساحة كل منهما متران، إحداهما غرفة

نوم، والغرفة الأخرى تحوي مطبخاً وحماماً ومرحاضاً، وفي غرفة النوم يلتصق أربعة أطفال ببعضهم تحت سرير زنبركي، تتمدد فوقه أمهم، ويتمدد أبوهم فوق أمهم، والأطفال يتدفأون بفساء الوالدين، وينعمون برضاهما، ولكن وبعد منتصف الليل، وفي العتمة الموشّحة بنور القمر، وأضواء مخيفة

تتدافع من بعيد، وفجأة ودون مقدمات، تقوم وتَقعُد هزهزات عنيفة فوق السرير، وأصوات لهاث وغنج وتأوهات، فيتأرجح السرير الزمبركي وينتفض آيلاً للسقوط، بينما أعمدته الأربعة تتراقص فرحاً بالعرس البهيج، ومنذرة بزلزال مُدمِّر، قد يقتل كل ما تحته من كائنات حية..! فيصرخ أحد الأولاد المحتمين تحت سقف السرير من القصف المدفعي قائلاً: ما هذا الذي يحصل يا أبي ؟ فيقول له أبوه: نريد أن نعمل لنا واحداً يا ولد... ! فيجيبه الولد خائفاً: ماذا تقول يا أبي... ؟ تعمل لك واحداً فوق السرير، فتقتل أربعة تحت السرير ؟!

وبينما هي تجمع ملابس أهلها من على حبل غسيل شرفة الطبقة العليا، يسقط منها سهواً كلسونها الرفيع الرقيق الأسود، ويستقر في الشرفة التي تحتها، فتلتقطه صبية تكمن في الشقة السفلي، وتعجب به، وتشمّه، فتعْرف أنه مغسول ونظيف، وتنزل الفتاة من أعلى الدرج مسرعة، وتطرق باب الجيران تحتهم، وتسأل باحثة عن سروال داخلي سقط سهواً، فتحلف الفتاة)أم عين بيضاء(بأنهم لم يروا، ولم يسمعوا بسروال ضائع..! وأحاديث متداخلة، ومشكلات كثيرة تنجم عن ذلك التشابك المعماري غير المدروس، وغير المنظم، وغير الآمن على رؤوس من ينامون تحته، وغير القانوني أصلاً بكل المعايير، ولكن للضرورات أحكام..!

هذا في الجو، وإذا نظرت إلى الأرض، تجد طرقاتها الترابية السرادبيّة الضيقة، تتوسطها قنوات ضحلة، لمجاري سوائل غير متجانسة، متماوجة الألوان؛ زرقاء غامقة وسكنية وسوداء، مع مخلفات أخرى ذوات روائح منتنة، تعمر الطرق الترابية المغبرّة الشاحبة، فتبدو للمارة، طرقات مسقوفة معتمة، فلا يجف الغسيل المنشور والمُدلّى بكثافة من الشبابيك والشرفات التي لا تشرف على شيء، سوى العتمة، وفي نهاية النفق المظلم، يُفتّح نور الشمس الساطع، فيشير إلى نهاية مطمئنة، بأن هناك مخرجاً من هذا

الطريق الكئيب الخانق..! ومن الجهات الأخرى المواجهة للشمس، تجد العمارات الطوبية، تلتصق بمقدمات بعضها)أحواش(من صفيح، أو فناءات إسمنتية للبيوت، لتمنحها بعض الخصوصية.

هذا المجمع السكني الكرتوني المتهالك، والمتساقطة بعض أضلاعه، ليتراكم عليها كثير من النفايات المختلفة أشكالها وأحجامها وألوانها، والساقطة من الطوابق العُليا، تجاوره هنا مغارة معتمة ورطبة خانقة، تفوح منها رائحة أسطوانات الغاز المُخزّنة فيها كمستودع تجاري. وهناك مهاجع للأغنام والماعز النائمة، تتعرف عليها بأنفك الذي يشم روائح بعرها وتنفسها، ورائحة نتانة صوفها، وشبقها الجنسي الذي يفرز روائح تثير الكبش والتيس في مناسبات محددة، فتراه يشمشم مؤخرة هذه، ومؤخرة تلك، ثم يقوم بمهمته المقدسة، بهدف إنجاب العيال..! وكثيراً ما تسمع ثغاء ماعز، أو نعجة جرباء، وقفت عاقراً أمام سطل ماء اندلق على الأرض، فشربت الأرض الترابية ماءه. وترى بقرة جف ضرعها، ونضب زرعها، تلحس التراب، وتخور ألماً ومعاناة، ويطن حولها ذباب أزرق لئيم، يطير ويناور، ثم يستحكم تحت ذيلها.

وعلى الأرض، أمام هذا التجمع المعماري الأجرب، تتراكم هنا وهناك أكوام من الحطب الجاف، وجذوع أشجار، يجرها أطفال مأمورون، وعجائز الفرنيّات، مع غبارها اللاحق خلفها على شكل مظاهرة بيئية تفور بالغبار الخانق، يجمعونها من حطام المزارع التي تقتلها جرافات الكاتربلر.

بعد تمعن، وبحث دقيق، أدرك سكان المعسكر أن الجرافات لديها حساسية من الخضرة.. - لا أعرف من هو الحاكم الذي منع أكل الفجل الأحمر، لأنه أحمر - وهذه الجرافات تكره اللون الأخضر، لأنه أخضر، وتأمر مجنديها الآليين المستنسخين عن هولاكو، فيفسقون فيها، ويقضون على اللون الأخضر، ويجرّفون كل المزارع التي تعارضهم، بهدف إفراغ المنطقة،

لتتضح الرؤية أمام الدبابات التي تريد أن ترى مسافة أبعد من مدى رؤية زرقاء اليمامة، تلك المرأة التي كانت مصابة بمرض)بُعد النظر(، وحيث إنه لم يكن يومها نظّارات فيها نظر، أو نظّاراتي محترم يفهم للحرمة، فلقد ازداد معها مرض بُعد النظر، حتى صارت ترى الأشياء التي على بُعد ألف ميل، ثم صارت ترى الأشياء الواقعة على الجهة الأخرى من الكرة الأرضية..فتعلنها بهدف حماية جماعتها من غزوات التتار البرابرة التيمورلنكيين الإمبراطوريين المتشددين المحدثين..

وغيرةً من مدى رؤية زرقاء اليمامة، قررت الدبابات تجريف الجبال والوديان، والمدى والأفق والبعد، والزمان والمكان، والأشجار والطيور، والسماء والأرض، لتتضح لها الرؤية، وتتفوق على رؤية زرقاء اليمامة، فتدخل موسوعة جينيس للأرقام القياسية... - على فكرة، لم تدخل زرقاء اليمامة موسوعة جينيس يومها، وصرّح الناطق الرسمي بأن السبب؛ هو كون السيدة عربية العينين، وإرهابية المقاومة-

وقد يتم التجريف بهدف تأديب صاحب مزرعة حمضيات إرهابية تهاون في رقابتها، فمر من بين أغصانها رجال مقاومة، ويا حبيبي! فهذا يتم تأديبه بتجريف كل أشجار مزرعته، والمزارع الإرهابية المحيطة بها فقط،)يعني بيحلقوا له شجراته..! عشان بعد هيك ما يعيدها...(.. ويوم قتلوا طفل الحجارة، سألهم منتج الأفلام الوثائقية البريطاني)جيمس ميللر(× الذي اغتالوه لاحقاً: لماذا قتلتم الطفل؟

فكشفت الدبابة عن أنيابها التي تشبه مسننات الكاتربللر، ثم قالت:

) -عشان بعد هيك ما يعيدها.. (! فكرر)جيمس ميللر:(

- تقصدين أنه كي يكون الطفل درساً للأطفال الآخرين، وكي يتعلموا من موته، فلا يتعودوا ويعودون يعيدونها؟ فقام الرجل الآلي الذي انبلج من

الدبابة، وانتصب كالصنم الذي يفترض من الآخرين عبادته، وقال لرجل الأفلام الوثائقية :

) -لا يا خبيبي، مش عشان غيره يتعلم، عشان هو نفسه يتعلم الدرس، ويصير مؤدب وخلوق ومربى، وبعد هيك ما يعيدها... (! فسأله)ميللر(الذي اغتالوه لاحقاً :

- طيب، والطفل محمد الدُّرّة الذي أخذه أبوه معه للتسوق، وليس لرجم الحجارة، فأطلقتم عليه وعلى أبيه صليات متتالية من الرصاص الحي، فلماذا قتلتموه ؟

- لم يدل الناطق الرسمي باسم الرجال الآليين المستنسخين عن نيرون والمجندين لمسح وتلميع الكرة الأرضية بالجرافات بأيٍّ تصريح، وكل الذي حصل أن السينمائي المسكين)قُبض على جثته مقتولة(، وشيعوا له جنازة محترمة، ابتهج واندهش وتوتّر واستمتع بها كل مشاهدي قنوات التلفزة الفضائية)أحلى من هيك جنازة، ما في! (

الغبار والدخان المتسابق في الجو، والأبخرة السامة المتصاعدة من النفايات، والتي لكل منها في الحلق طعم خاص، تكاد تفتك بأهل المعسكر، وهي تسبح وتتمطى وترتع وتتدلل في جو طرقاته يتيمة حزينة مكفهرة، وأكوام القمامة ترتفع وترتفع في مناطق متعددة، لتكوِّن جبالاً عالية،)ويا جبل القمامة ما يهزك ريح..! ولكن الجبل، لُعِن أبوه، وأبو الذين خلّفوه...(! كل هذه المعالم تتضخم على الطرقات، وتذروها الرياح، فتتطاير منها قاذورات، تنشر الخراب والدمار في كل مكان، فتنعدم الرؤية والرؤيا من جديد، بينما أطفال قطعتهم الطرقات، وكست وجوههم طبقات من الرمال، وتغلغلت في رئاتهم وشراييهم، وخلاياهم الجسدية، أبخرة القمامة السامة السابحة كالغيوم في كل مكان، والعفونة القادمة مع نسيم الصباح العليل - والعليل هنا تعني؛ المريض - فلا يعودون قادرين على الوصول

إلى مدارسهم، فيحتمون بتلال القمامة، يلعبون فرحين بالانفلات المدرسي، والانفلات الأمني، والانفلات الغذائي، والانفلات الصحي ، والانفلات العاطفي، والانفلات النفسي، والانفلات التجاري، والانفلات المقاوم، وانفلات الانفلات..! ويتوهون في غموض غيوم النفايات الخانقة، فلا يعودون يرون شيئاً محدداً، فتصفعهم ألواح صفيح متطايرة، تنسفها الرياح، ويزعق معها الخراب، فيردون لها الصاع صاعين، بالحجارة التي تنطلق بأي اتجاه، فتصيب، وقد لا تصيب، دبابة لئيمة حاقدة متحفزة... !

وبسبب الحصار الذي يعيشونه، يقعد أبو مهيوب مع)أبو غازي(×، صاحب دكان الفالوجة ذي الزبائن القلائل، والذين يأتون، ولا يأتون... يستمعان إلى الأخبار، فلا تبقى إذاعة تبث برنامجاً إخبارياً، إلا ويبحث أبو غازي عنها، يتشمشم الأخبار، لعل وعسى يكتشف نوراً في نهاية نفق فلسطين المظلم، وأحياناً يتابع الأخبار وهو يلعب معه ورق الشدة، وأحياناً يساعده في رش ماء على خضار الصناديق، كي لا تذبل بسبب الحر، وبسبب ضعف القوة الشرائية، ذلك لأن)أبو غازي(يشتريها اليوم، ولكنه لا يستطيع بيعها إلا بعد يومين أو ثلاثة.. لا يوجد مشترون.. فيضطر أبو مهيوب للمشاركة في الخدمة، فيتسلى معه برش الماء عليها، وترتيب عرضها قائلاً :

- كيف حركة سوق الخُضرة اليوم يا)أبو غازي(؟

- زفت..! السوق مثل العمى..! الأحوال تتردى يوماً بعد يوم... فالحاجز الثالث عشر الذي وضعوه بين المعسكر والمدينة، خنقنا، وجعلنا ندور كل يوم في حركة التفافية، ونقطع حفريات ومتاريس وخنادق وطرقات وشوارع ترابية طولها ألف عام..

قف..! ممنوع المرور،

قف..! ممنوع المرور..!

قف..! ممنوع المرور..!

ونستمر هكذا

نقف ونعود أدراجنا ،

ثم نقف ونعود...

ثم نقف ونعود.....

ندور، مثل أمنا هاجر المصرية، التي راحت تسعى بين الصفا والمروة، باحثة عن نقطة ماء، تبل ريق ابنها إسماعيل..... كل هذا كي نصل إلى السوق، وعندما نصلها، نجدهم قد منعوا عربات الخضار من التوقف في شوارع السوق...

- يجب على كل تاجر أن يعرض بضاعته داخل محله التجاري.

- افتحوا الشوارع للسيارات المارة....!

- طيب سيفتحون الشارع.. ولكن انت عارف، أصحاب العربات التي على كل منها كومة صغيرة من الخضار، لا يقدرون على استئجار محلات، كل مخل)خُلُوُّه(ملايين الشواقل! هذه المحلات عليها ضرائب ورسوم بلدية، ومجار ومسقفات ورسوم معارف.. ولكن أولادنا لا يدرسون في مدارس المعارف..بقدر ما يدرسون على المزابل...! فمن أين لهم ليدفعوا ضريبة معارف ؟ ولهذا يضطر أصحاب العربات للخروج من السوق، والسعي في مناكبها، ودفعها في طرقات المدن والمعسكرات، وبيع خضارهم بالمُفرّق، فتشح البضاعة المعروضة في السوق، ويرتفع ثمنها. فقال أبو مهيوب:

- معنى ذلك أن بضاعة العربات المتجولة في الحارات، والتي تبيع مباشرة للناس، صارت منافسة لبضاعة الدكاكين، وارتفعت أسعار

بضاعتكم، فانخفض الطلب عليكم، وتخوزقتم بلا مؤاخذة... !

- تقول هذا وكأنك متخوزق معنا يا أبو مهيوب....! أقصد كأنك تعيش معنا في السوق..!

وبعيداً عن)أبو غازي(، جلس أبو مهيوب، مُسنداً خدّه بيده، يحدث نفسه، حزيناً على شقائه، وسوء حظه :

- لا أعرف لماذا ربنا سبحانه)جايبها معي بالمقلوب..(!

مرّ من أمامه طيف ابنه المقاوم مهيوب، الذي كان يقضي معظم وقته مع الرفاق، في أماكن لا يستدل عليها حتى الجنّ الأزرق، ولكن أخبار تحركاته كانت تصل تباعاً للمحتلين..! الجواسيس يا بنيّ لا ينامون، ولا يتركون أحداً ينام..) !أولاد الحرام لا تنام، ولا تخلّي الناس تنام(الجواسيس يعرفون أكثر من الجن الأزرق.. إنهم ينشطون لخدمة الاحتلال، والمقاومون ينشطون في الاتجاه المعاكس..! كان تحديه للريح الصرصر العاتية القادمة من الشمال الغربي، ومقاومته دخولها من بين أغصان الأشجار المتكاثفة فوق بعضها البعض، وكأنها تمد أذرعها مشبوكة لحماية رجال ونساء المقاومة، وتغطية تحركاتهم، ولكنهم دخلوا من جميع الجهات.. لا لم يدخلوا، بل بقوا في أماكنهم وهم يصرخون بمكبرات صوت، باثة الصوت مع الصورة كاملة.. !

- يا مهيوب، يا إرهابي، اخرج من المغارة عارياً مستسلماً، زاحفاً على يديك، اخرج كما ولدتك أمك..! اخرج، وإلا..!

فكّر مهيوب كثيراً قبل أن يقرر..

هل أخرج إليهم عارياً زاحفاً ذليلاً كما ولدتني أمي ؟

ولكن أمي ولدتني حراً كما قال عمر بن الخطاب)متى استعبدتم الناس وقد... (!

ما داموا بهذه الكثرة والأسلحة الفتاكة، فهل أهرب من منفذ ما ؟

لو هربت لانتشر الخبر بأنني جبان.. !

ولو قاومت فسوف يقتلونني.. !

ولكنني عندما دخلت هذا الطريق، كنت أعرف أن تجارتي ربح أو خسارة.. فإما أن أربح أرواح المحتلين المعتدين، وإما أن أخسر روحي..وأنا قبلت بهذه التجارة..)يا ربح.. يا خسارة..(! وحتى لو قررت الهروب..فلا يوجد منفذ.. ولا بد من المواجهة.. ولكنني لن أخرج عارياً ذليلاً، فأنا لم تلدني أمي ذليلاً كما يتخيلون.. !

سحب أقسام رشاشه العوزي الذي كان قد اختطفه من أحد المجندين، وخرج من المغارة التي كان ينام فيها مستريحاً من مطاردة أعداء الوطن..!

تجمع الناس من بعيد وهم يشاهدون طائرات الأباتشي، ويسمعون أصوات طلقات الرشاشات المرعبة، وراحوا يراقبون الحدث بتوتُّر عالٍ، ولكن ما باليد حيلة، فقد يُفَجِّرون المغارة بقنبلة ذكية غبية...عليك أن تخرج يا مهيوب..فأنت مهيوب طوال عمرك..لا تمت يا مهيوب فطيساً داخل المغارة..اخرج وواجههم بسلاحك.. لم يكن أمامه من سبيل سوى المواجهة..أن يكسب شيئاً في هذه المواجهة، أفضل من أن يخسر كل شيء.. خرج مهيوب وهو يرش في كل الاتجاهات، فاستطاع أن يقتل أحد المهاجمين، ولكنه استشهد في تلك الواقعة.. اخترق الرصاص كل أنحاء جسده..

وبعد أن انسحب الرجال الآليون بدوريتهم المؤللة، هجم الناس والجيران، فحملوا جسده المثقب كالغربال والمخضّب بالدماء، وجمعوه في كفن، وغطوه بالعلم الفلسطيني، ثم نقلوا نعشه بمظاهرة كبرى لم يسبق لها مثيل، ساروا به عبر شوارع المعسكر، وأسرعوا بدفنه في مقبرة الشهداء..

وفي تلك الليلة، تجمعت النساء في بيت)أبو مهيوب(، وتحلّق الرجال

حول حوش البيت الصفيحي الصغير، يعزّون أهل وعشيرة الشهيد، ويتضامنون معهم، وغنت النساء أغاني من نفس النوع الذي نسمعه في الأفراح..! غنوا ودبكوا، حتى شبعوا..!

سَبّل عيونه،

ومَدّ ايدُه، يحنّونه ،

خصرُه رقَيِّق،

وبالمنديل يلفّونه..!

غزال بالبرِّ شارد ،

ويَا امّاه رُدّونه... !

كان أبو مهيوب قبل استشهاد ابنه قد زوّج بناته الثلاث، هاجر ومريم وخديجة.. زيجة محترمة أو مُزَفّتة...! المهم أنه زوجهن، وستر عليهن، وتخلص من مسؤوليتهن، قبل هذه المأساة التي صبغت حياتهم باللون الأسود.... حيث أعاد له استشهاد ابنه التاريخ من جديد... تاريخ تهجيرهم من الفالوجة عام ثمانية وأربعين، عندما قتلوا أباه وعدداً من المقاومين أيامها.. كانت مجرد مقاومة شعبية، شعبية لأنهم بلا حكومة، وبلا جيش، وبلا تنظيم.. ومنذ ذلك اليوم، وحتى هذا اليوم هم بلا حكومة، وبلا جيش، ولكن صار لهم عدّة تنظيمات يمين.. يسار.. يمين.. يسار..استرح.. استعدّ.. استرح.. استعدّ..!.. وأيامها قام المحتلون بهدم كل بيوت القرية لإخفاء آثار جرائمهم، لم يكن هناك تلفاز يصور هدم البيوت، وقتل الأبرياء المسالمين الساكنين في بيوتهم - كلمة الساكنين، مأخوذة من السكون والهدوء والأمان -، وكان بيتهم مبنياً من الحجر الأبيض الصلب النظيف.. ومكحلاً بالإسمنت الأسود، أجمل من كحل عيون المها.. ولكنهم قتلوا)عيون المها بين الرصافة والجسر.....(وها هي الحضارة

الديمقراطية التكنولوجية، والأسلحة الذكية الغبية المنفلتة من عقالها تلاحقهم من جديد في المنافي، فتقتلهم كل يوم..!

حزنت أم مهيوب على استشهاد ولدها حزناً شديداً أقعدها وشلّ حركتها، فذوت وذبلت أوراقها، وتخشّبت أطرافها، وتوقف سريان السيولة العصارية في جسدها، فبردت أجزاء من ذلك الجسد الذي كان يفور حرارة وحيوية وحركة.

ولم ينتبه أبو مهيوب لتراجع حالة زوجه، وهدوء حركتها، وضعف بصرها الناتج عن شدة بكائها الصامت... لم تكن تنوح، أو تلطم خديها، بل كانت تذوب رويداً رويداً، وكان كل جسدها يتضاءل، كشموع متراصة متّقدة من بعضها البعض، إلى أن انكمشت، وكادت تتوارى عن الأنظار لشدة هزالها، وضمور جسدها.. وعندما أخذها أبو مهيوب إلى عيادة المعسكر، فحصها الطبيب، فحوّلها فوراً إلى مستشفى)الرأفة(الكائن في غرب مدينة الحصار، وهناك فحصوها، وخرج من المختبر تقرير أسود، يشرح إصابتها بالسرطان المنتشر في كل أجزاء جسمها، وأن حالتها ميئوس منها، وكان موتها خاتمة مرّة لحياة أسرة عانت كثيراً.. !

× × × × ×

وإذا سألت عن)أبو مهيوب(، أقول لك إنه من سكان معسكر الحصار، واسم هذا المعسكر، نشأ مع عدة أسماء معسكرات أخرى للاجئين، بعد أن نُهش جسد المغدورة فلسطين، وشُتت أهلها، فتجمعوا من جديد، في مخيمات متباعدة ومحاصرة، حيث أمطروهم بوابل من الخيام، فسكنوها عَوداً على بدء، هكذا أرادوا لهم أن يعودوا أعراباً، وبدواً يسكنون الخيام... ويا ليتهم بدو، فالبدو عندهم الحلال والغنم ووسائل الحياة المتكاملة، من ألبان ولحوم وشحوم، ووسائل دفاع، وأراض للرعي، وشيوخ وعِزّ وماعز، وأما أصحاب هذه الخيام، فكلهم ماعز بلا عِزّ، ينتظرون يوم الذبح العظيم،

يتسلّون بهم على مراحل، عبر خمسينات السنوات، وبالتقسيط المُملّ.....! ولماذا هم مستعجلون، فإن الأندلس ذاب جبل جليدها خلال ثلاث مئة عام من التقهقر.

ورَدّاً على طغيان الرجال الآليين المدججين بكل قوى الشر والطغيان، قرر المهجّرون استبدال أسماء المخيمات المأخوذة من التخييم بالمعسكرات، ليخيفوا الأعداء، ويشعروهم بأن هذه التجمعات هي معسكرات تتحفز وتستعد وتتدرب، للعودة إلى يافا وحيفا والجليل الأعلى.....

ولأهداف دبلوماسية تعاطفية عولمية، سموا هذا معسكر مدريد، وذاك معسكر العرب، وهذا معسكر الملك جورج الخامس، وذاك معسكر أوسلو، ثم معسكر الإسلام، ومعسكر المحسن الكبير، ومعسكر)هولي لاند(، ومعسكر الظريق.. لعل وعسى هذه الأسماء، تجلب الحظ والمساعدة والصدقة لهؤلاء الأقل حظاً في شعوب العالم، ولكن ما حصل أنه كما تقول المغنية الصلعاء) :ما حدا لحدا يا حبيبي... (! فلم يدفع أحد مليماً واحداً صدقةً، بقدر ما دفعه تمويلاً لرجاله وعيونه في المعسكر، الذين يكتبون له التقارير، ويضعون له بصمات جهته المعنيّة داخل المعسكر، ويوجهونه للضحية القادمة، المطلوب أن يتجه نحوها حسب خارطة الفخ المهورة بمعرفة قوات التحالف؛ سايكس وبيكو، والملحقات واللوائح التفصيلية المكملة لملفاتهما، والبيانات التحليلية، والاستطلاعات الصادرة عن جمعيات حقوق الإنسان وحقوق الحيوان وحقوق النبات وحقوق القرود وحقوق الجن الأزرق وحقوق مثيلي الجنس..... والحقوق الممولة من جهات خفية، والتي تحركها من الخلف أصابع عرائس المسرح، ولا يعلم ما ترمي إليه إلا الله....

وهو رجل أرمل، ليس)سايكس(أو)بيكو(هو الأرمل، بل أبو مهيوب، فبعد وفاة زوجه، والتي لم تُخلّف له إلا الشهيد مهيوب، وثلاث بنات، زوّجتهن قبل وفاتها لشباب على باب الله، يعملون يوماً، ويتعطلون

أسابيع، مثل سائر خلق الأيتام، المحتلة أوطانهم.

وبرغم التحديات القاتلة، لم تهزمه المآسي العظام التي تحاول طحنه كل يوم، ولم يكن أبو مهيوب يعرف ما قاله)إيرنست همنجواي(على لسان عجوز البحر....)قد يحطم الرجل ولكنه لا ينهزم...(ولكنه كان يعتقد بهذا النهج - الذي سار عليه السابقون واللاحقون - أنه)لن يضيع حقٌ، وراءه مُطالب(ولهذا ظل شعلة نشاط وحركة عمل....

استمر أبو مهيوب يعمل كسابق عادته، يدور على بساتين وبيوت عباد الله، يُطعِّم شجرات خشخاش دار)أبو ناب(ببراعم ليمون وبرتقال ومندلينا ويوسف افندي، ويطعم اللوز البري في بستان دار)أبو معيط(، ببراعم لوز فرك، أو مشمش أوخوخ، أو دراق أبو فروة، أو خشم العجل، أو نكتارين فرنسي جديد، ويوصي برش العنب بالكبريت في بداية الصيف..... كبرتوه... هذا العنب إذا لم يُكَبرَت، فإن قطوفه تتعفن، ويذهب المحصول هدراً....! الآن يا)أم خرفان(موسم زراعة البقدونس والجرجير والفجل والبصل والثوم والسبانخ في البستان..!

كان الرجل يقوم بوظيفة مستشار، ولكن بلا مستشارية، وخبيراً بلا خاتم خبرة، وكان رجلاً فاعلاً في عهد تعطلت فيه لغة الكلام.. وتعطل فيه كل شيء، ما عدا دخول رجال آليين أغراب علناً - وكلمة أغراب هنا مأخوذة من الغرب- أو متخفِّين بزي أبناء البلد، يقولون إنهم عاربون أو مستعربون، أو مستلئمون أو مستقردون، هذا لا يهم، المهم أنهم يدخلون إحدى حارات المعسكر، فيصطادون لهم ذبيحتين، ثلاث ذبائح من نشطاء شباب المقاومة، الذين يسمونهم إرهابيين ، صار المحتلون رجال سلام، والمقاومون لتجريف بيوتهم على رؤوس أطفالهم يسمون إرهابيين. ! فيتسلل رجال السلام المدججون بكل أنواع الأسلحة الفتاكة والكيميائي والفيزيائي والكهربائي، وكل شيء)بيئائي(، وينقضون على الإرهابيين المعارضين للاحتلال،

ويصفّدون بالجنازير أيديهم وأرجلهم التي ستشهد عليهم يوم التعذيب في المعتقلات،)لا بد هنا من التأكيد على أن القوانين والأنظمة الدولية تمنع اصطياد وقتل حيوانات الطبيعة، إلا في موسم قصير، قد يكون في الخريف، وبقدر ما يستطيع الصياد القاتل أن يأكل من اللحم، هو شخصياً، لا أكثر، وأما قتل بني آدم فمسموح بأعداد لا نهائية، وطوال العام.. طوال العمر.. طوال التاريخ فقط.. (!، وحسب نظام التعبئة والتغليف والشحن التجاري، الذي يتقنونه، فهم تُجّار مهرة، تجدهم يعبئون رأس كل مقنوص بتهمة المقاومة، بكيس بلاستيكي أسود مقوّى مقلوباً، ثم يحزمون الكيس حول عنق المقاوم بخيط بلاستيكي لا ينقطع أبداً، ويدفعونهم ببساطيرهم وأعقاب بنادقهم الرشاشة، ليحشروهم داخل سيارة جيش من ذوات الدفع الرباعي، والتي تلتهم الجبال مثل التهام النيران لأخشاب منقوعة بالبنزين.. وهناك يخرجون بهم مصفّدين مضروبين مهانين، باتجاه سجون الاحتلال التي تعج بأكثر من عشرة آلاف متهم بالتململ، أو بالمعارضة، أو بالمقاومة، أو رفض التعاون مع الاحتلال للتجسس على عباد الله.. وهناك يَتَعَشّون بهم على مهل، وبطريقة حضارية ديمقراطية، بالشوكة والسكين، وفوطة الصدر.. حذرين ألا تتساقط نقاط دماء على ربطات أعناقهم، أو ياقات قمصانهم البيضاء البريئة.. كانت البراءة ترتسم على وجوههم وهم يتحاشون سقوط قطرات الدم على فوط صدورهم البيضاء.. يا أخي، رجال سلام فعليين.. ألا تُصدِّق كلامي؟ نعم؟ هل تعتقد أنني أبالغ في كلامي؟ صدِّقني.. لقد شاهدت مذيعة أخبار التلفاز، تلك الصبية الشقراء ذات الرقبة الزرافية الرائعة، والمختومة بشامة جميلة، أو خال أسود، كما نسميه، نعم شاهدتها وسمعتها بأذنيّ هاتين، وهي تنعتهم برجال السلام.. !

وأما أبو مهيوب، فلقد كان يعيش على هامش ما يجري، لأنه ليس في عمر الشباب المقاومين، ولم يبق له أولاد بعد مهيوب يردّون على العساكر،

ولم يعد له زوجة يخاف عليها، ولكنه قرر أن يعيش رغم أنف الاحتلال، وكان سبيله الوحيد للمقاومة، هو خدمة أشجار المعسكر، فهؤلاء الفلسطينيون يعشقون الخُضرة الداكنة لغابات الكرمل والجليل، والخضرة الفاتحة لبرتقال بيارات يافا واللد وغزة، إنهم يحبون أي زرع أخضر.. ولذلك تجدهم يزرعون أية أرض تحيط بالخيمة أو)البرّاكية(أو البيت الطوبي الصغير.. فبعد شهر من هجرتهم الأولى إلى المخيم، جاءت لجنة تقصي الحقائق التابعة للأمم المتحدة ضدهم، فشاهدت أول ما شاهدت أن المهجّرين قد زرع كل منهم الأرض المجاورة لخيمته، وأن البصل قد طلعت أوراقه الخضراء.. دُهشت لجنة تقصي الحقائق المتحدة ضدهم..! لم تُدهَش لمأساة بقايا المقتولين، المحشورين في تلك الخيام، بل اندهشت لإنبات ورق البصل الأخضر خلال شهر واحد، وبهذه السرعة..! وقال أحدهم:

- خلال شهر واحد زرعوا فأكلنا، ويزرعون فنأكل..! لأنه غريب، لم يُرَسِّخ مقولتنا) :زرعوا فأكلنا، ونزرع فيأكلون(.بل رسّخ مقولتهم التي تأكل كل شيء) :زرعوا فأكلنا، ويزرعون فنأكل.(وقال آخر :

- هؤلاء الملاعين يقاومونا بالأعشاب، بالخضرة..! وقال رئيس اللجنة:

- كي تكسروا شوكتهم وعنفوانهم ومصدر استمرار حياتهم، اقتلوا الخضرة أينما حلت في ربوعهم..!

كان مصطفى مهيوب الصنفوري آنذاك، طفلاً في خيمة.. ولكنه الآن على مشارف القرن الواحد والعشرين، قد غدا في مرحلة حصاد العمر..! وما زال أبو مهيوب يواجه الشقاء والتعب بالضحك، نعم إنه يضحك ويسرد نكاتاً كثيرة، ينقلها من فلان إلى علان، ومن زيد إلى عبيد، فيضحكون كثيراً، ويقول أبو مهيوب لصاحبه أبو غازي: كلما استشهد من يافا)مثنى وثلاث ورباع(، وما ملكت أيدي الغزاة من القتل، كان جارنا البدوي وأذكر اسمه)مشاتل(يسخر من أهل المدينة، فيقول: إن مدنيي الساحل)مُيّع،

ودُلَع(، ولا ينتقمون لقتلاهم، وليس عندهم شجاعة ولا غيرة، ولا قبائل ولا عشائر تحميهم من غزوات الغرب... ! والله لو هجم الغزاة على عشيرة بدو، لردوا لهم الصاع صاعين، وأرسلنا لهم سبوعتنا، بالسيوف الرهيفة، يقُطُّون رقابهم قَط، ويأكلوهم أكل، ويريحوا البلاد منهم..! كل العشيرة ستتكاتف يا رجل، وستنتقم من المعتدين....!

وفي يوم من أيام الثمانية وأربعين يا)أبو الحبايب(، هاجم الغزاة الذين خرجوا من البحر شابين كانا يرعيان أغنامهما، فقتلوهما، وسرقوا مواشيهما.. وقال الناس يومها: لقد تورط الغرباء بدماء عشيرة بني ظوجان... الآن خذ ثارات وانتقام البدو... الآن سيُجنّ جنون البدو، وستثور ثائرتهم، وسيهيجون ويموجون..! وانتظر الناس، وأيديهم على قلوبهم...يوماً، اثنين، ثلاثة، عشرين، خمسين يوماً... ستة أشهر... ولم ينتقم بنو ظوجان من قاتلي ابنيهم..! ورداً على ذلك، قال لي أحد حكماء البدو: نحن نعرف أننا شجعان، ولكننا نعرف أيضاً أن القوة غلبت الشجاعة، ولذلك يقول المثل: إن العربي يخبىء الخنجر في صدره خمسين عاماً، ليضرب به غريمه..! لقد تعلمنا أن العدوان شديد، ولا يفل الحديد إلا الحديد، ولا يحرر فلسطين إلا تكاتف كل فئات الفلسطينيين والبدو والفلاحين والمدنيين، والعرب والمسلمين، وكل القوى العالمية المناضلة من أجل الإنسانية والسلام.

وللخروج من الموضوع، قال أبو مهيوب: اضحك يا رجل،)محدِّش ماخذ منها حاجة(!.... تعرف يا أبو غازي؛ الشغل في الشجر والزراعة، يجعلك تتعامل مع كائنات حية، غير بني آدم، فتخدم نباتاتك التي تعطيك ثماراً شهية..! كل شيء يا أبو غازي تزرعه، فتخلعه، إلا ابن آدم، تزرعه، فيخلعك..! ولهذا السبب أنا أحب النباتات، وزراعة النباتات، وقطف ثمارها، وأعشق الأشجار، وتحت ظلالها أتوارى عن الأعين، فلا أعود أرى

المحتلين..! ولكنه كان إذا تم تجريف مزرعة مجاورة للمعسكر، فإنه يبكي الأشجار قائلاً: يا ويلي، لقد خسرت ما قد يأتيني من هذه الأشجار، فكم طعّمت، وكم أطعمت منها..!

ومثل الديناصورات المتوحشة التي خرجت من مختبرات جيراسك، وفلتت في شوارع المدينة..! تنطلق الجرافات من عقالها، فتمحو الأشجار من على وجه الأرض،)تلك الأشجار التي قالت عنها الكاتبة الفرنسية فرانسواز ساجان: يحزنني أن أموت، ولن أكون قادرة بعد ذلك على رؤية هذه الأشجار.. (! كانت الأشجار وليس غيرها، هي أعز شيء لدى ساجان، وهي تفارق الحياة... لم يكن أبو مهيوب يعرف ساجان، ولا ماجان، ولكنه كان يسأل نفسه: أنا أفهم أن اثنين يتقاتلان، وأن فلاناً يعتدي على فلان من الناس، ولكنني لا أفهم سبب خلع الأشجار، وهل هي كائنات إرهابية بمفهوم هؤلاء الغرباء أيضاً؟ ترى هل لهؤلاء الغرباء عقول مثل عقول بني البشر؟ وإذا كانوا يفهمون مثلنا، فلماذا يقطعون الأشجار؟ رحمك الله يا أبا بكر، إذ قلت لجيش أبي عبيدة)ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخاً، ولا امرأة، ولا تقطعوا شجرة.(..! وضع أبو بكر قطع الأشجار، بسوية قتل الأطفال... ! قال: ولا تقطعوا شجرة... ولم يقل شجرة مثمرة... !

لم يعرف أبو مهيوب أن الإسلام كان يهتم بشيء اسمه بيئة منذ القرن السابع الميلادي، وأن أهل الغرب لم ينتبهوا لهذا الشيء إلا في القرن العشرين فقط، ويا ليتهم طبّقوه..! ولم يعرف أن انهيارات الجليد في القطبين الشمالي والجنوبي وثقب الأوزون، وارتفاع درجة حرارة الأرض المتجهة إلى موت حتمي للحياة على الأرض، سببه دخان الآليات والمصانع الغربية، وقطع الأشجار للصناعة والتجارة والوقود في مواقد الشتاء الغربية..! لم يعرف تفاصيل كل ذلك.

كانا يستمعان إلى أخبار إذاعة لندن، وعندما تنتهي نشرة الأخبار، يذير

المفتاح على إذاعة صوت العرب من القاهرة، ثم يتابع أخبار إذاعة مونتي كارلو، ثم يقلب على أخبار إذاعة أخرى، حيث لم تكن قد وصلتهم بعد حضارة التلفازات الفضائية، وإذا وصلت، فلم يكن معهم تكاليف شرائها... ويعلق أبو مهيوب قائلاً : هذه الأخبار كلها عذاب في عذاب..! مفيش خبر واحد يسر البال! ستة قتلى في مخيم جباليا..! سبعة جرحى في مخيم طولكرم، ثلاثة عشر معتقلاً في مخيم جينين، قتل مستوطنين تسللا على شكل مستعربين إلى سوق مخيم بلاطة! لقد قطعوا رقابنا، ثم لحقونا، فقطعوا أشجارنا.. ؟ الآن فهمت أن قتل الأشجار هو قتل للحياة، أو قتل السعادة لدى أصحابها؟ وأن تجريف الأشجار هو المقدمة الحربية لتجريف الناس المتعايشين معها النصف الآخر- فقال له أبو غازي: كثير من الفقراء يأكلون أعشاباً بريّة، لعدم تمكنهم من شراء خضار السوق، اسألني أنا بائع الخضار... فتجريف الأرض، وما عليها من أعشاب، يقتل مصدر رزق الفقراء الذين يأكلون)العلت، واللسينة، والخُبِّيزة، والعكوب، والزعمطوط، والشومر البري، والزعتر(وَباقي أعشاب البرية..!

عاد أبو مهيوب وأبو خليل من تشييع جنازتي الشهيدتين؛ الطفلة منى الشويني وأمها، فبينما كانت أمها ترضعها في فناء البيت، اخترقت رأس الطفلة مروراً بفمها وثدي أمها رصاصة واحدة موحدة،... انطفأ الثدي، وبردت الأم وسقطت زهرتها قبل أن تعقد ثمرتها..!

في ذلك اليوم دعته أم خليل لمشاهدة شجرة اللوز التي أكلتها الحشرات، وبتلك المناسبة، دعاه زوجها لتناول طعام الغداء، فأحضرت له أم خليل رغيف خبز ساخن من فرنيتهم، وكأس ماء، وصحن لبن رائب من عنزتهم الشامية التي تأكل قشور البندورة والباذنجان والبطيخ وعيدان الملوخية، ثم تحلب أحسن حليب.. فأكل وشرب، واكتفى بهذه الوجبة الفاخرة في أيام جوع الانتفاضة، وحمد الله، وتابع عمله..

وكثيراً ما كان يلجأ إلى دكان)أبو غازي(، ليحك جلده بجلد ذلك الرجل القاعد، منتظراً زبوناً يدخل دكانه، ليشتري أي غرض، فلا يستقبل غير)أبومهيوب(الخاوية جيوبه، ولكنه ومع ذلك فهو مرغوب فيه، فالرجل معروف في الحارة؛ تقي وأمين ونافع، وليس منه ضرر، وهو بطبعه لا يؤذي، وباختصار ابن ناس وابن حارة، بهيئة المحلّي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فلا أحد يستطيع إزعال)أبو مهيوب(، ذلك لأنه إذا غضبت عليك بنو تميم..... فكيف إذا غضب عليك أبو مهيوب.. ؟ قد يستغيبك ويشاغب عليك في الحارة كلها ، فتخسر زبائنك المستهلكين لبضاعة دكانك، وكذلك فالرجل مُسَلٌّ ومضحك لجليسه، لدرجة أنه ينسيك همومك، وهموم كل أهلك، وأنتم تعرفون؛ الهموم في عز الانتفاضة على قفا من يشيل.. !

حرمتان ومحرم

بعد تخرجهما من كلية تربية الشاطىء، بحثت كل من تغريد وماجدة عن وظيفة معلمة، أو سكرتيرة أو حتى عاملة فنية في مدرسة، أو متجر داخل الإقليم، فلم توفق أي منهما في العثور عليها، ذلك لأن طلب الرزق عند تزاحم الأقدام قد دفع الناس بعضهم فوق بعض فداست الأقدام على الأقدام وفعصتها وداست الأقدام على الرؤوس فهشّمتها وهاج الناس وماجوا وانتشروا في الشوارع والحارات وكانت عربات الخضار والفواكه تنطلق بسرعة الصواريخ وبائعون متجولون يحملون أمتعتهم على أكتافهم ونساء يحملن أطفالهن الرضّع بين أسنانهن ذاهبات إلى عيادة طبيب أو بيت معين وكلهم يسعون بين الصفا والمروة و)بين حانا ومانا.....(بحثاً عن منفذ مضاد للدبابات والدروع والجدران العازلة والعوازل)ويا عوازل فلفلوا..(! والحفريات المزروعة في كل الطرقات فلا يجدون طريقاً فيضطرون للتسرب بين الغيوم وأحياناً يحشرون أنفسهم خفية ويتسللون مع الغازات السامة المتطايرة أو يضغطون أجسادهم داخل سيارات حاويات النفايات المرسلة إلى الهاوية وإرهابي مفقود تبحث عنه الأمم المتحدة ضدهم ضدنا ضدها ضدي ضدكَ ضدّك ضدكم ضدكن ضدهن.. المهم ضد حرف الضاد ولغة الضاد فيَضلُّ الكل طَريقه وأفاع تنساب من تحت أرجلهم مثل التيارات الكهربائية الخفية لأسلاك الضغط العالي وخطيب مفوه يلقي خطبة عصماء في ساحة الشهداء ولا يستمع إليه أي نفر.. وسيارات تنطلق منها زوامير ومزامير وسماعات ومكبرات أصوات تنادي على الوطن فلا يرد الوطن عليها لأنه

يبقى يلعب هناك بعيداً وصبايا حسناوات شهيّات يسرن بدلال ورقّة وصبايا بشعات مكشرات عن أنيابهن المصفرّة يحملن على رؤوسهن جراراً فخارية مملوءة بمياه مصارف المستوطنات الجديدة وبعضهن ذوات وجوه ينتشر عليها حب الشباب وواحدة منهن جرباء وثلاث حسان منهن بهيات القدود يظهر الماء من داخل أعناقهن لشدة شفافيتها وشقارها ونعومة بشرتهن ونضارتها كملمس الحرير والحر الدبق يشتد تسلّطه وقسوته فيدخل في رئات عباد الله بالقوة ويلهبها لهيباً..) اوبلغت القلوب الحناجر(وثار غبار كثيف غطى الجو وانعدمت الرؤية والرؤيا وجفت المياه وتلوثت البيئة وذبلت الأشجار ثم ماتت فدفنوها في مزبلة التاريخ وتكدست العربات الكارّة فوق بعضها البعض مع حميرها وأسطوانات الغاز الفارغة والجرار والمفروشات المستعملة وأدوات المطابخ والحمامات التي لم تجد لها مشترياً والخضار والفواكه الطازجة المرشوشة بالكيماوي المحرّم استخدامه دولياً تقف في الاتجاه المعاكس وكانت الأقدام الحافية تطب خبباً على الأرض الترابية وكلاب ضالة تركض هنا وهناك والراوية أبو حصيرة بثوبه الأبيض الذي تحوّل بقدرة قادر إلى اللون البيج المبقّع بالبنّي نظراً لكثافة الأوساخ العالقة والمتشعلقة عليه لدرجة أنه اهترأ من جهات متعددة وظهر من ثقوبه المهترئة لحم وشعر وأحياناً كانت تطل خصية من بين ساقيه ثم تختفي داخل ثقب أوزون الثوب الذي تصدق به المحسن الكبير صاحب المليارات المرهقة الخاسرة في سوق البورصة فاكتسى وانستر أبو حصيرة وراح يروي الأحداث الجسام التي زلزلت الكرة الأرضية زلزالها وجعلتها تخجل من نفسها وتنكمش على روحها وتتكور على شكل كرة أرضية ذلك لأنها تتألم لشدة ما تعاني وبطنها يوجعها ويعتصرها من شدة الألم فتضع الأرض يدها على بطنها وتنكمش مثل الجنين في بطن أمه المتكور استعداداً للهبوط بمظلته الخلاصية على سطح الكوكب وكلهم منكمشون ورؤوسهم للأسفل منقبضة تضامناً مع الشعب الفلسطيني الذي يعاني ويتكور تضامناً مع تكوُّر الكرة الأرضية

ويتألم كما تتألم.. وقال السيد الرئيس في خطابه المتلفز: أنا قلت لبريجينيف: الشعب عندنا عاوز لحمة، فقال لي بريجينيف بالحرف الواحد:)مفيش لحمة....(فقمت وكلمت الأمريكان، وانتو تعرفوا إني أقدر أكلم الأمريكان، سواء كنت في البر، أو في البحر، أو في الجو، ففتح الأمريكان علينا أنهاراً من خيرات مشروبات السبسي والكوكو كوكو، فانتعش الشعب....(

وضمن هذه المعطيات والظروف التي لا يعلم بها إلا الله، تعذَّر على البنتين العثور على فرصة عمل، فطلبت الخريجتان – ماجدة وتغريد – فرصتي شغل، واستمرتا تطلبان ذلك ثلاث سنوات متتالية، فقال لهما الراوية أبو حصيرة جملة قاطعة) :مفيش شغل(. فقعدتا كالأيتام على خازوق..) !أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فالقصة الحقيقية الأصلية تقول: عندما قعد اليتيم على مأدبة فلان..، انتبه أحد اللئام لفكرة جهنمية، وبلعبة ثلاث ورقات مدهشة، وبقدرة قادر، استلهم عملاً عظيماً، فوضع اليتيم الحلو على خازوق محترم، وأشعل حوله ناراً زهرية بهيجة، فعمل منه سيخ شاورما لذيذ.... ولكن الرقابة الغذائية انتبهت للموضوع، ومخالفته للمواصفات والمقاييس، فأمرت مديرية مناهج التربية والتعليم بتصحيح العبارة لتصبح كالأيتام على مأدبة اللئام، وليس كالأيتام على خازوق.. وختم جهابذة مجمع اللغة العربية العجائز الذين يعانون من تصلب في الشرايين القابعون على المائدة – ليست مائدة الطعام، بل مائدتهم اللغوية المستديرة المعتمدة لدى أروقة الأمم المتحدة ضدنا –.. ختموا بالموافقة على الحركة التصحيحية، فطلع الراوية كاذباً، وبارد وجه، وطلع المذكورون أعلاه بالرائحة الطيبة..(!

ما لنا ولهذه الترّهات، أختصر فأقول:

للأسباب المدونة أعلاه مجتمعة، ولأسباب الفقر والعوز والحاجة وتحقيق

الذات، اضطرت الخريجتان للتعاقد مع الوفد التربوي القادم من ولاية الرمال العربية، والذي زار البلاد باحثاً عن معلمات لغة عربية، إذ إن الصحراء العربية قد جفت فيها اللغة العربية، بسبب قلة المطر، فطلبت المدد من الأندلس وهاييتي والتبت وسيريلانكا وفلسطين المحتلة، فأمطروها بوابل من المنقذات والمنقذين، ووجدتها الصبيتان فرصة للعمل معلمتين هناك..!

طلبوا منهما أوراقاً ثبوتية، فأحضرت كل منهما ما طلب منها؛ أوراق تخرجها، وشهادة ميلادها، وكشف علاماتها، وشهادة صحية تثبت خلوها من الأمراض المعدية، وشهادة حسن سلوك، حيث ختم لهما مختار المعسكر؛ أبو شكشوك أحلى شهادتي حسن سلوك، مقابل عشرين)شيكلاً(من كل منهما.. لا أحسن من سلوك تغريد إلا سلوك ماجدة.. هكذا شهد المختار، بعدما قبض المعلوم.

ولم يبق من الأوراق الثبوتية سوى المحرم..

من سيلعب دور المحرم في هذه الرواية؟

الحلو في كتابة الرواية، أن الراوية يستطيع أن يتحكم في عباد الله؛ أقصد شخصيات روايته، فيرسل هذا، ويستقبل تلك، ويستبدل هذا بذاك، ويُدخل القارىء الخجول أو الفضولي أو المحظور عليه إلى غرف نومهم، وموائد طعامهم، وسراديب سجونهم، ومنصات مشانقهم، وبرك سباحتهم، وأماكن دفن مسروقاتهم، وشواطئهم العارية، ويوجه شخصية ما لتسبح في بركة من الخمر، لذة للشاربين، وبمنتهى السهولة، يقتل هذا، ويسجن ذاك، تماماً كما يفعل الولاة العرب بعباد الله رعاياهم، عبر تاريخهم الممتد من)داحس(القديمة، وحتى)الغبراء(التي تتمدد اليوم متشظية على رمال الصحاري العربية..من المحيط الهادر، إلى الخليج الثائر

ولرسم شخصية المُحرم في هذه الرواية، وتحديد من سيكون، فالخيارات

مفتوحة أمام الراوية؛ فإما أن يذهب والدا الفتاتين، أو يذهب أخ مع كل منهما، أو يكون لكل منهما زوج محرم.. !

وهنا تتعقد الرواية، وتصعب السيطرة على الموقف، فدعنا من فكرة الزواج، ذلك لأن لكل من ماجدة وتغريد قصة، وحكاية عشق وخطوبة، وجاهات عائلية، وابن الجيران، وابن الحي، ومشاكل لا أول لها ولا آخر..! لا تقلق، فأنا العبد لله، كاتب هذه الرواية، مُطّلعٌ عليها كلها، وسأحكيها لك بالتفصيل المثير.. نعم؟ تسألني من أين أتيت بالمعلومات؟ المشكلة يا أخي ليست في المعلومات..) !ويا خبر بفلوس، بكره يبقى ببلاش(المشكلة هي مشكلة المُحرم، فإذا كنت فيلسوفاً، وكثير أسئلة، هات دبِّر لي محرم لكل من هاتين الفتاتين الغلبانتين... ! فأبو غازي؛ والد تغريد، ولي أمر عائلة حطماء، مكونة من ثمانية أفراد، ويطقطق في دكان أعرج، يشتري بضاعته من أسواق الجملة العرجاء، ويبيع للجيران وأهل الحارة العرج، متطلباتهم من المواد التموينية والمواد الاستهلاكية والمعلبات المنتهية صلاحيتها، وغير القابلة للاستهلاك البشري، والتي لا يعرف بعض تجار العولمة أين يدفنونها، فيتبرعون بها، ويكتبون عليها عبارة)ليس للبيع أو المبادلة.. هدية للشعب الفلسطيني(ويرسمون عليها إشارة كفين متصافحين.. طبعاً هي ليست للبيع، فلا أحد يشتريها، وليست للمبادلة، فليس أحد يستبدلها بخردلة..، وقليلاً ما يطلبون الخضار والفواكه والكاز والشاي والمصبوغات الغازية.. ف، المشروبات الغازية، والعصائر المكتوب عليها لعصائر طبيعية ييبتح بينما هي مياه مصبوغة بالكيماوي بتاع أخينا.. (! والشرائح البلاستيكية لشبس البطاطا، وما دون ذلك من مواد ومستلزمات، طبعاً لا تقل لي إن الرجل غشاش لا سمح الله! هذا هو الموجود في السوق، والجُود من الموجود... ! الرجل لا يتدخل في السياسة، ولا يمون على بيضاته.. هو يتداول الأشياء الموجودة، وربُنا الله..! هو يُنَقِّي، ويختار أحسن نوع زبالة. تريد منه أن

يخلق لك بضاعة نظيفة مراقبة بمواصفات مأكولات قوات التحالف؟ صحيح قلّة حياء يا أخي..!.. المهم هو يطقطق في دكانه، مثله مثل سائر الناس المحاصرين في هذا الوطن.. فكيف تريد منه أن يذهب مع ابنته تغريد، ويترك هذا الدكان يتحطم، والأولاد يضيعون في غيابة الانتفاضة، حيث دبابات الغرباء تتجمع في الحارات بغزارة مرعبة، وتلتهم كل شارد وارد.. مثل الجراد الذي كان يهاجم بلادنا في المناسبات، فيزحف على الأرض وهو يمضغ، ويطير بغزارة في الجو وهو يمضغ، مثل طائرات الأباتشي.فيأكل الأخضر واليابس. ولكننا في النهاية، ولشدة الجوع والقهر والمحاصرة من جميع الجهات..كنا نجد أنفسنا مضطرين لمقاومة انقراضنا، وذلك بمهاجمته وأكله..آه والله.. كنا نأكله.. !...كنا نهاجم الجراد ونجمعه في أكياس ونشويه ونأكله..وكانت تلك أنجع وسيلة لمقاومة الجراد.. وخير وسيلة للدفاع هي الهجوم..!

هذا ما كان يشغل بال)أبو غازي(وهو يفكر ساهماً محتاراً.. وهناك في الصحاري البعيدة، سيقعد عاطلاً عن العمل، بانتظار ذهاب البنت إلى المدرسة، وعودتها من المدرسة، للأكل والنوم، ومن ثم :

- زهقانة يا أبي.. ستقول تغريد.

- لقد خنقت من القعود داخل الدار يا أبت.. !

- أين سأذهب بك يا ابنتي؟

وفي الحقيقة لم يكن هذا هو بيت القصيد، فإن زوجه الجميلة عائشة، والتي تعوّد على حنانها ودفئها، وعلى تكوُّره داخل محرابها في الملمّات، وهروبه إلى داخلها في لحظات الخوف والشِّدة، فهو يسكن إليها ويحتمي بها من الشدائد، تجذبه نحوها بلطفها وجمالها الذي ما يزال أخاذاً رغم ولادتها لجيش من الصبية والبنات، فعائشة بيضاء رقيقة البشرة، ممتلئة القوام،

زرقاء العينين، ذهبية الشعر تخفي معظمه تحت شاشتها البيضاء، وتبقي نموذجاً منه فوق مقدمة رأسها الأشبه بتاج طبيعي لملكة بدون تتويج، والرجال في جنوب فلسطين أكثر سمرة منهم في شمالها، ولذلك فهم يفضلونها شقراء.. على رأي والده؛ الحاج خضر،)أبو عكرمة(الذي كان يلثغ في حرف الراء، ويقلبه إلى ياء، وهو يغازل زوجته؛ الحاجّة ربيعة قائلاً:)فكّيتك بيظة ويقّاصة يا يبيعة، أتاييك سميا وحياقة يايا يبيعة(!... وإذا لم تستطع فك هذه الطلاسم، أضطر كراوية أن أتدخّل، وأعمل نفسي شاطراً، مثل الشاطر حسن، وأفككها لك.. كان الحاج خضر يقول للحاجّة ربيعة:)فكرتك بيضاء ورقّاصة يا ربيعة،)أتاريك(سمراء وحرّاقة ياربيعة(..! وعائشة تختلف عن حماتها السمراء؛ الحاجّة ربيعة؛ أم زوجها عكرمة، والذي طلع أسمر البشرة لأمه، ولذلك تجد عنده عقدة نقص في مسألة البياض، فعائشة بيضاء، باسمة الوجه، جميلة الشفتين المكتنزتين، تحاول دائماً أن تخفي خيبات زوجها عكرمة في صدرها، وتحتضنه وتقول له أمام كل مصيبة تقع: هذه سنة الحياة.. وعندما ضربت طائرة هليوكبتر سيارة مارّة في الطريق بصاروخ)لاو(، كانت الطائرة حولاء، ونظرها ضعيفاً، ويدها طرشاء، فنجت السيارة ومن بها، واستشهد ابن أخيه، الطفل بدران، وهو سائر في الطريق إلى المدرسة، ويومها قالت عائشة لزوجها: غداً تخلف أمه ثلاثة صبية بدلاً عنه، وهذه إرادة المولى، والذي أعطى أخذ، لا تزعل، فالناس يموتون، ليعطوا المواليد الجدد فرصة للحلول محلهم على هذه الأرض المثقلة بالسكان..! وكلام كثير من هذا النوع.

وجرياً على عادتها قامت بالواجب في حضرة العائلة المنكوبة.. وهكذا كانت تلفلف الأمور، وتشارك بالأحداث، وتجد الحلول، وتؤمن بالله، وبأن لكل نفق مظلم نهاية.. وتجاه زوجها؛ كانت تحرص على متابعته بحنانها، وهو يقعد أمام عينيها، يشرب الشاي أو القهوة، ويحكي لها حكايات

الحارة، والبائعين والنساء المشتريات، ويتنبأ لها بكل ما هو آتٍ آت..! فكيف تريد من)أبو غازي(أن يترك هذه العائشة؛ الحمامة البيضاء، ويسافر إلى ولاية الـ.. وهل يترك ذكر الحمام حمامته...! خاصة في تلك الأيام التي لم يكن فيها إنفلونزا الطيور! في الحقيقة كان يعشقها أكثر من عشق الحمائم، بالرغم من النكد والمشاكل، والصراخ الذي يعلو أحياناً بينهما، على كل صغيرة وكبيرة..!

– لماذا تكلمين هذا الشاب سلمان؟ ولماذا يقعد إلى جوارك، ويحدثك وهو يكاد يلتصق بك؟ ولماذا الضحك بصوت عال؟

أنت مجنون يا عكرمة، هذا الولد سلمان صديق غازي في المدرسة، وهو ابن جيراننا، وأنا أحبه فعلاً، ولكن كما أحب غازي – الذي هاجر إلى أمريكا ولم يعد–..! تعرف يا)أبو غازي(، والله إنّي أحبه، وأرى في طلّته؛ طلّة غازي عليّ. ألا تشعر معي كيف كان يدخل علينا غازي، كالرمح، كالشهاب المتألق في عز الليل الموحش، غازي صار عندي مشكلة، عقدة حياة، أرسلناه ليتعلم، فتعلم ألا يعود..! تركنا وحدنا هنا في معسكر الحصار، تركنا في الحصار..! أنت لا تفهمني يا أبو غازي، أنت لا تعرف الأمومة، ولا الطفولة، أنت لا تعرف سوى البيع والشراء، والفواتير والديون المتراكمة مثل ورق الشدّة، ولكن عذاب غياب الروح عن جسدي، وصقيع غياب الشمس عن الكون والحارات والبيوت وفناء الدار، وخوف غياب القمر عن راعي الجمال في ليل الصحراء، وهلع نضوب المياه من نبع الحياة، ذلك هو غياب غازي، الذي أتفاءل بحضور صديقه سلمان، وأتخيله غازي وهو يقعد أمامي، يحكي لي عن حياة الصبية الذين من جيله، فيغذيني بما أتوقعه من حكايات ابني الحبيب، ويضحكني ويبكيني، ويسألني عن غازي، ومتى سيعود؟ تريدنا ألا نضحك يا عكرمة! تريدنا أن نموت بطائرات الأباتشي وصواريخ لاو، ورشات رصاص الدمدم.. دمدم.. دم..دم.. فنموت

ونحن مكشّرون عن أنيابنا البارزة مثل أنياب الخنازير البرية؟ لا يا عكرمة! سنموت ونحن نضحك، سنغيظ قاتلينا الذين يريدون محو السعادة من حلوقنا، بأن نضحك.. سنضحك حتى في الجنازات، ونغني أغاني الفرح للشباب المغادرين على ألواح خشبية إلى الجنة، ونرقص معهم، رقصة بشي الذبيحلحيلخ يا أبو غازي نخ‌تم أنا آسف يا عائشة، لم أقصد ذلك. نج لقد حطّمت أعصابي بهذا الكلام الذي لا أعرف من أين تأتين به.. والله لو كنتِ في كواليس الكنيست، لأقنعتهم بالعدول عن اجتياح المسجد الأقصى، ومحاولات هدمه! ترى هل خسرناه يا عائشة ؟

- ما هو الذي خسرناه؟ المسجد الأقصى ؟

- لا يا هبلة، أقصد هل خسرنا ولدنا غازي في إرساله ليطلب العلم، ولو في أمريكا؟ أنا مثلك يا عائشة، أبٌ يشعر بأن كل ما جناه يتبخر من بين يديه، وكل ما ننتجه، يذهب وينزل برداً وسلاماً على أمريكا، نحن نغذي جيناتهم الوراثية بأولادنا الأشداء الأذكياء الشغيلة المغامرين، فيتزوجون هناك، وينجبون لهم أذكى الأولاد والبنات، أولادنا هم الذين يُحَسِّنون نسلهم، ويضاعفون دخلهم، ويصنعون حضارتهم، وعنفوان جبروتهم في التمرجل علينا! ولكننا لو تركناه هنا يلعب مع رفاقه في جرف المزرعة، ويقذف الحجارة على دبابات الاحتلال، لفقدناه شهيداً على تراب الوطن... ! على الحالتين هو مفقود مفقود..)طول عمرك يا زبيبة، وفي طيزك هالعودة..(!

- ولكن طيز الزبيبة تبقى حلوة، وكذلك غازي..! لا داعي للتشاؤم يا عكرمة، فالولد سيعود بعد أن يدرك ألا مكان مثل الوطن، وأنه لا يحرث المزارع إلا عجولها..!

- وهل بقيت للوطن مزارع كي تحرثها العجول؟ لقد جرفوها، واستملكوا ما لم يقدروا على جرفه، وأسسوا فوقه مستعمرات استيطانية...! ولكن من

أين لك هذا المَثَل)عجولها(؟ كنت أعتقد أنك حلوة فقط يا عائشة، ولكنك حلوة وفيلسوفة كذلك.. !

– ولم لا أتفلسف، فأنا متعلمة وخريجة توجيهي مثلك..! وأقرأ الجريدة والكتب والروايات، وأسمع المذياع، وأشاهد التلفاز، وأقرأ القرآن، وأفهم يا أبو الفهم، أنت..!

هكذا كان أبو غازي وعائشة يتحاوران، ويمضيان حياتهما اليومية في التفكير والتدبير، فكيف نطلب منه أن يُخرج هذه اللؤلؤة من محارته، ويعيش بعيداً عنها؟ فالمحارة تموت إذا ما اقتلعت لؤلؤتها من جوفها، وهكذا كانت عائشة وعكرمة.

وباختصار، ليس لدى والد تغريد أيُّ استعداد لتمثيل دور المحرم معها، فمن يا ترى يكون؟ أخوها غازي المهاجر إلى... ؟ ليس هنا من غير شر، وأما باقي الأطفال، فكلهم تحت السن القانوني، وأمها غير مقبولة لأنها أنثى، والمحرم يجب أن يكون ذكراً، وحتى لو كانت أمها مقبولة، فإنها لن تذهب مع ابنتها، وتترك أطفالها وزوجها ومسؤولياتها وتراب وطنها، الذي تعيش على بقاياه.

احترت أنا المؤلف، في تحديد شخصية هذا المحرم، ولم أترك شاردةً أو واردةً، أو فكرةً، إلا وسلكتها، لأبرىء ذمتي، وأرضي ضميري، وأخلي مسؤوليتي، وأشهد ربي)اللهم هل بلّغت؟ اللهم فاشهد(! فلا أتعرّض لنقد الناقدين، ولا لحقد الحاقدين عليّ، والذين يتهمونني بسوء التصرف مع شخصيات الرواية هذه، واستغلال كونها ما زالت في طور الخداج، تنمو وتترعرع..!

ماذا عن خطيبها جهاد الأسمر ؟ لماذا لا يذهب معها جهاد؟ لا نريد أن ندخل بتفاصيل خطوبة جهاد لتغريد، صحيح أنهم قد خطبوا تغريد لجهاد،

وصحيح أن أهلها قد وافقوا على الخطوبة، والجماعة جيران مثل الأهل، وجهاد شاب مرموق، وكل بنات الحارة تتمناه، ولكن الظروف قاسية، والقرش شحيح، ولقد وعده أبو غازي أن يكتب كتابه عليها بعد أن تشتغل سنتين، لأن راتبها خلال سنتين، لا يكاد يسدد مصاريف تعليمها، وحين قتلا هذا الموضوع بحثاً هو وزوجه عائشة، التي خالفته الرأي، راح يصرخ في وجهها:

- وهل هذا الدكان الأجرب قادر على أن ينفق على هذه العائلة المحطّمة؟

وبعد حوار طويل اتفقا على إغلاق هذه السيرة، ذلك لأنه إذا سافر خطيبها جهاد معها، وهما كاتبا كتاب زواجهما - ومن كتب كتابه فهو متزوج - فما المانع أن يتزوجا هناك، ويقررا الانفصال من طرف واحد، وإعلان كونهما دولة مستقلة.. !

- لا، لا تبحثي معي يا عائشة مثل هذه الأمور..! دعينا نفكر بحلول أخرى.. ما رأيك أن نسأل أهل ماجدة، فقد يكون لديهم حل لمشكلة المحرم.

ولهذا الغرض زارت أم غازي دار أم جهاد، فرحبت بها الأرملة خير ترحيب، وبعد أحاديث طويلة، دخلت عائشة في الموضوع، وسألت أم جهاد عن المحرم الذي سيذهب مع ابنتها ماجدة إلى ولاية الرمال العربية، فقالت لها أم جهاد:

- كنا نفكر في ذهاب جهاد محرماً معهما، فهذه أخته، وتلك زوجته، وكان الله بالسر عليماً، ولكن جهاد رفض مغادرة الوطن، وأصر على أن يبقى في البلاد. وكذلك فإن جهاد يريد تغريد زوجة له هنا، وليس في بلاد الله البعيدة، ذلك لأنه لا يستطيع تركنا وحدنا نواجه هذه البلاوي الزرقاء؛ من اعتداء متواصل على أرواحنا وبيوتنا، وفقرنا ومسؤولية إخوانه وأخواته وأهل بيته، ولا تنسي محددته التي صار شغلها كله يقع على كاهل جهاد

وحده، وأنت تعرفين يا عائشة، كلنا نأكل ونعيش من وراء هذه المحددة، فأبو جهاد الذي أسس لابنه هذه المحددة بالدين، توفي رحمه الله والديون علينا متراكمة، وكان المرحوم مولعاً بالتدخين، وشرب النرجيلة، التي لم تكن تفارقه ليلاً، ولا نهاراً، لدرجة أنني كنت أذهب فأنام عند الأولاد، مخنوقة من رائحته التي تشبه رائحة طابون أيام زمان، كنت أقول له :

- اترك هذه السموم يا ابو جهاد، هذه النرجيلة ستميتك! فيقول :

- إنني أدخن كي أموت، فهذه ليست عيشة، لاجئون في معسكرات ترصدها دبابات ومدافع وطائرات تصطاد الطير الطائر..! بقي هكذا في أتونه حتى توفي بالجلطة كما تعرفين. ولو كان أبوها رحمه الله موجوداً، لسافر معها، محرما على الأقل، وترك جهاد في المحددة..! وأنتم أيضاً تريدون تأجيل زواج تغريد سنتين قادمتين كي تساعدكم في مصاريف إخوانها، وهذا حق لكم.. نحن في توهان لا نعرف له بداية ولا نهاية يا عائشة، وتحدِّيات لا نعرف لها حلاً، فكثرة الأولاد والبنات، تورث مصاريف ومشاكل، وهموم وإرباكات، فمن أين نأتي بالمصاريف المتزايدة هذه ؟

- ولكن الخلفة يا أسمى هي التي ترفد الشهداء، وتأتي بمن يواصل دربهم، وتحافظ على نسلنا، والعملية ليست محتاجة إلى فلسفة وتخطيط، بل هي عملية غريزية، فالنمل والنحل الذي يتعرض أفراده للقتل أو الحرق أو التدمير، كما نتعرض له في فلسطين كلها، يستنفر ويستلئم، وينتج عشرات أضعاف عدده، بهدف البقاء، ونحن بزيادة نسلنا ننشد البقاء، مجرد البقاء. !

- ولكن من أين نحشو أفواه هؤلاء الباقين المتراكمين على صدورنا يرضعوننا، ويُنَشِّفون ريقنا ونحن نراهم يستشهدون كل يوم وليلة.! لقد خسرنا كثيراً يا عائشة..!

– يا ستي نحن نخسر كل يوم، ولكنهم يخسرون أكثر، وهذا هو قدرنا، فنحن نتوالد وهم لا يتوالدون مثلنا، ونحن نأكل أعشاب البرية، وهم يأكلون الكافيار، ونحن نصبر، ولكنهم لا يصبرون، ولهذا فالنتيجة محسومة بأنهم سيرحلون !

– صدقيني لولا كوننا محتاجين للنفقة يا عائشة، ولولا ديون محددتنا، لما وافقنا على تغريب ابنتنا إلى تلك الديار..!

– يا أسمى)لا تشكي لي، لأبكي لك(، فكلنا محتاجون لرغيف الخبز، ولكن ربنا لا يقطع أحداً. ! ولكنك لم تجيبيني على موضوع المُحرَم. !

– لو كان لدي حل يا عائشة لنطقت! ولكن ما باليد حيلة!

– اسمعي يا أسمى، ما رأيك بهذا البهلول؛ أبو مهيوب، الذي يقعد كثيراً في دكاننا ؟

– ماذا تقصدين بقولك هذا البهلول؟

– لا ليس المقصود كونه بهلولاً، أم عاقلاً، فهو رجل عاقل مُتَزن، وسمعته عفيفة نظيفة، ولكنه رجل على قدّ الحال، مقطوع من شجرة، فزوجته وابنه توفاهما الله. ! وبناته متزوجات، ويعشن بعيداً عنه.

– لم أفهم رأيك يا امرأة! أفصحي لي أرجوك، ولا تدخليني في سراديب حكاياتك الغامضة. !

– أبو مهيوب رجل محترم، ومعروف في كل المعسكر بأخلاقه وعمله الزراعي، وهو رجل فاعل ومنتج، وليس عالة على أحد.

– طيب وما علاقة أبو مهيوب بالموضوع؟

– كل العلاقة يا أسمى !

– أنت ستجلطيني يا عائشة، وتبقين بعدي)عائشة(، فأنت لن تموتي

بسهولة، ما دام اسمك عائشة، وسبحان الله، دمك بارد، وحكاياتك مثيرة، وتعتصر الفؤاد..! قولي لي، ما علاقة أبو مهيوب بالموضوع ؟

- أقول لو افترضنا أن يكون، مجرد افتراض يعني، أو مجرد وجهة نظر.

- يا امرأة قتلتني بمنشار، بهذه الافتراضات اللعينة! أفصحي! ماله أبو زفت صاحبك هذا ؟

- لا صاحبي ولا ما يحزنون، كل الموضوع إنه يمر من حارتنا، ويخدم شجيراتنا، ويقعد)يطق حَنَك(مع)أبو غازي(، حول من يأتي، ومن يغدو، ويسمعون الأخبار، ويحكون بالسياسة. ولكن اقتراحي هو أنه ماذا لو، أقول لو ذهب أبو مهيوب محرماً مع ماجدة وتغريد، فهو بمثابة عمٍّ لهما، ورجل مجرّب ومعروف، وليس من ورائه مشاكل، ويستطيع أن يقوم بالمهمة. ؟

- أكيد أنك قد جننت يا امرأة !

- لم أجن، ولم أفقد عقلي حتى الآن يا أسمى !

- إذن كيف يذهب معهما رجل غير محرّم عليهما ؟

- هذه بسيطة، فهو أكبر سناً من أبويهما، وهو زاهد في الزواج، خاصة بعد سن الخمسين، فهو لو أراد الزواج، لتزوج بعد وفاة زوجته سندس رحمها الله. والرجل يدخل بيتنا، وبيوت معظم أهالي المعسكر، ولم نشاهد منه تصرفاً خارجاً عن المألوف لا سمح الله، طيلة هذا العمر الذي عشناه. وعندما ولدت تغريد مثل كتلة من اللحم، حملها أبو مهيوب وأبو غازي من بيت الداية أم خليل، إلى بيتنا، وكنت أنا يومها عائدة معهم، وأنا أتحامل على ذراع أبو غازي. فالموضوع مأمون ومنطقي. أبو مهيوب محرم للبنتين، ولا تنسي كون البنتين مخطوبتين؛ كل منهما لأخ البنت الأخرى، وستعيشان معاً كأختين، برفقة الرجل الكبير، الذي سيكون مناعة لهما ضد أي خلل قد

يحصل في الغربة، لا سمح الله.

- أكاد أجن يا عائشة مما أسمع!

- لا تجنّي ولا تحنّي يا حبيبتي..! كل المطلوب منه أن يذهب معهما، تماماً كما يدخل بيوت أهالي المعسكر، بوجود أو بغياب رجال البيوت، فالرجل ثقة، وكلنا نعرف ذلك، ولا داعي لشرح الموضوع، فلقد قتلناه بحثاً، فإما تقبلين، أو ترفضين، ولا داعي للتشنجات والرفض، كما يقولون عن النساء) :يتمنعن وهن راغبات.(! وإذا كان عندك حل غير هذا فاقترحيه، وأنا أوافق عليه، وإذا كان اقتراحي منطقياً، ومقبولاً من طرفنا كلنا! فقالت أم جهاد مستغربة هذا الطرح :

- وهل وافق أبو غازي على هذا الـ...؟ وهل وافق)أبو مضروب بتاعك(أيضاً ؟ وهل تعرف تغريد بالأمر؟ فأجابتها عائشة وقد بدت متعبة:

- لم يعرف به أحد، إنه مجرد اقتراح، تتناقش به النساء أولاً، ثم ينفذه الرجال أخيراً... هذه هي سنة الكون، فمعظم الرجال هم الناطقون الرسميون بأفواههم، ولكن نساءهم هن اللواتي يحددن توجه البوصلة! تستطيعين أن تفكري بالموضوع، وتشاوري ماجدة وجهاد بذلك، وأنا سأستشير تغريد وأبو غازي، ولنا لقاء.

استأذنت عائشة وخرجت.

درب التبّانة

اتفق الطرفان على اقتراح إرسال الرجل الكبير أبو مهيوب، وهو في مقام والد الفتاتين، وليس له في هذا المعسكر من هو ملزم بالبقاء معه. واقترح أبو غازي استشفاف رأي الرجل في الذهاب معهما، وأن يدفعوا له مبلغاً شهرياً من المال، لقاء إقامته معهما في الغربة.

تم استدعاء)أبو مهيوب(، فسارع الرجل بالحضور بفضول ليعرف الموضوع

الذي استدعي من أجله، وبعد شرح مفصل، بادَرَهُ أبو غازي بالسؤال :

– ما رأيك يا أبو مهيوب بهذا الموضوع؟ وهل ظروفك تسمح لك بالسفر، والإقامة مع البنتين ؟

) –شوف يا أبو غازي(، أنا والله لم يخطر على بالي في يوم من الأيام مثل هذا الطرح، أو القيام بمثل هذه المهمة، ولكن من طَرَقَ الباب، سمع الجواب، فإذا رتّبتم لي أوراق السفر، وأجوراً معقولة، كراتب شهري يسدد مصاريف الحياة هناك، أسافر، ولم لا أسافر؟ فأنا ليس لي ولد)ولا تَلَد(، وبناتي متزوجات في آخر ما عَمّر الله، وكما ترى مقطوع من شجرة، وفي نفس الوقت، لست عالة على أحد، فأنا بعملي آكل لقمتي، والحالة مستورة والحمد لله، ولكن إذا استطعت أن أخدم بنات أهلي وربعي، وأستفيد لي قرشين من وراء سفري هذا، فلا مانع.. !

ولما لم يكن أبو مهيوب – الذي وافق على العرض المقدم له – يحمل صفة المحرم، والقانون يمنع سفر رجل غير محُرمْ مع البنتين، ولكن وليّي أمري

المعلمتين فكرا بهذا العائق، وقررا أن يكتبا ورقة صورية، تشهد بأن هذا الرجل المحرم هو زوج كل معلمة منهما على حدة، وبعد تداول الأمر مع الرجل، كتبا عقدي زواج موثقين حسب الأصول، ولكنهما صوريان بالطبع، باسم)مصطفى مهيوب الصنفوري(وقدما عقدي الزواج، مع أوراق المعلمتين، وهكذا انطبقت عليه شروط المحرم..!

وكان في ذلك تحقيق لتطلعات الرجل الذي راح يحدث نفسه قائلاً:

- في السفر سبع فوائد، وأنا مذ ولدت، لم أسافر مرة واحدة خارج فلسطين، قد يكون السبب؛ كيداً لمن يريدون إخراجنا من هذا الوطن، فنتمسك به ولا نغادر، حتى ولو كان السفر للنزهة وشم الهواء فقط، أو البحث عن الرزق، فالرزق على الله...، ولكن الذهاب مع هاتين البنتين، مجرد وقت؛ سنة أو سنتان بالكثير، وكل حي يعود إلى حال سبيله، وأكون قد تفرجت على بلاد الله الواسعة هناك، وجمعت لي قرشين، وأرتحت من أهالي المعسكر الذين يستقردونني في كل صغيرة وكبيرة، كلها أوامر، أوامر:

- أحضر لنا دالية عنب أسود يا أبو مهيوب...

- نريد من هذا العنب الأبيض الشامي، الذي مثل بز العنزة الشامية. !

- نريد دراقاً من هذا الذي يسمونه كعك العيد....

- نريد طُعماً من برعم برتقال يافاوي، أي هو في مثل برتقال يافا يا)أبومهيوب(!.

ينصر دينك يا يافا...! كان البحر يقذف لنا مع أمواجه صناديق خشب؛ سمنة وجبنة، وصناديق فيها كل ما هَبّ ودَب، وكانت جدتي أم حسن تقول لي:

- اركض هات لنا شيئاً من هذه النعم البحرية..... ولكن عجوزاً لا أذكر

اسمه، كان يقول بصوت خفيض، وهو متهالك كالجيفة على رمال الشاطيء :

- هذه النعم، هذه النعم..! مصائب قوم عند قوم فوائد..! أنتم تتنعمون بها، وأصحاب هذه النعم يغرقون بقواربهم، فتطفو حاجياتهم فوق سطح البحر، فيحملها الموج قسراً إليكم يا أولاد الهرمة.. !

بدأت أتعرف على خيرات بحر يافا، عندما كان عمري أربع سنوات.. كنت أشاهد البدو ورعاة الأغنام وهم يلتقطون الرزق، كان البحر مصدراً لكل شيء، للراحة، للسباحة، للنزهة..... ومن لا يجد عملاً، تلاقيه يمسك صنارة صيد، ويقذفها باتجاه البحر، فيصطاد سمكة أو عشر سمكات، يضمن بهن عشاء عياله، كان البحر رحباً، وأما اليوم، فلقد انقلب البحر علينا، وكأنه يريد أن ينتقم من صيادينا، والمستنفعين منا، فلقد تحولت علب السمن الطافية بصناديقها الخشبية إلى دبابات برمائية ديناصورية عملاقة، خرجت من البحر وتقدمت نحونا، فوصلت إلى حلوقنا، وصرت ترى بعينك الضباع والذئاب تقعد فوقها، فيصطاد قناصتها بهدوء، دلفيناً أو ثلاث دلافين من أولادنا، يأكلونها على مهلهم، فيضمنون بذلك بقاءهم ليلة أو ليلتين إضافيتين في بلادنا، وهم لا يدركون أنهم قد تورطوا في أرض الرباط إلى يوم الدين....!

ولكن هذا الرباط الذي لم يكتب إلا علينا، لا يمنعني من السعي إلى الرزق، والخروج مع هاتين الصبيتين المسكينتين الساعيتين لإطعام أسرتيهما، إذ تشح الموارد، ولم لا أبحث مؤقتاً عن الرزق خارج هذا الخندق المحاصر بالاحتلال، خاصة في معسكر الحصار هذا، المكتظ بالناس المعدمين، والذين لا يُسمح لهم حتى بالخروج من زنزاناتهم...!

لم يكن جهاد موافقاً على سفر تغريد وماجدة بهذه الطريقة، وتحت ضغوطات الحاجة والأهل، وعدم قدرته لإصدار قرار فيتو على سفرهما.... راح يناقش نفسه: الجميع يضغط باتجاه سفرهما.. والمجتمع تحت ضغط

الاحتلال، يضغط لإرسالهما بهذه الطريقة المستهجنة..! ووالدتي تقول لي :

- لا تعارض يا ولدي، فالدين يمنع جلوس امرأة ملاصقة لرجل غريب عليها..ولكن النساء في سيارات الأجرة العامة، يجلسن ملاصقات للرجال، دون استغراب أو استهجان، أو منع..! وهذا المنظر يجعلك تدرك أن للضرورات أحكام..!

أفكار ووجهات نظر تجعلك ترضخ لها....! للضرورات أحكام..!

ونظراً لعدم وجود قدرة على صنع قرار بديل، قرّر الرضوخ لرأي الأغلبية، والمبادرة بالوقوف معهما، ومساعدتهما، وعدم التّخلّي عنهما، وذلك بالقيام بواجب إرسالهم بسيارة المحددة المخصصة للشغل؛)البكب(إلى الحدود.

وفي صباح اليوم التالي، جمل أبو مهيوب نفسه، وحزم أمتعته، وودّع معارفه وجيرانه، وكذلك فعلت تغريد وماجدة... تجمّع الكل حول سيارة جهاد المنتظرة أمام دكان الفالوجة لتحميل المسافرين وأمتعتهم، وهم متباينون في شعورهم؛ بين موافق ورافض، وفرح وحزين، وحاسد، وحاقد، وخائف، ومكسور الخاطر.. !

جلس أبو مهيوب في المقعد الأمامي، بجانب جهاد، وركبت البنتان في المقعد الخلفي، وانطلقت بهم سيارة النقل الصغيرة، باتجاه الحدود، ولكن الحاجز كان مغلقاً في ذلك اليوم، وعندما سألوه، قال لهم الحاجز: نحن مغلقون بمناسبة انتخابات مستوطنة)كريات شمونا!(فاستغرب جهاد السبب وقال:

- وما علاقة مستوطنة)كريات شمونا(الواقعة في أقصى شمال فلسطين، بسفرنا نحن المحاصرون في أقصى الجنوب ؟. فقال له أبو مهيوب: لا داعي لجدال الحاجز، فهذا الحاجز المصنوع من الحديد، قلبه حديد، ولا يناقش... وإذا فقد أعصابه، فإنه يرش كل من حوله بما هو متوفر لديه

من غارات سامة، دمدم، رصاص مطاطي، رصاص حيّ، وأحياناً رشاش ٥٠ أو صاروخ)لاو(، وأحياناً يستعين بطائرات بلا طيار، أو طائرات هليوكبتر أباتشي، وغالباً ما يستعين بالجواسيس، يعني بالمتوفر..!

توقفت السيارة، ثم قفلت عائدة من حيث أتت، وقال جهاد: سنذهب من درب التبّانة، هذه الطريق مهجورة، ولا يعرفها أحد منهم! عادوا بسيارته، فمروا من باب المدرسة الشاملة الثانوية للبنات، فقالت ماجدة: انظروا، شاهدوا المجندين يقعدون أمام بوابة المدرسة، وهم يتلاعبون بعلب غاز كيماوي ملونة، ويستعدون لفتحها مثلما يفتحون علب المشروبات الغازية، لقذفها داخل ساحة مدرسة البنات المهدّدات بالإضراب، تعبيراً عن سخطهن على زيادة عدد الحواجز التي تمنعهن من الذهاب إلى المدرسة! وبعد طول سير على الطرقات المُحفّرة، فوجيء جهاد بدبابتين تقفان له بالمرصاد في باب درب التبّانة، وسمع الدبابة تقول له :

ممنوع الاقتراب..

ممنوع الاقتراب..

فتوقف، ولم يقترب، وفهم الرسالة.. تراجع بسيارته أمام جبروت القوة، وقال لجماعته: بسيطة! سندوِّخهم، وسنذهب من وسط مزرعة أبو نجم، فهي تؤدي إلى الحدود... انطلقوا باتجاه المزرعة، وهناك قطعوا مسافة داخلها، وفي نهايتها، فوجئوا بأسلاك شائكة تسد كل المنطقة، مكتوب عليها:)مشروع مستوطنة جديدة(.. عادوا من نفس المكان الذي جاءوا منه دون تعليق، ولكن جهاداً قال لهم: لو اتجهنا جهة الشمال، ومررنا بالطريق الالتفافي، فسوف نصل إلى الحدود...، فقال أبو مهيوب: فليكن، دعنا نجرِّب! الله يهوِّنها! وبعد سير حوالي عشرة كيلومترات في الطريق الالتفافي، فوجئوا بسور عال، يصل ارتفاعه إلى ثمانية أمتار، يتمدد من أول الوطن، وحتى آخر الدنيا، يقف أمامهم..! من أين أتى هذا السور؟ قبل

شهر مررت من هنا، ولم يكن هنا جدار، ولا شحار! قال جهاد.... ولكن اسمعوا، سنتسلل من طريق مزرعة الصبر، فتلك الطريق غير مطروقة لديهم، وغير معروفة أصلاً.... فقال أبو مهيوب: آمين، مزرعة الصبر، مزرعة الصبر! وخلال ساعة من السير البطيء بين الأراضي الترابية والشوارع المحفّرة، وصلوا إلى مزرعة صبر متهالكة، وخاف جهاد أن تبنشر عجلات سيارته بشوك الصبر، وفي نهاية المزرعة كانت جرافة كاتربلر تجرف الطريق، وتخلق وادياً اعتراضياً، على جانبيه جبلان من تراب، تحرسها ثلاث سيارات جيش من ذوات الدفع الرباعي، ركّب على كل منها رشاش خمس مئة، فلم تستطع السيارة المرور، حتى دون رشاشات خمس مئة ولا مئة، وذلك بسبب الحفريات، على الأقل..! فاستسلم جهاد، وعاد بصمت مع أخته وصديقتها والرجل الكبير أبو مهيوب، فأوصل كلاً منهم إلى بيته، واتفق معهم على أن يعود صباحاً، ليأخذهم إلى الحدود، حيث يكون الحاجز قد فتح بمناسبة انتهاء انتخابات المستوطنة..

وبعد أذان صبيحة اليوم التالي، قام جهاد، وأعاد الكرّة، فأخذهم بسيارة)البكب(، وبعد تدقيق وتفتيش شديدين على كل من الأحد عشر حاجزاً التي مروا بها، وصلوا إلى الحدود، بيمن الله ورعايته..! ودّعهم جهاد، ثم عاد وحيداً بسيارته، وكان عقله يلف خمس مئة لفّة في الدقيقة، بقدر رشات الرشاش ٥٠٠، ويحدث نفسه قائلاً: ما ذنب هاتين الصبيتين اللتين في عمر الزهور لتتحملا مشاكل وطن بأكمله، وبهذا القدر من الإجحاف؟

الرجل الآمر الناهي

فزعت ماجدة وهي تركب الطائرة لأول مرة، متجهة مع تغريد وأبو مهيوب إلى ولاية الرمال العربية، حيث العمل، وداخت بفعل إقلاع الطائرة، واهتزازاتها الجوية، قبل أن يستوي طيرانها في السماء، وتفاقم ذلك التوتر وهي تسمع صوت قائد الطائرة يقول: إننا نواجه مطبات هوائية، فالرجاء ربط الأحزمة، ووضع المقاعد في وضعها العمودي، فقذفت كل أمعائها، وشعرت تغريد برعب شديد، وكؤوس الشاي والعصير والماء تهتز، وينسكب منها بعض محتوياتها على منضدتها المعلقة بين السماء والأرض، ولكن)أبومهيوب(لم يهتم بكل تلك الاهتزازات، لكونها مزحة مداعبة، إذا ما قورنت باهتزازت الوطن تحت ضربات مخالب الغرباء الفولاذية، وانتفاضة الأهالي اليومية للفكاك من براثن الأعداء، فجعلته ينظر بسخرية لهذه الاهتزازات الجوية التي لا معنى لها.

وعند وصول الطائرة مطار مدينة الواحة، في ولاية الرمال، وقف الرجال والنساء نابتين من مقاعدهم، وتكاثفوا في ممر الطائرة، حيث ملابس النساء المزركشة، ووجوههن المزينة، وصدورهن الناهدة، وأردافهن المثيرة، ببنطالاتها القطنية المفصلة على آخر طراز، وأثوابهن الملونة، وتنانيرهن القصيرة، التي يظهر بعضها أنصاف أفخاذ أنثوية غاية في النعومة والنضارة والبهاء، وعيون ملونة وحوراء ودعجاء ولوزية، وبحور من اللون الأزرق، والمتمعن فيهن يغرق يغرق.! كل هذه النعم الملونة، تحوصلت فجأة، وتشدّرت فوقها براقع سوداء، فحولتها إلى اللون الأسود، واختفت معالمها، وصارت على شكل بقج سوداء، أو خيام سوداء، لا يعرف ما تحتها، غمامات أو براقع، أو

مهاجع لأجساد لا تعرف ما بداخلها، واختفت حتى روائح عطور النساء، من شانيل وبويزون و..... فتحول جو الطائرة وممراتها إلى رعب من المجهول، الذي خيم أسود على محتويات مقاعد الركاب الواقفين.. فتح كل منهم خزانة سقف الطائرة، وأخرج منها أغراضه التي يخاف عليها من الكسر أو الضياع، أو التلف، وحملها بيديه، وسار الجميع في موكب حزين، باتجاه سلم الطائرة. ولكن لم يكن هناك سلّم، فلقد دهش الجميع من التقنية المتطورة في ذلك المطار، حيث صعدت الحافلة على أربع أرجل من روافع معدنية مضغوطة بالزيت، صعدت إلى مستوى الحدث، لا بل إلى مستوى الطائرة، فانتقل الجميع من أنبوب الطائرة، إلى أنبوب الحافلة، التي وبعد أن امتلأت، أخذت تنفصل عن مركبتها الفضائية، لا بل عن جسم الطائرة، وتهبط رويداً رويداً، حتى وصلت إلى مستوى الأرض، فإذا بها حافلة عادية من حافلات المطار المتحركات، تسعى حية في أرض المطار..! وليس هذا هو ما شدّ انتباه الركاب المسافرين، بل صار الناس داخل هذه الحافلة الحضارية، المعزّزة بدخان البخور، منشقين عن بعضهم، منقسمين في جلوسهم،)يوم لا ينفع مال ولا بنون(فلقد حُشرت النساء في مقدمة الحافلة، وسيق الذكورُ إلى مؤخرتها، وانفصل الزوج عن زوجته، والأخ عن أخته، والابن عن أمه. وصار الركاب فريقين، وكأنهما على جانبي ملعب تنس أرضي، يفصلهما شبك؛ جهة للحريم، وجهة للرجال.

والذي حدث أن امرأة شقراء، ذات شعر ذهبي، تلبس تنورة قصيرة، وتضع ساقاً فوق ساق، فيظهر ما تحت فخذيها، ظلت قاعدة بجوار رجلها، تتحدث معه بلغة إنجليزية، وهنا تمت الطامة الكبرى، وإذ برجل دين يبدو أنه مُعيّن للقيام بهذا الدور، كانت تتدلى من وجهه لحية كثة حمراء وطويلة، إلى حد أنها قد تصل إلى ما تحت الركبتين، وثوب قصير، قد يصل إلى ما تحت الركبتين أيضاً. تستطيع أن تقول إن كل شيء هنا يتوقف عند الركبتين،

ذلك لأنه عندما هب العجوز واقفاً، مُحدِّقاً ومشيراً بعصاه باتجاه المرأة الشقراء، كان طوله كلّه يزيد قليلاً عن طول ساقي تلك المرأة الشقراء... صرخ الرجل - الآمر الناهي - بالمرأة مشيراً إليها، أن هبي وامضي إلى حيث تجلس النساء..! ولكن المرأة لم تلتفت إليه، بل واصلت حديثها مع الرجل الجالس بجوارها، فأعاد ذو اللحية الحمراء أوامره للمرأة باللجوء إلى ملجأ الحريم، ولكن المرأة العنيدة، أو الغبية، أو غير المطيعة لأوامره الصارمة، والتي لا يُشق لها غبار، لم تجبه.! وعندما عرف ذو اللحية أن المرأة قد تكون لا تفهم اللغة العربية، وهو يرطن لها بلغة لا تفهمها، فكّر في التحدث معها بلغتها الإنجليزية، ولكنه اكتشف عجز ذكوريته، آسف، عجز قدرته على توصيل الرسالة، فصار يتمتم بكلمات، أو يُجمِّع حروفاً على بعضها، أيّة حروف، ولكن)اللبيب بالإشارة يفهم(، فالوليّة الشقراء الغبية، التي يبدو أنها مستغنية عن روحها، ومستقبلها ووظيفتها، وقد تُهدّد بالإبعاد القسري عن زوجها، وبإكراهه على تطليقها عُنوة... ! وقد تقع مصيبة تُدمِّر مستقبلها، ومستقبل زوجها الأكبر منها، مفروض أن تستجيب لأوامر المشير، وتمتثل لنهيه..! ذلك لأن كلام هذا الرجل باتع، وسيفه قاطع، وحدّه مانع، وعفوه شافع، ويراعه ساطع، ولا تستطيع امرأة ولا رجل أن يناقشه في الدين، ذلك لأن عصاه تشتغل، إذا ما وجد معارضة أو ممانعة لتنفيذ أوامره، والجَلد عنده هو أضعف الإيمان! فقال لها بصوت عال) :هم هن دا با في ذا إن وا كا..... هناك(! هكذا أمرها برطانة حادة وملزمة، لم يفهم هو معناها... انتبه جميع ركاب الحافلة التي كانت تنطلق بحضارة صناعية متقنة، تتماوج متدلّهة بشبابها، سائرة بهدوء على أرض مطار فسيح، ولكن يبدو أن المرأة لم تكن لبيبة، ومن الإشارة تفهم..! ويبدو أنها شاهدته، ولكنها تركت الأمر لأولي الأمر، تركت محرمها الأشقر يجيب ذا اللحية الحمراء، فنظر الرجل الأشقر الواثق من نفسه، الشائب الشعر المغرور، إلى الشيبة، وقال له باللغة الإنجليزية:

) -وط دو يو وانت...؟(ماذا تريد؟ ماذا تريد أن تقول لها؟ فأجاب العجوز متلعثماً :

) -دي بي ها ذير...(! وأشار له إلى هناك، يعني إلى جهنم الحمراء! يقصد إلى النصف الآخر من الحافلة، إلى فريق النساء. فأجابه الأشقر بلغته الأجنبية :

) -ذس إز نط يور بزنس(. هذا لا يعنيك. اجلس والتزم بنفسك!

يا أخي هؤلاء الغربيون لا يفهمون غير)البزنس!(حتى شؤون المرأة عندهم)بزنس(، ولكن هذا الرجل الشيبة التقي النقي الطاهر العلم...، لم يفهم شيئاً من رطن الأجنبي، وللحقيقة والأمانة، فلقد كانت الحافلة قد وصلت إلى شاطىء الأمان، ولم يعد للحوار مكان، ويبدو أن مع هذا الأشقر قوة)فيتو(، جعلته يقرر تفويت الفرصة على هذا الملتحي، ويجهض جهوده الرامية إلى فرض الأمر والنهي المطلَقين، فلم يعد العجوز قادراً إلا على أن يتابع طريقه للخروج من بوتقة الحافلة الجميلة، ذلك لأن من راقب الناس مات هماً.!

قوة الفيتو..!

معاناة وتعقيدات إدارية شديدة في واحة الرمال، جعلت أبو مهيوب يدوخ في الذهاب والإياب، من مديرية إلى وزارة، ومن وزارة إلى دائرة، ومن دائرة إلى إدارة، ومن إدارة إلى مركز، ومن مركز إلى هيئة، ومن هيئة إلى جماعة..... وفي كل مكان يصله، يسمع أوامر وتوجيهات كثيرة:

- سلّمنا جوازات السفر...

- ابحث بين تلك النماذج عن نموذج)دال(ونموذج)راء(لكل معلمة، وعبىء لك كمحرم، نموذج)جيم(..

- ضع طوابعَ على المعاملة..

- اختمها من غرفة رقم ١٣

- اذهب إلى المحاسب..

- اختمها من رئيس القسم

- أين هما صورتا المعلمتين، وصورتك أيضاً؟ ارفقها مع المعاملة..

كان يواجه أسئلة كثيرة في كل مكتب يزوره، فيجيب عليها ويلاطف الحيطان، وأحياناً يسخر من نفسه وهو يسعى، فيغني مع الفنان سيد مكاوي:

)اسعى.. اسعى.. اسعى.. اسعى... خذ لك صورة، ستة فتسعة..(!، كان يغني بصوت مكتوم وهو ينطلق مسرعاً لختم أوراقه في الدوائر المختصة، متجاهلاً معاناته وهو يدوخ سائراً على قدميه، أو راكباً في المواصلات العامة، متنقلاً من حي إلى حي آخر داخل المدينة، فيجهد

بلاء..... ولكنه يسلي نفسه بتذكر أغان تقليدية فيغني مع الفنان محمد عبد المطلب :

)ساكن في حيّ السيدة، وحبيبي ساكن في الحسين،

وعشان انول كل الرضى، يوماتي اروح له مرتين،

من السيدة.. لسيدنا الحسين..(!

وبالرغم من كل هذا النكد وهذه البهدلة راح الملعون يضحك ويكلم نفسه قائلاً:

– وعشان أنول كل الرضى، لا أروح له مرتين كل يوم، بل أروح له ستين مـــرّة، من مكان إلى مكان.. ومن، إلى، عن، على، البـــاء، الكاف، اللام...هكذا كان الأستاذ حسن يُعَلِّمنا، وهو يضربنا)فَلَقَة(في كتاتيب يافا..)أبياخ عليك يا يافا..! طلعنا منها والرادو يغنّي..(!..

وبعد خمسة أيام من العذابات، واللف والدوران، والأخذ والرد، تمكن الرجل من تشبيت المعلمتين في مدرسة واحدة، حيث جاء توزيعهما في البداية، في قريتين متباعدتين، خارج المدينة، وعندما شرح المحرم موقفه، وانبرى قائلاً لهم بالفم المملوء: كيف أكون محرماً لحرمتين؛ كل منهما في بلد ؟ولم يتوقف عند ذلك، بل استعطف المدير، ولاطف البواب، وعمل صحبة مع رئيس القسم، ودفع بالتي هي أحسن.. فاستطاع تثبيتهما داخل المدينة، وعدم التفريط بهما في قريتين بعيدتين، وكانت شهادة المحرم تنفعه، وتضع في يده قوة)الفيتو(العربي..

ماذا تقول ؟

لا يوجد فيتو عربي في مجلس الأمن، فكيف يكون.... ؟

يا أخي أنت تعرف أن الفيتو العربي لا يعمل أصلاً، إلا في مواجهة

الحريم، فلماذا هذه الأسئلة التي... !

وبعد أن رتب الأمور الوظيفية، استأجر شقة من بيت طينيٍّ، في حارة مجاورة للمدرسة، عبارة عن غرفتي نوم وصالة جلوس صغيرة، توصل ما بين غرفتي النوم والحمام والمطبخ الصغير، والباب الرئيس، فاختارت البنتان غرفة نوم، وأخذ المحرم الغرفة الأخرى، وهكذا عاشتا معه في بيت واحد، وصارتا كل يوم تذهبان إلى المدرسة، وتعودان منها، فتجدانه قد اشترى أغراض البيت؛ من خضار ولحم وصابون جلي، ودواء للغسيل، وأية أغراض تلزم للبيت، وقام بطبخ الطبيخ، ونفخ النفيخ، وجلى أطباق وأواني الطعام، ونظّف البيت، فتجدانه عند دخولهما البيت يعمل وهو يغني :

أمّونة إيه الأسباب ؟

أمونة ما تردي عليٍّ. !

إن شاء الله ما ردّيتي عليٍّ ،

يا أمونه..!

فتضحكان معاً، وتقول له ماجدة :

- ها أنا أرد عليك يا)أبومهيوب(، فلا داعي للشتائم والمخانقة..! ينتبه الرجل، فيلتفت إلى الصبيتين قائلاً:

- يا أهلاً، يا أهلاً، أشرقت الأنوار، يا أرض اهتزي وما عليك إلا الشمس والقمر؛ تغريد وماجدة. ! ولكن كيف تجتمع الشمس والقمر؟ لا تصدّقا تخاريفي يا بنات، يبدو أن هذا من تأثير الجوع، فالغداء جاهز. فتجيبه ماجدة بدلالها الطفولي، ترافقه ابتسامة تغريد الصامتة:

- آه والله يا أبو مهيوب، إننا ميتتان من الجوع، فنحن لم نفطر بعد...!

- لماذا لا تتناولان فطوركما قبل الذهاب إلى المدرسة يا بنات..! الفطار

أهم وجبة، فبعد العشاء نستمر بلا أكل، حوالي اثنتي عشرة ساعة، فكيف نقوم ونذهب للعمل، ونواصل جوعنا ثماني ساعات أخرى؟ عشرون ساعة جوع، معناها جريمة في حق ابن آدم..! فأكدت ماجدة كلامه قائلة :

- كلامك صحيح يا أبو مهيوب، فالعلوم الصحية تقول: كلما زاد عدد الوجبات، وقلت كمية كل وجبة، صارت الصحة أفضل، والوزن أقل. فقال أبو مهيوب لتغريد مناكفاً ماجدة، ليخلق جواً في البيت :

- ولكن قولي لهذه الماجدة، التي توزع النصائح الطبية لتخفيف الوزن : كيف تسمنين ويزداد وزنك كل يوم، وأنت تعرفين العلوم الصحية؟ فقالت تغريد غامزة :

- لا تنس قولها إنها ميتة من الجوع، ومع ذلك تسمن!

- حرام عليك يا تغريد، فأنا أعمل نظام حمية قاس من أجل المحافظة على وزني، شوفي خصري، على قد الخاتم !

تجلس المعلمتان ومحرمهما على ثلاثة كراسي، تحيط بواجهات طاولة خشبية مربعة، ويبدأون تناول الطعام باسم الله... وعلى المائدة تنفتح ماجدة بالحديث المضحك المبكي، عما سمعته اليوم في المدرسة:

- خبر السائق الذي تزوج المعلمات الأربع اللواتي كان ينقلهن يومياً بسيارته الأجرة، من مدينة الواحة إلى قرية السراب، غطى على كل الأخبار....! فقالت تغريد:

- كيف تزوج الملعون المعلمات الأربع مرة واحدة..! قالوا إنه متزوج، وليس أعزب !

- أنت لا تعلمين أنه كان قد طلّق زوجته الأولى، قبل أيام من مغادرته المدينة لآخر مرّة مع عشيقاته الأربع.. !

- عشقهن بلاء..! ولكن ماذا عن أهاليهن ؟

- قالت لي المعلمة مها: كان السائق قد اتفق مع المعلمات على أن يسكنّ معه في بيت استأجره لهن مسبقاً في قرية السراب، وفور تطليقه زوجته الأولى، عقد قرانه عليهن في القرية، فسكنّ معه في بيت مكون من غرفتيّ نوم، بحيث تنام الزوجات الثلاث في غرفة، والتي عليها الدور تنام في غرفة الذكر..! بحيث لا يجوز الجمع بين زوجتين تحت سقف واحد... المهم هو السقف..فإذا كان السقف بخير...!

- تعرفي أن رواتب الزوجات الأربع في مدرسة القرية تدر إيراداً كبيراً على الزوج..! والله إنها ضربة معلم لصالح ذلك السائق..! قد تكون الرواتب هي السبب!

- وقد تكون ندرة المتقدمين للزواج والعنوسة هي السبب..!

- وقد تكون المواصلات البعيدة بين المدينة والقرية واختلاء السائق بهن...

- وقد تكون مقارنة ثقافتهن بجهل زوجته المتعفنة داخل بيتها هي السبب..!

- وقد تكون أنانية الرجل، ورغبته بالاستمتاع بما بين يديه هو السبب..!

- ماذا سيحصل لو أن إحدى الزوجات الأربع قد تم نقلها إلى مدرسة ثانية في قرية بعيدة ؟

- هذه الأمور تحل، وليست هي بيت القصيد..! المصيبة أن أولياء أمور المعلمات الأربع، وأهاليهن وأمهاتهن لم يُبلَغوا، ولم يحضروا، ولم يشهدوا زواجهن، ولم يقبضوا مهورهن، ولم يعلموا بالخبر إلا بعد وقوعه...! ولم يرفعوا رؤوسهم عالية أمام أقاربهم ومعارفهم وجيرانهم بذلك الزواج الخطيفة.. وهنا تقع الطامة الكبرى..!

- ماذا سيحصل لو اختلف الزوج مع إحدى زوجاته وطلقها، فكيف ستعود إلى أهلها؟ وكيف ستتدبر أمر نفسها وحدها ؟

- المريح في الأمر، أن الزوج قد قعد معهن في القرية، ولم يعد للمدينة... فقالت ماجدة ساخرة :

- توفير بنزين ومصاريف السيارة، ووقت السائق والراكبات الأربع.. العملية ببساطة، عملية توفير.. الاقتصاد في النفقة نصف العيش ، وكذلك فالمعلمات الأربع يعشن حالة بطالة زوجية، فالزواج أدخلهن في عجلة الإنتاج التناسلي والطفولي والأمومي..إنها عملية تشغيل لأشياء كثيرة كانت معطّلة..! أليس السائق في هذه المغامرة فاعل خير في مكافحة البطالة الاجتماعية؟

- لو عاد إلى المدينة، فقد يقتله نفر من ذوي إحدى زوجاته الأربع. على الأقل، واحد متهور سيقوم بالمهمة...!

كانتا تتحدثان وتتضاحكان وهما تأكلان، بينما أبو مهيوب يراقبهما، وهو يمضغ الطعام بهدوء، ويسمع الخبر مندهشاً، ومستغرباً ما تقولانه.. !

ينتهي تناول الطعام، فيحمدون الله، ويجمعون الأطباق وبقايا الطعام، فهذه تغسل الصحون، وتلك تجففها وتمسح آثار الطعام من هنا وهناك، وأبو مهيوب يمسح الأرض، ويرمي محتويات سلة النفايات في الحاوية البعيدة خارج البيت، ثم تذهب البنتان إلى غرفة نومهما، ويذهب أبو مهيوب إلى غرفة نومه، حيث نوم القيلولة، وفي المساء يعودون لتجاذب أطراف الحديث...

الرسم كان أولاً

في أوقات فراغ تغريد التي تتمطى بالطول وبالعرض داخل حياتها المُجَفّفة في مدينة الواحة، معلنةً الملل والزهق والمعاناة وشرود الذهن إلى آفاق بعيدة، كانت في كل مرة تكتب بعضاً من مذكراتها :

لا أعرف كيف وافق أبي على إرسالي مع)أبو مهيوب(إلى هذه البلاد البعيدة....! ولا أعرف كيف استطاع جمع أمي وأم ماجدة فوراً، وتناقشوا في الأمر، ثم استدعانا؛ أنا وماجدة، حيث كنا قاعدتين في غرفة مجاورة، نرتجف بانتظار نتائج مؤتمر القمة العربي.. كنا متأكدتين أن نتائج اجتماعهم ستكون أسوأ من نتائج مؤتمر القمة العربي.... وسألنا أبي عن رأينا في موضوع السفر مع الرجل، ولا أكتم عليكم، كنت مشتاقة للسفر، مجرد السفر، إلى أين ؟ لا يهم، المهم نسافر وخلص، ولم يكن لي اختلاط مع عمي أبو مهيوب هذا، ولكن قرار أبي لم يأت من فراغ، وهو الأعرف بمصلحتي، وأم ماجدة أعرف بمصلحة ابنتها، ونحن لم نسافر من قبل، ولم نعرف معنى السفر، ولم نعمل أو ندرِّس قبل الآن، قلت لهم:

- كما تريدون. وقالت ماجدة:

- أنتم أدرى بمصلحتنا. فقال أبي :

- الخيرة في ما اختاره الله !

وفي اليوم التالي أحضر لي أبي ورقة، لم أهتم بها، قال إنها من الأوراق الثبوتية التي طلبتها الهيئة المتعاقد معها للتدريس هناك، كانت على ثلاث

نسخ؛ واحدة لمديرية التعليم، والثانية لي، والثالثة للمدعو أبو مهيوب، وعندما قرأتها لاحقاً، ضحكت على ما هو مكتوب فيها..! كلام على شكل نكتة سخيفة..! هل تُصدِّقون أن أبي سلمنا عقدي زواج موثقين، يؤكدان أن الرجل قد عقد معنا نحن المعلمتين عقدي زواج منفصلين، فصار محرماً لنا نحن الاثنتين، وبذلك سمحت لنا سلطات الرمال العربية بدخول أراضيها...)ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه.....(صار لنا سلاح نذود به عن حوضينا، ونشهره على من يستضعفنا، والسلاح هو أبو مهيوب..! نكتة سخيفة!

حملنا حقائبنا وأمتعتنا في سيارة محدَدَة جهاد، واتكلنا على الله... ودّعنا الحبايب، والحاضر والغائب.. ودّعونا بالبكاء.. ما أسرع ما تنهمر دموع النساء عندنا، سواء أكان في الأفراح أو في الأتراح، ففي كل يوم يبحثن لهنّ عن مكان عزاء، أين بيت الشهيد اليوم.. ؟ كل يوم يسقط لنا شهيد، اثنان... ثلاثة عشر... ما يرزقنا به الله من شهداء لذلك اليوم..! ولكن لماذا يا ربي لا ترزقنا إلا بالشهداء؟ فتتجمع فوق أهله زفّةُ عرس فلسطيني، وفي كل يوم يرقصن في عرس شهيد جديد، ويدسن على الدماء التي تنقع الأرض، تغوص أقدامهن في دماء الشهيد، ويرقصن ويغنين ويولولن ويبكين، فإذا كان الشهيد طفلاً تسمعهن يغنّين :

وطاهره يا مطاهر وناوله لامّه،

ويا دموعه الغالية نزلت على فمّه...

ويا فرحة أبوه، ويا فرحة عمّه،

تع شوفوا ابتسامته

مرسومة على سنُّه....."

نفس الأغاني التي كنت أسمعها ونحن أطفال، عندما يُطهِّرون طفلاً ذكراً، فتتجمع الجارات والقريبات والحبيبات والحاسدات والحاقدات

والبغيضات والمحبوبات، والصغيرات والعجائز، فيغنين، ويتبركن بالحشفة المقطوعة من حمامة الطفل؛ تمسكها واحدة منهن وهي تضحك، وتمسكها أخرى وهي مفنجلة عينيها، وتتناولها أخرى، وتنظر إليها وهي حزينة وذابلة، وتمسكها أخرى بخوف، وأخرى بقرف، وتمسكها أخرى بشغف، وكأنها تحاول ابتلاعها دون قضم، وأخرى تتمنى قضمها ومضغها، وأخرى تبارك الطهور بقلب خاشع، وتشكر الله..

وبعد أن كبرنا، صرنا لا نعرف؛ هل تغني النساء طرباً في تلك المناسبات، أم مقتاً وحزناً ولوعة على فراق الشهيد.. أمرهن غريب تلك الفلسطينيات، تجدهن يزغردن ويرقصن في الأفراح والأتراح، وحتى)مأتم الشهيد(أسمينه)عرس الشهيد(، و)بيت العزاء(صار)بيت الأجر(... وأنت لا تعرف لهن وجهاً من ظهر، لأن كليهما ينزف دماً..

هكذا كنا نضحك ونحن ذاهبتان مع مُحرمنا أبو مهيوب إلى بعثتنا التعليمية، ونحن لا نعرف هل كنا نضحك في عرس فَرَح، أم عرس تَرَح، المهم أن نضحك والسلام، وأنا أفقعها نكتة مضحكة، وهي تجيبني بعبارة تُناغم سابقتها، بينما نحن خارجتان من أتون المعسكر، ومن ترابه، تعرج بنا عجلات السيارة بين قاع حفرية منخفضة، وكثيب من القمامة، فنشاهد حماراً يجرُّ خزان نفط صغير، وأولاداً يلعبون في الطرقات على ضفتي قناة مجار سوداء، ودجاجات يفعفلن هنا وهناك، وعنزتان ترعيان أعشاباً جافة، وإحداهما تمضغ كيساً بلاستيكياً، والأخرى تشرب من مياه المجاري السوداء، ودبابتا سلام غولتان- تتشمسان على رأس تلة القمامة العملاقة... وحركة سير، واندفاع رجال وأطفال ونساء في الطرقات نحو المجهول، يتجاهلون الإرهاب المستلئم في ربوعهم، وكأن شيئاً لم يكن.. ونحن ما أن تتحرك بنا سيارة جهاد المتجهة نحو محطة حافلات السفريات الخارجية الواقعة على الحدود، حتى نتوقف أمام حاجز جديد مغلق على بعد

مئات الأمتار، يدور جهاد بسيارته، يبحث عن ممر آمن لتوصيلنا إلى الحدود، فلا يجد.... نعود أدراجنا إلى طريق آخر... شاهدنا أمام الحاجز التاسع والعشرين لافتات كثيرة....)المحسوم(العملاق رقم ٣٧ يتعالى أمامنا بغرور بوابة سور برلين المنقرض، ويتحدث العربية العبرية بتثاقل.. يشتمنا، يبصق في وجوهنا... يأمرنا، وينهانا، ويقتلنا بعد النهي... !

الوقوف إجباري للسلام.

أسلاك شائكة للسلام..

منطقة ألغام للسلام..

ممنوع الاقتراب والتصوير للسلام.

منطقة عسكرية محظورةللسلام.

مشروع مستعمرة جديدة اسمها سلام..

حفريات خطرة للسلام..!

جدار عازل للسلام..!

يجب اتباع تعليمات السلام.

من لا يطيع التعليمات، يتعرض لإطلاق السلام عليه...!

إذا كان معك في السيارة إرهابي، فعليك الإبلاغ عنه، وإلا ستتحمل مسؤولية نقل ودعم وتزويد إرهابيين. ! وحسب تعليمات)المحسوم(، عدنا في صباح اليوم التالي.

وقفنا عند)المحسوم(رقم ٣٧، ساعة.. ساعتين.. عشر ساعات من الإهمال الملغوم بالتوتر والحذر والخوف والرعب والتجاهل والعنف والإذلال والقهر المتعمّد لتحقيق السلام.. كنت أراقب القط وهو يلاعب الفأر قبل أن يأكله، وأما هذه القطط السمان، فلا تعرف الملاعبة ولا النيلة... أسلحةسلام

مصوبة تجاه الإرهابيين المارين والساكنين والماشين والراكبين والمودّعين والمستقبلين والواقفين والقاعدين والبائعين والمشترين والمتحدثين والصامتين والقائمين والنائمين تحت رحمة الحاجز والرُكَع السجود..! ولذلك كان على المأزومين والمرضيالإرهابيين المتّجهين إلى مستشفى، أو من معهم حالة ولادة إرهابية أو وفاة أو زفت، عليهم أن يتجاهلوا التّوتُّر المشوب بالحذر على الحدود، ذلك لأنه إذا جحظ أحدُنا مُجَنّدَ السلام، فهو تماماً كمن يحدق عينيه في قرص شمس الظهيرة فتحترق عيناه.. !

- وكي لا تحترق عيونكم أيها الفلسطينيون، احنوا رؤوسكم وأنتم تمرون من ديارنا... هذه البلاد بلادنا، وأنتم سلبتموها من أبينا إبراهيم... فيقول له رجل على باب الله:

- إبراهيم هو أبونا نحن المسلمين)ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً..(فيجيبه الرجل الآلي بصلف وتحدٍّ:

- إبراهيم أبونا نخن.. !

- لأ.. أبونا نحن.. !

- لأ.. أبونا نخن.. !

- لأ.. أبونا نحن.. فيتدخل المحسوم، ويشير إليه بالإصبع بطلقة سلام.. طلقتي سلام.. ثلاث طلقاتسلام، رشاش ٥٠ سلام. ويستنفر الجميع، ويهرب أناس، ويقفز شباب استشهاديون من وراء الحاجز، وتعلن قنوات التلفزة الفضائية والإنترنت أن إرهابياً ومجنّدي سلام قد قُتِلوا عند)المحسوم(رقم ٣٧.

الحمد لله أننا كنا قد قطعنا الحاجز، قبل الانفجار الذي هز الثكنة العسكرية، وأوقع قتيلين من المجندين.. أبو مهيوب وجهاد بقيا صامتين، كنت أراقبهما وأقول لنفسي :

- إما أن ريقيهما قد جفّا، والتصق لساناهما بسقفي حلقيهما، وإما أنهما قد تعودا على عدم التحديق في قرص الشمس !

- لا بد أن يأتي يوم.. قال جهاد.

- سيأتي يوم.. قال أبو مهيوب.

ولكننا كنا أنا وماجدة)صم، بكم، لا يفقهون، ولا يسمعون...(!

أبو مهيوب يجلس في مقدمة سيارة جهاد، ونحن البنتان نجلس على المقعد الخلفي، نتبهر بما نرى، ولكننا لم نكن نقدر أن نُحَدِّق في قرص الشمس.. رحنا نتغامز ونتلامز، وكأن لا شيء يهمنا.. بالطبع ألف شيء يهمنا، ولكن يبدو أن طبيعتنا تحت الاحتلال قد شُوِّهت، فصار الضحك لدينا نوعاً من التعايش، لنسيان عذابات الاحتلال، ونوعاً من المقاومة، ونوعاً من الحداثة التي يتحدثون عنها، بحيث نرش على الموت سُكّراً، صارت هذه فلسفة حياة، وبغير هذا الأسلوب، كيف نستمر؟

انطلقت السيارة التي ستوصلنا إلى الحدود، ومن حدود إلى حدود، ومن حدود إلى مطار فسيح..!

لم أفهم موقف جهاد يومها، فهو المعارض لسفرنا، وهو الذي أرسلنا بسيارته إلى الحدود..! وكذلك فإن قرار أبي هذا عقّد الأمور، وجعل حياتي كلها على الهامش، ويا ليتها على الهامش، لقد حشرها في قمقم، وأنا أعيش هنا مدفونة في الحياة، صحيح إن حياتي في معسكر الحصار كانت صعبة، وحالنا فقير، ولكنني على الأقل كنت أعيش حياتي، وكنت أحياناً ألبس قميصاً أصفر أو أحمر أو....، وتنورة طويلة، زرقاء أو خضراء أو بنطالاً فضفاضاً، فأجلب انتباه كل الناس الذين أمر بطريقهم، وأحياناً يعاكسني أحدهم:

- ما هذه الحلاوة يا.. !

- الشارع أزهر، والتفاح نضج مرّة واحدة.. !

- يا أرض اهتزي، وما عليك إلا تغريد شلهوب..! الملعون يعرف حتى اسمي..! ولكن معظمهم مؤدبون، ولا يخرجون على الذوق والآداب العامة، ولا ينوون تنفيذ أية رغبات شاذة..! مجرد عبارة غزل، نسمعها مرة في الشهر أو في الثلاثة أشهر والسلام..! وكل يسير في طريقه.

xxxxx

بعدما خرجنا من أرض مطار الواحة، نزلنا في فندق رخيص، وكانت أجوره بالنسبة لقوتنا الشرائية خيالية، ولا نستطيع لها احتمالاً، ولكن للضرورات أحكاماً. وفي اليوم الخامس، نقلنا أبو مهيوب من الفندق إلى بيت قريب من المدرسة، قال إنه مؤقت، لحين استيضاح الأمور، والتعرف على المنطقة.

وهنا أعيش مجبرة على لبس البرقع والملاية والحجاب والخمار والدثار والعباءة السوداء، وكل أدوات الدفن، خوفاً من الضباع، أسير وأنا مدفونة في الحياة، لا أحد يرى فيّ سوى شبح أسود متحرك، جيئة وذهاباً، وعند باب المدرسة، يقف كثير من الشباب والرجال، بحجة أخذ أخواتهم، أو نسائهم، أو بناتهم الخارجات من المدرسة، فنجدهم يغازلون أية امرأة خارجة، سواء أكانت طالبة أم معلمة أم المديرة، أم حتى الآذنة !

) -عليك خوش قفة. (!

- أموت بين رجليك !

- ما رأيك نتعرف ؟

- الليلة نتعشى سوا !

- أدفع لك كل ما تريدين، مالي وروحي فداك !

- أحملك على صدري، واذبحيني بسكينك !

- نفسي أتعشى بك الليلة!

يريد أن يتعشى بي الليلة! تخيلت أنني شاة، أو فريسة، أو حتى جيفة نتنة، يتعشى بها ضبع..! يا إلهي! رعب وخوف وتقزُّز وغثيان يصيبني وأنا أخرج من بوابة المدرسة، فأغذّ الخطى في الشارع المؤدي إلى حارة بيتنا القريب من المدرسة، أصل باب العمارة، فتنقشع كوابيس النهار.. !

كلام بذيء كثير من هذا النوع! يختلف تماماً عن المغازلات التي كنت قليلاً ما أسمعها في بلادنا! وأحياناً يصدمني رجل ضالٌ بقوله :

- مشينا!

لم أفهم ما معنى كلمة مشينا أول مرّة! ولكنني عندما كنت أسير مع زميلتي؛ المعلمة حفصة، قابلها واحد من هؤلاء المعاكسين قائلاً لها: مشينا؟ فأجابته بصوتها الجهوري: كُل زَقّ! فهرب الذئب سريعاً! ومنها فهمت معنى عبارة مشينا! وبعدها حكت لي حفصة حكايات لا أول لها ولا آخر..... كانت إحداها تدور حول طالبة مبرقعة بهذا السجن الأسود المتنقل، يتابعها يومياً رجل ثقيل الدم، ويغازلها، ويعرض عليها أن تستجيب له، وهي تغنج، وتتدلّه عليه من داخل حجرتها المظلمة، وهو يموت ولهاً بصوتها المغناج، بينما هي تراه وتعرفه حق المعرفة، وهو لا يراها، ولا يعرفها، ولكنه يريد أن يتمتع بلهو بها غير مُعجل، وبعد استفاضة في الكلام، والذهاب والإياب، والأخذ والعطاء.. قال لها: مشينا.. ؟ فتصنّعت رفض طلبه قائلة:

- ما اقدر... !

- اشلون ما تقدرين؟ ما راح نطوّل..! كلها ساعة زمن، وأرجعك إلى بيت أهلك، سالمة غانمة.. !

- غانمة إيش؟ قالتها بدلع.. !

- غانمة ال.....

- ما أقدر..! أبوي يذبحني... !

- ويش عرّف أبوك باللّي يصير ؟

- أبوي دائماً معي، ومرافقني، ويدري عن كل شيء يحصل لي! عشان كذه ما أقدر.. !

- شو هو أبوك جن أزرق، يعرف كل شيء، ويعيش معك في كل مكان؟ أنت تطلعين معي بالسيارة، نروح للبر، ثم نعود، ولا من شاف ولا من درى! مشوار حلو... !

- أخاف منك، تضيعني في البر، وبعدين أهلي يدرون، فيذبحوني... !

- لا تخافين، عليك الله، وأمان الله !

وبعد متابعات متكررة، استمرت أياماً غير معدودة، وحوارات الذئب مع الحمل، وافقت الصبيّة قاصدة أن تركب مع الرجل الخسيس، فيأخذها إلى البر، ليعيّشها لحظات غرام ممتعة حسب قوله..

وبعد أن انطلق الصياد بفريسته إلى البر البعيد، وصلا إلى الصحراء العارية من جميع الجهات، وعلى مد البصر.. وبعد تدلُّه وتمنُّع وابتعاد، مدّ الرجل يده على فخذ الصبيّة، فلم تستطع الفتاة أن تستمر بتلك التمثيلية الدراماتيكية المذهلة، واضطرت لمفاجأته بأن كشفت عن وجهها، فإذا بها ابنته الكبرى، المعلمة في تلك المدرسة..! وكانت عندما شاهدته يغازل البنات، غير آبه بكبر سنه، وكرامته المفقودة، قد جعلت له من نفسها

كميناً، يفضح نفسيته الرخيصة..! وعندها نظرت إليه بحقد واحتقار وكراهية، بينما ذهل الأب من إرباك الموقف، ولم يحاورها في الأمر، بل أدار مقود سيارته، وعاد من حيث أتى، دون أن ينبس بحرف، أو أن يعلق على ما جرى..!

xxxxx

كانت الأستاذة موزة؛ وكيلة المديرة، طويلة وسمينة الجسم، تبدو كسمكة هامور ضخمة كسولة، وهي مغطّاة بثوب أسود فضفاض، مثل ثوبي الأسود الذي أجبرت على ارتدائه، كان ثوبها ذا ذيول وأطراف تلعب بها حركة يديها وهي تمشي ببطء، وتلهث بشحومها المتراكمة فوق صدرها وبطنها وردفَيها، ونحن صاعدتان على الدرج إلى الصف السادس الابتدائي، حيث أخذتني لأبدأ الدرس الأول في حياتي. دخلنا غرفة الدرس، قامت التلميذات اللواتي فوجئن بي أدخل مع الوكيلة بصفتي معلمة جديدة، ثم قعدن بعد أن أشارت الوكيلة لهن بالجلوس.

دهشت من كون بعض الطالبات من حجمي، فكرت كثيراً بما سأقوله لهن، وقبل أن ندخل الصف، سألتُ الوكيلة موزة: كيف أبدأ الدرس الأول؟ فقالت :

– لا تقلقي! ابدئي الدرس كيفما تريدين، والأيام ستعلمك كيف تدخلين في الموضوع، هل أنت خائفة يا أستاذة تغريد؟

– لا، لست خائفة، ولكنني مرتبكة، ولم أحضِّر ما سأقوله للطالبات.

– لا ترتبكي، وإذا ارتبكت أمام صف طالبات صغيرات مثل هؤلاء، وخفت من الدخول، فكيف تتصرفين عندما يدخل عليك عريسك لأول مرة؟

الحياة كلها مربكة يا أستاذة تغريد !

خجلت كثيراً عندما سمعتها تتحدث عن العريس والزواج، ولم أجبها بشيء، فتابعَت مشاكستها ومداعبتها لي :

- في العام القادم ستعودين من الشام، ومعك حليلك، راجلك الأشقر الأحمر الأعطر، ويا حليلك يا أستاذة تغريد. !

لم تحدثني امرأة بهذه الكيفية من قبل، فكيف إذا كانت مساعدة المديرة، ومن أول يوم تدريس؟ يبدو أنها تقصد كسر حاجز الخوف في ذهني، والدخول في موضوع الدرس، وأنا لست متعودة على كسر الحاجز، ولا أجرؤ أصلاً على كسر الحاجز، فبلادنا كلها حواجز، والمتنقلون فيها يصطدمون بمن يكسِّرون لهم مجاذيفهم،)من محسوم إلى محسوم(، وكل)محسوم(أمره)محسوم(.. نحن لا نكسر الحواجز يا وكيلة المديرة، بل الحواجز هي التي تكسرنا، الحواجز في بلادنا تضخمت وتكاثرت وتنظمت، فصارت معالم حياة، وحضارة احتلال، صارت مثل تقنية صناعة التحنيط لدى الفراعنة، ومثل تقنية صناعة قطع غيار أجهزة الكمبيوتر التايوانية، ومثل صناعة تجارة الزهور العالمية في هولندا، ومثل صناعة الأحذية والسيارات الإيطالية، ومثل صناعة القطن السورية، ومثل صناعة معلّبات السردين المغربية، صارت في فلسطين المحتلة حضارة صناعة الحواجز،)والمحاسيم(، من الحسام القاطع، قالوا لنا :

- عيب عليكم أن تبقوا تشهرون علينا سيوفكم الصدئة، في عصر الكمبيوتر، وتتغنون بزهير بن أبي سلمى الذي يقول :

)ومن لم يذد عن حوضه بحسامه يُهَدَّم ومن لا يظلم الناس يُظلم(وعندما ضحكوا علينا وأنزلنا حساماتنا، أشهروا علينا محاسيمهم، فصارت لهم محاسيم - مفردها هنا محسوم - فظلمونا وهدّمونا. نحن لا نكسر

)المحسوم(يا وكيلة، و)المحسوم محسوم(على وزن)المكتوب مكتوب، ما منُّه مهروب(!.. لم تفهم الوكيلة ما هو)المحسوم(، ولا ما يحسمون، ولم أفهم أنا منها شيئاً. !

خرجت الوكيلة وتركتني وحيدة، فبدأت الدرس بالتأمل في وجوه الصبايا الصغيرات، وجوه بريئة، ووجوه نظراتها صلفة، ووجوه جميلة بسمرتها العسلية، ووجوه خشنة مرصّعة بحب الشباب، ووجوه منفوخة مثل الأنابيب الداخلية لإطارات السيارات، ووجوه نحيلة سمراء جافة مثل قرون الخروب، ووجوه جميلة وصغيرة مثل وجوه الغزلان.

احتارت الطالبات بنظراتي، وراح بعضهن يتبسم بلؤم كابتسامة الموناليزا المحيِّرة! عرَّفتُهُن على اسمي، وأنني سأكون مدرِّسة مادة العربي لهن.. وطلبت أن تقف كل واحدة منهن بالدور، وتذكر اسمها، فقط بهدف التعرف.. رحبت البنات بي، وبدأنا الدرس.....

XXXXX

نعيش هنا مع الرجل الطيب)أبو مهيوب(، الذي يحمينا من عيون الصقور والجوارح، ويطبخ لنا المتوفر من الطعام، ولولا وجود صديقة عمري ماجدة معي، لمتُّ كَمَداً خلال سنة واحدة من عملي في هذه الولاية، المشكلة هنا ألا أحد يهتم بك كإنسانة، أو بأفكارك، أو يهتم بشكلك، أو حتى بمستوى تعليمك، فأنتَ تدخلين الصف.. قيام.. جلوس. ويبدأ الدرس.... ولكنني أنا هاوية رسم، وأحب الفن، وكانت حصة الرسم في المعهد مع الأستاذ فكري المصري هي أحب الساعات إلي.. كنت أستمتع بمسك الفرشاة، وأتعلم كيف أمزج زيت التربنتين مع زيوت أخرى كانت سرّ صنعة الأستاذ فكري...كان يقول لنا: إن رسوم الفراعنة بقيت حتى اليوم كما هي، ذلك لأن ألوانهم الممزوجة كانت عبارة عن خلطة سرية سحرية، مثل خلطة الكولا السرية هذه الأيام، والتي لا نعرفها نحن المستهلكون.

حاولت أن أبرز مهاراتي في الرسم، وأنا أشرح درس العربي، فأرسم للطالبات صورة من رواية)سرايا بنت الغول(خُرافية الأديب الحيفاوي إميل حبيبي، إذ يبحث عنها ابن عمها في الغابة المخيفة، ويناديها من أسفل القلعة قائلاً :

- يا سرايا ، يا بنت الغول.. دلّي لي شعرك لاطول....فتمسك سرايا جديلة شعرها الطويلة، وتدليها من شباك القلعة العالي لابن عمها المتلهف للُقياها ، وتخليصها من براثن الغول الذي كان قد اختطفها ، واحتجزها هناك، فيتسلّق ابن عمها سور القلعة بجديلتها ، ويدخل غرفة نومها ، ويخلصها من الغول..(!

كنت أرسم سرايا وهي تدلي جديلتها لابن عمها ، وأنا أشرح للطالبات مخالفتي مقولة) :الكلمة كانت أولاً(، بالقول لهن) :الرسم كان أولاً(، فقبل أن يعرف الإنسان الأول)الكلمة(، عبّر عن شعوره بالرسم، فحفر رسومات رائعة على صخور المغارات والكهوف التي كان يعيش فيها ، أو يعتبرها متحفاً أوّلياً لفنونه، تُعبِّر عن أفكاره، وبذلك أستطيع أن أقول إن)الرسم هو أساس الفنون(، وأساس التعبير عن الذات.. ولهذا اشتهرت رسومات الفراعنة - والتي كان معظمها في كهوف قبور الفراعنة والموتى- وذاع صيتها أكثر من روايات جبران ونجيب محفوظ وغسان كنفاني وعبد الرحمن منيف وحنا مينا والطاهر بن جلّون الرائعة. وقديماً قالوا: الرقص هو أصل الفنون، حيث بدأ الإنسان الأول بالتعبير عن نفسه بالاهتزاز، ثم الرقص، وهذا هو أساس الحركة الفنية المسرحية، طبعاً أنتن ستعجبن بالرقص، لأن أفضل متعة جماعية لدى النساء في أعراسهن وأفراحهن واجتماعاتهن وحفلاتهن، بعد الأكل، هي ممارسة الرقص، ولكنني ومع ذلك، أعتقد أن الرسم هو أصل الفنون، وأجمل الفنون يا بنات.

ولكن إحدى الطالبات استأذنت ووقفت، وحكّت أنفها بإصبعها الشاهد،

ثم قالت لي:

– هذا حرام يا أستاذة! الرسم حرام، والتصوير حرام، والنحت حرام..! يجب عليك أن تسحبي الروح من الصورة، هذا إذا اضطررت للرسم، والأجدى والأحلّ لك، ألا ترسمي قطعياً! سقطت الطبشورة من يدي، فقلت لها:

– وكيف أسحب الروح منها، وهل الروح مثل الدسم في الحليب أو الجبن، كي تسحب منه عند التصنيع؟ فأجابت بتكاسل:

– تضعين فاصلاً، أو فراغاً بين الرأس والجسد، وكأن الحياة مقطوعة، أو ترسمين الرأس بدون جسد، أو ألا ترسمي إطلاقاً، فإن الشيطان يتبدى لنا في ثياب الرسومات والتماثيل والأصنام! فقلت لها:

– التماثيل تختلف عن الأصنام، فلقد حكم عمرو بن العاص مصر في عهد عمر بن الخطاب وما بعده، وكانت مملأى بالتماثيل وبأبي الهول العظيم، ولكن المسلمين لم يهدموا تمثالاً واحداً، ولم يجرحوا أو يكشطوا رسوماً أو لوحات فنية، فبقيت محفوظة خمسة عشر قرناً إسلامياً حتى الآن! وأما الأصنام التي نحتت بقصد العبادة، فهي مُحرّمة، ولكن التماثيل هي نوع من الإبداع والتعبير عن النفس، وتخليد الأفكار والجماليات عبر التاريخ!

xxxxx

في كليّة الشاطئ، كنا نحتشد كل سنة لمسابقة في الرسم، وكل واحدة تأتي بلوحتها، فهذه تقلد لوحات الفنان إسماعيل شموط، وتلك معجبة ببيكاسو، وهذه تتفلسف برسوماتها التكعيبية، وتلك بالتجريدية، وغيرها

بالتشكيلية، ووالله كنا كلنا لا نفهم من هذه المذاهب شيئاً، سوى عناوينها، ولكنها كانت أياماً حلوة، وحركة مثل خلية النحل، ومعلم الرسم؛ الأستاذ فكري المصري، الجاد في حركته هنا وهناك، ينقل اللوحات، ويشدد على الانضباط والدقة في الرسم، وكيفية تحضير إطار اللوحة من الخشب الأبيض، وشد قماش الرسم عليها، قماش خاص، كان يشتريه من)تاجر شنطة(، يجلب هذه الأقمشة من مصر، ونقل لنا ذات مرّة قول التاجر : المصريون هم أول من ابتدع الأقمشة المقواة، وأقمشة لف المومياوات التي ما تزال بقوّتها حتى يومنا هذا، ولذلك فهو لا يشتري الأقمشة إلا من مصر.. اليوم يشتري الفنانون المصريون أقمشة لوحاتهم الزيتية من بلاد برّة، القطن المصري العظيم صار يُستورَد من بلاد برّة....)كل افرنجي برنجي.. والحاجات المُصطوردة تجنن..(! كان الأستاذ فكري يضع)مشروع اللوحة القماش(على حامل خاص بها، استعداداً للرسم، ثم يضع كتل الألوان على لوحة خاصة، يحملها بيده، وأحياناً يمزج بفرشاته لونين أو ثلاثة، ليُكوِّن لوناً رابعاً، ويخفف الألوان بزيت التربنتين المخلوط، الذي كانت تخنقنا رائحته... وأحياناً يمزج ألوانه بحكايات عن سيرة حياة فنانين وقصص متعلقة بأعمالهم، ولا زلت أذكر حكايته إذ التقى ذات يوم مع الفنان إسماعيل شَمّوط، وكان شموط يومها حزيناً لدخول الحاكم العسكري على بلدية نابلس وإصدار أوامره باعتقال لوحاته المعلقة على جدران قاعة البلدية، وإطلاق النيران على لوحتين كبيرتين، إحداهما تسمى)ربيع فلسطين(والثانية اسمها)النكبة(، كانتا في مكتب جامعة الدول العربية في القدس إثر احتلالها عام ١٩٦٧، وهذه الحرب ضد اللوحات الفنية الفلسطينية، تؤكد خوف المحتلين من الفن الفلسطيني... وكان يقول لنا: أكّدن يا بنات على اللون، فلقد حارب المحتلون اللون الفلسطيني، وسجنوا الفنان فتحي الغبن، من غزة، بسبب استخدامه ألوان العلم الفلسطيني في معرضه...حتى ألوان حياتنا يحاربونها، ويفرضون علينا ألوانهم المرعبة..

كان الأستاذ فكري يفكر بالفن والفنانين، وكنا نحن نفكر ونعمل مقالب للفنان الرزين، فكتبت له الملعونة رنا، على ورقة؛ عبارة غزل) :أحبك يا فنان الشعب العظيم(ولكنها لم تكتب اسمها، ولم تقصد من وراء تلك العبارة سوى الزعرنة، وإدخال فنانها العظيم في متاهات، تخرجه عن الدرس.. كنا نراقبه عندما شاهد تلك الورقة البيضاء، الموضوعة على كرسيه الخاص، وكيف ارتبك وهو يقرؤها بصمت، ثم ضغطها بأصابع يده، ورماها أمامنا في سلة المهملات، كي يُري كاتبتها أن الصف ليس مكاناً للدلع..! فكبتنا ضحكاتنا التي لو فلتت من أفواهنا، لملأت المدرسة ضجيجاً، وجعلت مديرة المعهد تفيق من سباتها، وتهرع باحثةً عن المشكلة وسببها...! وغالباً ما كان يأتي الحل عندها بالطرد، يوماً واحداً، أو يومين، ثم ثلاثة، يليها الطرد النهائي الذي كانت تهدِّد به، ولكنها لم تكن تُنفِّذ تهديداتها، رفقاً بالقوارير، كما أعتقد. !

xxxxx

أجلس هنا ساهمة مفكرة بهذا الجو الخانق، والتعليم الممنوع من الصرف، والتربية المطلوب أن نتربى بها ونتعلمها، وليس أن نعلمها للبنات.. ورجال الدين الذين يتدخلون في ما ليس من حقهم..

- غطِّي يا حرمة.. !

- انستري يا حرمة. !

- الحق الصلاة.

- اقفل المحل للصلاة..!

هكذا كان الرجال الآمرون الناهون يجوبون الطرقات، وكل منهم يحمل عصاً رفيعة بيده اليمنى، ليلسع بها من يتنفس في وجهه، أو يعارضه، أو من ينكشف شيء من وجهها، فيضربها رجل الدين هذا، ليردعها هي ومثيلاتها، فلا يفلت من إحداهن إزار،

أو حجاب ،

أو غطاء ،

أو ستار ،

أو دثار ،

أو خمار ،

أو إطار ،

ولإجبار اللؤلؤة أن تبقى داخل المحار.. !

كنت أسأل نفسي قائلة: لماذا يؤكدون على الصلاة، ولا يذكرون الزكاة، أو الصدقات مثلاً، مع العلم أن القرآن الكريم يربط دائماً الصلاة بالزكاة، في قوله تعالى) :الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة(فلماذا يركِّزون على الصلاة، ويمتنعون عن الزكاة، حيث نقرأ في كتابه الحكيم).....ويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون...(والويل هنا لم يأت للتجار أو الصناع أو الزراع أو السياح، بل جاء الويل للمصلين، الذين)يراؤون ويمنعون الماعون(، أي يتظاهرون بالشيء، ويمنعون الصدقة أو الزكاة، أو الوصال المالي مع الفقراء. فلماذا يؤكد رجال الدين على الصلاة، وينسون الزكاة والصدقات التي هي عماد الدين الإسلامي، وهي الفارق المميز بين الإسلام وبين الأديان الأخرى؟ لماذا لا يقول لك رجل دين :

تحرك.. ادفع الزكاة.. !

أسرع..! تصدّق على الفقراء... !

قم.. وتصدّق ولو بشق تمرة.. !

لماذا الأمر فقط بالصلاة، وجرى تناسي أركان الإسلام الخمسة من الأمر؟ بل على العكس تماماً، فهم الآن يمتعون الزكاة، خوفاً من أن تذهب لمن يقاومون احتلال أراضيهم، وللمهدمة بيوتهم، ولأيتام وأرامل الشهداء !

xxxxx

في إحدى خلوات تغريد المُعذَّبة، وصوت فيروز يتسرب رقيقاً شفّافاً من بعيد:

)ما في حدا..

لا تندهي ما في حدا...

عتمة وطريق...

وطير طاير عالهدا...

مع مين بدك ترجعي بعتم الطريق...

لا شاعلة نارُن..

ولا عندك رفيق...(مر طيف جهاد على مخيلتها، فبكت بحرقة، وهي تكتب في دفتر مذكراتها ما يلي:

في الطريق إلى بيتنا كل يوم، كنت أمرُّ أمام محددتك يا جهاد، كان يربكني مرآك، وأنت تفلُّ الحديد أمام دكانك ببنيتك القوية، وشبابك الذي يبدو أنه يُطوِّع الحديد، كنت ألاحظ الأشياء تسقط من بين يديك، ثم تقف

حنوناً رقيقاً تائهاً، ترمقني بنظراتك بكل أدب وخشوع، فأبادرك بالسلام، وأستقبل ردك الخاشع العظيم، فأضع رأسي في الأرض، وأمضي في طريقي.. لم يكن بيننا أية أحاديث خارجة عن المألوف، ولم تُبد أية إشارة نحوي، سوى إشعاري بهيبتك واحترامك ومحبتك.. ولكنك استطَعت غزونا في عقر بيتنا، وازدادت محبتي لك بعدما فصّلت باب حديد الحماية لدكاننا، كنت تحتل بيتنا بحضورك المدهش، كانت أصوات طرقك للحديد، وقَصِّه وتلحيمه، أمتع إلي من صوت الموسيقى الصاخبة، كانت أصوات حديدك تريحني، تدلّك لي جسدي، وتهزهزه هزهزات تجعلني أتخدّر، وقد يكون شعوري بالخدر في حضورك، هو نوع من الاطمئنان بأنك رجل تستطيع أن تمنحني الثقة بالمستقبل والأمان، حيث لا أمان تحت الاحتلال الذي يقتلنا بسلامه كل صباح، فلا يهدأ ولا يشبع، إلا بعد أن يأخذ معه ذبيحة، أو ثلاث ذبائح من لحم الشهداء.. كنت أنت الأمان، وليست أبوابك فقط هي أبواب الأمان.. كنت أحس أنك رصيدي الجمالي، ورصيدي البنكي، ورصيدي النفسي والاجتماعي.. كنت أنظر إلى عينيك، وكنت دائماً تنظر إلى شغلك، وتركز في عملك، خاصة وأنت في بيتنا.. كانت نظرتك الأولى فقط تلتقي بنظراتي الشغوفة نحوك.. وكأنك تؤمن بأن النظرة الأولى حلال، والنظرة الثانية حرام.. كنت أراقب أبي وهو يحاورك في أمور كثيرة، مثل قضايا الأسرة، والوطن، والشهداء، والغلاء، ولا أتدخل أنا إلا عندما يتطلب الأمر شربة ماء، أو فنجان قهوة، فأحضرهما لك ولأبي على أجمل طبق في خزانة مطبخنا.... قهوة سكّرها خفيف)عالريحة(اهتممت لأول مرّة بتحضيرها وتحريكها، أحسست أن حرارتها مثل حرارة قلبي.. وعندما قدّمتها لك وذُقتَها، قلت لي إنك تشربها سكر زيادة. ! فأعدتها، ووضعت فيها ملعقتين صغيرتين من السكّر، وحركتها، وقدمتها لك، فقلت لي: لم أذق في حياتي قهوة طعمها عسل، إلا من يديك الجميلتين يا تغريد.

– صحة وعافية، وشكراً لإطرائك، كلك ذوق.. !

كنت أعرف أن الرجال يُفَضِّلون القهوة)عالريحة(، ولكنني تفهّمت طلبك يا جهاد، ذلك لأنك تحرق سعرات حرارية كثيرة وأنت تَفُلُّ الحديد بعزيمة الحديد، ولذلك ترغب في سكر زيادة.. هؤلاء الذين يشربونها)عالريحة(، أناس)عواطلية(، قاعدون بلا عمل، أو عجائز لا يريدون زيادة السكر في دمهم، وأما أنت فتطويع حديدك يحرق كل السكريات والدهون.

أتذكرك وأنا طفلة صغيرة، كنت ألعب مع أختك العفريتة ماجدة، وأتخانق معها على حبة مشمش، أو مسطرة، أو حبة حلوى ملبّس، مجرد مناكفة من أجل إثبات الذات، أو تحقيق المتعة، أو صرف الطاقات الطفولية، أو قهر الكبت الكامن في نفوسنا نحن الطفلات، وبسبب الاحتلال الجاثم على حلوقنا، والمتربص فينا، والباحث عن عصفورة يُجرِّب صيدها بطلقة عوزي، أو رشاش مدفع.. كنتَ صبياً لطيفاً ودوداً بسيطاً قليل الكلام، لم تغازلني ولو مرة واحدة، كان أبوك كلما شاهدك تقترب لتلعب أو تتحدث معنا، يناديك لتعمل معه في المحددة، فتذهب ورأسك في الأرض، خجلاً من نفسك لتلتحق بالعمل بين يديه.. لم تكن لي علاقة وطيدة معك.

أثناء تطويعك لباب حديد دكاننا، اعتقدت أنك قَد قُددتَ من حديد صلب، ولكنني بالقرب منك، شعرت كم أنت ليِّن ومطواع ومؤدب ومتعلم ومثقف..! أردتَ يومها أن تشعرني أنك خريج كلّية، ولا يعني صدأ الحديد الذي يوشِّح ملابسك أنك غير متعلم..! شرحتَ لي يومها قصة أشغالك الشاقة المؤبدة، لتشعرني بالتعاطف معك. ولكن احترامي وتقديري وحبي لك منذ طفولتي كان منساباً في شراييني... ! أتذكُرُ يوم وقعتُ من فوق سور عيادة الوكالة، وكنتُ طفلةً، وأنت شاب صغير يومها، فحملتني بحضنك، وأدخلتني إلى عيادة الدكتور، فمسحت لي المرضة جرح ركبتي، ثم دهنته بالميكروكروم الأحمر، وألصقت فوقه رباطاً، ومن هناك حملتَني،

وقبّلتَ ركبتي المجروحة، وقلت لي: خلص طابت، وأوصلتني إلى بيتنا... ! كنتَ رقيقاً حنوناً قوياً دافئاً معي يا جهاد، ومن يومها ارتبطت بك، وبجدارك العالي الذي لن أقع من فوقه بعد الآن.. ولكن كما ترى، فها أنا الآن بعيدة عنك، وتحت السور جرف سحيق، فإذا ما دُختُ وسقطت فيه، فلا عيادة هنا، ولا ذراعك هنا لتحملني، ولسوف أفقد توازني، وأنتهي يا جهاد!

وأثناء تركيب باب الحديد، قلتَ لأبي إنك اشتغلت في)محددة العودة(تحت رعاية أبيك رحمه الله، والتي كان اسمها تأكيداً على حق العودة إلى قريتكم الفالوجة. فقال لك أبي :

- أنتم أهل الفالوجة، رجال مناضلون. فقلت له:

- كيف عرفت ؟

- هذه القرية التي حوصر فيها الضابط جمال عبد الناصر، وهو يحارب المحتلين في عام ثمانية وأربعين، ويومها اكتشف الأسلحة الفاسدة التي أرسله بها الملك فاروق، كشف الخيانة، فعاد إلى بلاده ليقود ثورة ٢٣ يوليو المجيدة !

- وأنتم من أي بلد يا عمي أبو غازي؟

- ونحن أيضاً فلاحون من قرية سلمة قضاء يافا.

- معنى ذلك إننا أقارب !

- أكيد نحن أقارب بفلسطين، وكيف لا نكون أقارب، والغريب للغريب نسيب؟

وعندما خرج أبي، وأتيتك بكأس الشاي - سكر زيادة - شكرتني، وقلت لي:

– هل تقرأين الشعر يا تغريد؟

– لماذا الشعر بالذات، ولم تسألني عن الرسم والفنون الأخرى..؟

– ذلك لأن اسمك تغريد، وماذا تغرد العصافير، غير الشعر الجميل؟

– أخجلتني! كنت أتخيلك لا تعرف ولا تتعامل إلا مع الحديد... ! فإذا بك شاعري ورومانسي أيضاً..! أنا أحب أشعار نزار قباني: خاصة آخر قصيدة لـه :

أطفال غزة علمونا........

– هذا أنت شاعرية، ووطنية أيضاً....!

– الوطنية ضرورة حياة، نشربها بالرضاعة.. وهي واجب، وليست كماليات..! وأنت لمن تقرأ ؟

– أقرأ كثيراً للشاعر هارون هاشم رشيد؛ صاحب قصيدة)سنرجع يوماً إلى حينا.. التي تغنيها فيروز(، وأحفظ كثيراً من قصائد نزار، وتعجبني أشعار توفيق زيّاد؛ وأخص منها أغاني الانتفاضة :

أُنَاديكُمْ
أُشدُّ عَلَى أَيَادِيكُم..
أُبُوسُ الأَرْضَ تَحْتَ نِعَالِكُم
وَأَقُولُ: أَفْديكُم
وَأُهْدِيكُم ضِيَا عَيْنِي
وَدِفْءَ القَلْبِ أُعْطِيكُم
فَمَأْسَاتِي التي أَحْيَا

نَصِيبِي مِنْ مَآسِيكُم.
أُنَادِيكُمْ
أَشدُّ عَلَى أَيَادِيكُم..
أَنَا مَا هُنْتُ في وَطَنِي وَلا صَغَّرْتُ أَكْتَافِي
وَقَفْتُ بِوَجْهِ ظُلاَّمِي
يَتِيماً، عَارِياً، حَافِي
حَمَلْتُ دَمِي عَلَى كَفِّي
وَمَا نَكَّسْتُ أَعْلامِي
وَصُنْتُ العُشْبَ فَوْقَ قُبُورِ أَسْلاَفِي
أُنَادِيكُمْ... أَشدُّ عَلَى أَيَادِيكُم !!

فقلت لك يومها: الله..! ما هذا الشعر الرائع؟ وكيف تحفظه هكذا عن ظهر قلب؟ تعرف يا جهاد؟ قد يكون توفيق زيّاد، هو أعظم مُعَبِّر عن أحاسيس الشعب الفلسطيني، من أقصاه إلى أقصاه..! فقلت يومها:

– ولكنه لم يأخذ فرصته مثل غيره من شعراء فلسطين، حيث توفي في حادث سير مُروِّع على طريق الناصرة عام ١٩٩٤...

لم أكمل حديثي معك إذ نادتني أمي، فاستأذنتك ودخلت.

تركتك ودخلت بيتنا، ومن يومها، صرت أَمُرُّ بطريقي أمام محددتك، فأجرؤ على قول مرحباً، لا أخجل من قولها لك وأنا غادية، أو عائدة في الطريق.. وهكذا توثّقت بيننا محبة، طبخناها على نار هادئة منذ الطفولة، مما جعل والدتك تتقدم للتشاور مع أمي حول موضوع خطبتك لي، والتي بدورها شاورتني، فتبسمت أمامها وعيناي في الأرض خجلاً، ففهمَت، ثم تشاورت مع أبي، واتفقا على صهر العائلتين في بوتقة واحدة، خاصة وأن

ماجدة زميلتي وصديقة دربي، وأن والدي كان قد خطب ماجدة وهي صغيرة لأخي غازي الذي كبر وشبّ عن الطوق، وغادر ليدرس التوجيهية في بلاد الأمريكان،)قال على برنامج التبادل الثقافي قال (! ولا أدري ما هو التبادل الثقافي بيننا وبين الأمريكان، فعندما يتم مثلاً عندنا الزواج بالتبادل، فإن هذا يُزوِّج أخته لصاحبه، أو ابن عمه، فيقوم صاحبه أو ابن عمه بتزويجه أخته، بديلة لأخت صاحبه، فتصير العروسان بديلتين، ولكن ما هو البديل الثقافي بين أمريكا وفلسطين، غير تبادل الأدوار بين.....، ها هو غازي قد ذهب ولم يعد، وفي كل سنة يقول: سأعود في العام القادم، ولكن دخول الحمّام ليس.... يبدو أن هذا المحترم غازي خرج من الحمّام، من الجهة الأخرى، ويبدو أن الحمّام له باب يفتح على بلاد أخرى، فدخل الولد واختفى هناك !

أعراس فوق المقابر!

لم تتعرف ماجدة على خطيبها غازي وهو شاب بالغ، أو تتناقش معه في أمور الدنيا، فهي تتذكره كطيف شارد، أو كلمع البرق، يمر من أمامها فلا تكاد تتملى منه حتى يختفي.. وكثيراً ما يخطر على بالها، بينما هي تجلي وتنظف أطباق الطعام في المطبخ، أو تغسل الملابس، أو تسير على الطريق من المدرسة إلى البيت، أو العكس، فتندب حظها العاثر، وهي تتذكر الذي مضى.!

لماذا ابتعدت عني يا غازي؟ ولماذا خطبوني لك، ما داموا سيرسلونك إلى أمريكا؟ ولماذا وافقت على خطبتي، إذا كنت ترغب بالسفر؟ ولماذا لا تكلمني بالهاتف، أو ترسل لي رسالة تقول فيها: أحبك يا ماجدة، أو أكرهك يا ماجدة، أو خلصيني منك يا زفتة..! أو انتظريني فأنا قادم لآخذك معي، أو لأعود وأستقر في ثناياك، أو أي شيء...! قل أي شيء يا غازي، لقد قتلتني عدة مرات؛ مرة ببعادك، ومرة بتجاهلك، ومرة بحجزك لي، وسد الطريق أمام مستقبلي، ومرة بعدم إرسالك رسالة لي تشرح موقفك، ومرّة ومرّة ومرّة..! أنت تقتلني كل يوم يا غازي، وها أنا مدفونة في رمال الصحراء، وأعيش في القفار، وأتمرغ في انفعالاتي حيناً مع مديرة المدرسة، وأحياناً مع معلماتها أو طالباتها، مرّة بالصراخ في وجوههن، ومرّة بالتذلل، ومرّة بالاستسلام لمصيري. وأحياناً أجلس بجوار إحداهن، أو في الصف المدرسي، وأنسى نفسي، فتفيقني الأخريات:

- أفيقي يا ماجدة! أين سرحت يا غزال البر؟ الذي أخذ قلبك، يتهنى به! فهل أنت مُتهنٍّ بقلبي، أم أنك لا تدري أين أنا، يا قاتلي وأنت لا تدري!

وفي غرفتها، لم تجد ماجدة من يتغزل بها، أو من يرسم ملامح شخصيتها ويعكس نظرة الناس إليها سوى صديقتها تغريد.. ففي إحدى الليالي التي كانتا تجلسان فيها سوية، بكت ماجدة أمامها بحرقة لاختفاء غازي، وتركه لها تائهة حائرة، لا تعرف لها مستقبلاً.

- ترى أين هو أخوك غازي يا تغريد؟ وهل أنهى تعليمه المدرسي، فدخل الجامعة، أم... ؟ فأجابتها تغريد خجلة من أخبار أخيها :

- غازي نجح، واجتاز امتحان الثانوية بتقدير ممتاز، وحاول الالتحاق بالجامعة، فرفضوا قبوله، بحجة أن بعثته لم تتضمن دراسة جامعية، وكان لا بد من عودته، ولكنه وبصراحة تشبث بالعيش هناك، وهو يبحث عن وسيلة للبقاء القانوني، ويقول: إنني أخجل من الحديث مع ماجدة، ولست حُرّ التصرف كما تتخيل، ولكنني سأحاول أن أساعدها بشتى السبل.. ولكنه لم يوضح أية تفاصيل حول نوع المساعدة! فبكت ماجدة وهي تقول :

- يساعدني؟ أنا لا أنتظر مساعدة من أحد! أنا من حقي أن أعيش كما أريد، ولست عالة على أحد، فها أنت ترينني أعيش في الصحاري وآكل لحم الضب، كي أؤكد قدرتي على البقاء، ورغم كل الأعداء الذين يحاولون قتل البقاء في أرواحنا نحن الفلسطينيات، فنحن نقاوم الفناء، وأنا لست محتاجة لعطف أخيك المتأمرك غازي، قولي له إنني أريد أن أعرف موقفه مني، فأنا لست كارهة له، ولكنني أريد توضيح الصورة، فهل سيعود ويستقر في فلسطين، أم سيبقى هناك؟ فأعرف رأسي من رجليّ هنا، أنا المشبوكة معه! قولي له أن يوضح موقفه!

تأثرت تغريد ببكاء ماجدة، وشعرت بنفسها، وكأنها مكانها. ماذا لو اختفى جهاد من حياتها، لا سمح الله؟ وكيف تتصرف بدونه؟ أو ماذا سيحصل لو.....؟ أسئلة كثيرة لم تستطع تغريد الإجابة عنها، وكانت ترى وتحس، وتتعاطف مع كل أحاسيس ماجدة، ولكن ما باليد حيلة!

كانتا تتباعدان بسوء تفاهم حيناً، ثم تجبران على استعادة المحبة بينهما، فالأرواح جنود مجندة، وماجدة وتغريد روحان منسجمتان مع بعضهما، ولا تستطيعان فراق بعضهما، ولذلك فسرعان ما تتقاربان، وتعود ينابيع المياه إلى جداولها، وعندما يعز عليهما الكلام، تتحدثان في أيِّ شيء.

وذات يوم شعرت ماجدة بوحدتها، وبألا أحد من الناس يحدثها عن نفسها، أو يطري جمالها ببراءة، أو يسألها عن صحتها، وهل زادت سمنتها، أم أنها ما تزال ملفوفة ومتناسقة الجسد، وحلوة الشكل؟ فاضطرت أن تسأل تغريد:

- كيف ترين شكلي يا تغريد؟ فقالت لها تغريد مازحة :

- شكلك غلط! ثم خافت أن تزعل من مزاحها، فالتفتت إليها قائلة: ما له شكلك يا بنت؟ مثل القمر، ما شاء الله !

- أقصد كيف يراني الناس من بعيد ؟

- لو نظر إليك عاشق بعين ناقدة، لقال لك إن جسدك باهر الجمال، فأنت طافحة النهدين، مربربة الردفين، ضامرة البطن، متناسقة القد، بشرتك سمراء، حنطية اللون، ونظراتك ساحرة الابتسامة... ولو وصفتك أنا بيني وبينك، لقلت إنك بريئة التصرفات، كثيرة الفلسفة والكلام الفارغ المضحك والمحزن، تقولين كل ما لديك، بلا لف أو دوران، وأنك أكثر مني جرأة، وخفّة دم، واندفاعاً في التعبير عن الذات، بعكسي أنا الخجول، والتي لا تجعل لأفكارها لساناً، وتكتفي بالنظرة الحرّى لتعبر عن مكنوناتها وأحاسيسها، مهما كان نوعها. ويبدو أن لونك الحنطي يا ماجدة، وامتلاء جسدك بغير إفاضة، وحركتك الدؤوب، تركت تأثيراً كبيراً على شخصيتك القيادية المبادرة، ولكنك عندما تضعين الملاية السوداء على جسدك، والستائر على وجهك، تصيرين مثل الدبّة السوداء، منظرك مضحك..... قالت تغريد

ذلك، وهي تضحك ساخرة. فأجابتها ماجدة متفلسفة :

- ما دام رجال الدين يجبرون النساء على ارتداء الحجاب، ويمنعون الرجال من مشاهدتهن، وما دام كيد النساء عظيماً - كما يقولون - والمرأة كائن حساس، وإحساسها النفسي ورغباتها الجنسية لا تختلف عن رغبات الرجل، وقد تفوقها، فلماذا يحق للمرأة أن تشاهد الرجال من وراء حجابها وبرقعها؛ في الشوارع والأماكن العامة، وتستمتع بمشاهدة الوسيمين منهم، وتحقق لها من تلك المشاهدة رغبة إنسانية، بينما يمنع الرجال من مشاهدة أوجه النساء المُغَلّفات الوجوه ؟ وإذا كان طواف المرأة حول الكعبة، يوجب عليها إبراز وجهها حين الطواف، وأمام الله، وأمة لا إله إلا الله؛ فكيف تُمنع المرأة من إبراز وجهها في الشارع العام، والذي لا يمكن أن يكون أطهر وأخشع من مواقع الكعبة المشرفة؟ لا بد أن في الأمر خللاً ما؛ فديننا يُسر، وليس عسراً لهذه الدرجة !

- ما الذي تريدين أن تصلي إليه؟ هل تريدين أن يُصدر رجال الدين مرسوماً يقضي بإلباس كل رجل حجاباً وبرقعاً وخماراً وعباءة سوداء، مساواة بالمرأة، فلا تعود النساء تراهم في الشوارع، والأماكن العامة؟ أكيد أنك قد جننت وصرت تهلوسين !

- ولم لا أفكر بحرية، وأطالب بالمساواة مع الرجل؟ فها أنا مُعلّمة، والرجل مُعلّم، وهناك مهندس كهرباء ومهندسة كهرباء، وطبيب وطبيبة وهكذا... مجرد فكرة، قابلة أو غير قابلة للتنفيذ، المهم أن أُبَقّ الحصوة، وأتنفس بحرية. وما دمنا نعيش في هذا الفراغ القاتل، فلماذا لا نتفلسف على مهلنا ؟

- أنا أؤيد المساواة مع الرجال، في الحقوق والواجبات أيضاً.

- ها نحن نقوم بأعلى الواجبات، ألسنا نشتغل في بلاد الله الواسعة،

ونحصل على رواتب، تُعيِّشُ عائلتين كبيرتين مُركّبتين فقيرتين محاصرتين ؟! ألسنا نقوم بأكثر مما يقوم به الرجال الممنوعون من العمل، وأفضل من مئات الرجال الكسالى، القاعدين في بيوتهم بلا شغل، ولا مشغلة؟ ألسنا نثبت أننا كفؤات، ونستحق الحياة ونحن نكافح، ونضع كرامتنا في جيوبنا أحياناً كثيرة، ونحن نسعى في مناكبها لنطعم أهلنا المحاصرين هناك ؟

كانتا تلتقيان داخل المطبخ الذي لا يتعدى طوله المترين، فتتحدثان في حكايات فارغة حول أمور المدرسة، ومشاكل التعليم، وشؤون وشجون كثيرة، لإشغال أوقات الفراغ، كانت ماجدة يومها تدق الثوم برائحته العجيبة، وتغريد تفرم الملوخية، والقدر بما فيه من لحم ومرق يغلي ويبقبق فوق النار، ورائحة أبخرة الطبخ المتصاعدة تزكم أنفي البنتين، وتنزل دموعهما، ولكنها تنشط حيوية الصراصير الحمراء الرابضة تحت زوايا المطبخ، حيث قالت ماجدة :

- الطالبة وزرة كانت اليوم تحوم حولي بعد خروج البنات من الفصل، وهي منفعلة، وكأن في فمها حصوة، تريد أن تَبُقّها، فسألتها عن حالها، فقالت بعد صمت وتمنُّع:

- مشاكل... مشاكل يا معلمتي! فقلت لها: فضفضي عن نفسك، إحكي لي مشكلتك، فقد أستطيع أن أساعدك في حلها! فقالت الطالبة: كان أبي يعشق امرأة غير أمي، ويأخذ راحته معها، وفي تلك الليلة التي لا أنساها أبداً فوجئت أمي بمشاهدة ممارسة زوجها الشائنة، فثارت في وجهه، ولم تتروّ، بل كشفت فضيحَته بالدليل القطعي، صرخت أمي، وجمعتنا نحن الأولاد والبنات، قائلة: تعالوا شوفوا أبوكم مع هذه المرأة الشر.... شاهدنا أبي يقف أمام أمي منكمشاً مثل دودة، وعيناه في الأرض، وخرجت المرأة مسرعة دون مشاجرة ولا عنف، فانفضح المستور، فما كان منه لاسترداد هيبته في اليوم التالي، إلا أن أحضر العشيقة علناً إلى البيت، معلناً زواجه

منها على سنة الله ورسوله، وهذا أدى إلى مشادات ومناكفات من قبل أمي، قابلها دهاء ودلع وغنج وضغط من العروس الجديدة، مما جعل الزوج يُفضِّل زوجته الجديدة في كل شيء، وهذا تبعه مشاكسة من طرفنا نحن الأولاد والبنات، فانقلبت حياة أبي جحيماً فوق رأسه ورأس زوجته الجديدة، ولكن الجديدة قاومت النكد، وحملت منه بسرعة، وولدت ولداً، عزز موقفها، وجعلها تسيطر على الموقف، فصرنا نحن أبناء وبنات المرأة القديمة، لا نحصل من أبي إلا على فتات المصاريف والحاجيات، ليس هذا فحسب، بل اختفى عطفه وحنانه علينا، وصرنا محرومين من المال والعطف والحنان، وحتى المسؤولية الأبوية جفت ينابيعها، وصار هَوَسُ أبي منصباً على ابنه الجديد. وهذا جعلني أبكي بحرقة ومرارة على حالنا الذي لا يسرُّ صديقاً.

حزنت تغريد لدى سماعها قصة طالبة ماجدة فقالت:

- مصيبة! كانت أم وزرة في مصيبة، فصارت باثنتين، لا بل ثلاث أو أربع مصائب. مصيبة الفضيحة، وحالتها النفسية، ومصيبة دخول زوجة جديدة إلى البيت، ومصيبة تدهور العلاقات الاجتماعية بين الأب من جهة، وبين أولاده القدامى، وأولاده الجدد من جهة أخرى، ومصروف كل منهم، ومتطلباته الاجتماعية والنفسية، ومدى التنافس بينهم، وحقوق الزوجة الجديدة، وحقوق أولادها وبناتها المنتظرين، وتناثر حقوق الورثة من الزوجتين بعد وفاة الأب. ومشاكل عديدة، لا حصر لها، نجمت عن تلك الغلطة التي....

وأضافت ماجدة: سألتُ وزرة: ترى كيف كان سيتصرف والدك لو كانت عشيقته متزوجة، ففضحَتها أمُّك بالجرم المشهود، فهل كان سيستطيع أن يكتب كتابه عليها، ويعتبرها مثنى وثلاث ورباع، وما ملكت يمينه؟ فقالت البنت:

- لا أعرف! ولكن كل الحق على أمي التي فضحت الطابق المستور،

بينما ربنا أمر بالستر في مثل هذه الأمور! ولهذا أمر الشرع بجلب أربعة شهود عدول في مثل تلك الإشكالات، ولم يقل أربعة شهود واكتفى، بل قال عدول ومن أين تأتين بالعدول في مثل هذه الأيام ؟ ولذلك تم التغاضي عن مثل هذه المواقف التي لو تمت ملاحقتها، لحصلت تداعيات، تدفع تداعيات أخرى، فينهار الهرم الأسري! ليت أمي لم تستخدم غباء حاستها السادسة في تلك الحادثة، وتجاهلت الموقف، فجنّبتنا كل هذه التداعيات، التي خربت بيتنا!

- ما هكذا تورَدُ الإبل يا وزرة، فلو تصرفت أمك بذكاء، وضبطت والدك بالجرم المشهود، ولم تفضحه أمام أحد، بل أبقت الفضيحة سراً بينهما، لاستطاعت أن تسيطر عليه نفسياً، وتجعله يخجل من نفسه، ولا يعود لمثل تلك الفعلة الشنيعة مرة أخرى، لكن سامحها الله!

وهنا قالت تغريد:

- وهذا ما حصل مع والدي طالبتي حصّة، التي حكت لي حكاية مقزِّزة، قالت فيها: كان والدي يجلب صاحبته إلى ديوان البيت، ويدخلها من الباب الرئيس، وهي مبرقعة، فلو شاهدها أحد من الجيران، لاعتقد أنها من حريم البيت، ولكنها ليست... والمخفي أعظم! فبعد أن يجلسها في غرفة الضيوف، أو ديوان البيت، يُبلغ والدتي أن عنده في الديوان رجل، ضيف عزيز، فتقوم بتقديم الضيافة للرجل العزيز، وبالطبع تقدم الضيافة من وراء حجاب، ذلك لأن زوجته ممنوعة من رؤية الرجال الضيوف، وهكذا يختلي والدي بعشيقته في بيتنا، وتخدم والدتي عشيقة أبي وهي مرتبكة بأولويات ما تقدم، ومتفانية في تقديم الأفضل. ولكن المصيبة تفجرت ذات مرة، عندما سمعت والدتي صوت أنثى تغنج وتتأوه في غرفة الضيوف، فخرجت على كل الأعراف والقوانين، وفتحت باب غرفة الضيوف، فأمسكت بوالدي متلبساً بالجرم المشهود، ولكن ماذا كانت النتيجة في رأيك ؟

- أكيد أن الزوج ضرب زوجته، واعترض على دخولها غرفة الضيوف، ما دام معه ضيوف)حلوين(في الغرفة..! فقالت تغريد مناكفة رفيقتها ماجدة :

- أكيد إنك غبية، ولا تفهمين في العادات، ولا في التقاليد، ولا في الخروج عن المألوف، أو الشذوذ الذي مارسه الزوج الخائن !

- بلا فلسفة أو طول لسان، هات ما عندك يا باحثتي الاجتماعية الفاشلة !

- الذي حصل، أن الزوجة كانت ذكية، فسترت على الخائن، ومنذ ذلك اليوم، صارت أم حصّة تستقوي عليه، وتشتمه إذا ما قام بعمل مشين، أو عمل مهني أو اجتماعي فاشل، وتهينه إذا قصّر في إحضار طلب من طلباتها، وكان هو يتنازل ويتراجع، ولكن هل تعتقدين أنه استقام ؟

- طبعاً لن يستقيم مثل هؤلاء المنحرفين، فلقد قال والدي - رحمه الله - ذات مرّة)ذَنَب الكلب يبقى أعوج، حتى لو وضعته في الجبص دهراً، ثم فككت الجبص، فإنه يعود أعوج!(

- فعلاً لم يستقم النذل.. قالت لي حصّة - على ذمتها - إنه اشترك مع أصحاب له في الرذيلة، وذلك باستئجار بيت في مكان مطرف، وراحوا يتنادمون فيه، ويمارسون الرذيلة على نطاق أوسع. فسألتُها مستغربة ما أسمع :

- ولكن الجيران والعادات والتقاليد تمنع دخول امرأة غريبة عليهم، فكيف يتصرفون ؟

- العملية سهلة يا معلمتي، فابن عمي فرج - وهو طالب جامعي، يدرس علم النفس الاجتماعي - حكى لي كل شيء حول كيفية التصرف في مثل هذه الأمور، وقال لي: إن بعض الشباب الطائشين يذهبون أحياناً إلى

الأسواق الشعبية؛ حيث تباع الملابس والحلي ومستلزمات العائلات، وحيث يختلط الحابل بالنابل، والرجال بالنساء، كل يشتري حاجته، وفي الزحمة، يقترب أحدهم من امرأة يراها وحيدة، فيسألها :

- أريد أن أشتري قميص نوم لأختي، وهي بحجمك، فهل حجم هذا القميص الداخلي مناسب لها؟ تنظر المرأة الشابة إليه.. وكثير منهن يرفضن الإجابة من أصلها، وبعضهن يتجاهلنه، ولعل واحدة من النساء تستجيب لسؤاله، وتنظر في أمر الثوب، وتقول له: إنه مناسب، أو غير مناسب. فإذا تجاوبت معه، يتابعها بالأسئلة :

- ولكن هل اللون مناسب؟ هل الطول بقدر طولك ؟ يا زين طولك..! والله لو عندي غزالة من طولك، لتركت الدنيا كلها، وعشت معها، ولو كوخ في البر، نأكل ورق الشجر، ونشرب من الندى! فإذا ضحكت المرأة، فإنه يتابع حواره معها :

- أنت متزوجة، أم عزباء ؟

- هل تشتغلين، أم ربة بيت؟

- ولكن كيف تمشي كل هذا الحلاوة على الأرض ؟

- تسمحين لي ألفك في حرير، كي لا تلمسك ذرات الغبار ؟

- هل معك سيارة؟

- هل توافقين على أن أوصلك إلى أي مكان تريدين ؟

- هل تريدين أن نطلع مشوار، نزهة قصيرة؟

- سيارتي جاهزة، تحت أمرك! اعتبريني سائقك الفلبيني الخاص..!

تضحك المرأة، فيتابع عروضه المغرية:

- كلها ساعة أو ساعتان، أو ثلاث، كما تريدين.

- تريدين أن أوصلك إلى بيت أهلك دون مشوار؟ أنا موافق.! أنت فقط تأمرين !

ومن كل السوق يلتقط له واحدة من النساء، قد تكون مطلقة، أو أن أهلها ذاهبون في مهمة خارج البيت، أو أن زوجها مشغول بأعمال مهنية أو تجارية كثيرة تمنعه من معايشة زوجته، فيتركها تذهب وحدها إلى السوق، بينما هي تتجه إلى مكان آخر، إذا كانت الطريق سالكة! وقد تكون امرأة تشاهد زوجها يخونها، وها هي الفرصة سانحة لترد له الصاع صاعين في الخيانة، وستين خيانة، وقد تكون مراهقة ومكبوتة ولا تعرف، وتريد أن تتعرف على حياة الشباب، وقد تكون مريضة نفسياً، وتعاني من الكبت والقهر، أو أن عندها اكتئاباً نفسياً، فتحاول أن تبدده بالخروج عن المألوف، ومن غير المألوف أن تخرج مع شاب لا تعرفه، ولا تعرف إلى أين ستذهب معه، ما دام هو الذي يقود سيارته، إلى أين. حتى لو كانت الطريق إلى جهنم الحمراء... ! وقد يكون السبب هو شعور المرأة بحقها في الحرية، وأن الله خلقها على شكل أنثى، لتلتقي بشخص على هيئة ذكر.. فالقطب السالب ينجذب إلى القطب الموجب، وهذه عوامل الطبيعة، وسنّة الحياة، وقد تكون فتاة أو امرأة تسعى للتعرف على شاب بهدف الزواج، وتقبل مغامرة الخروج مع شاب لم تعرفه من قبل، إذ إنّ مجتمعنا لا يعطي الفرص، فيتم التعارف هكذا مع احتمال المخاطرة الشديدة، حيث يمكن أن يحصل في مثل هذه اللقاءات عنف، أو اختراق الحجاب الحاجز! وقد تكون واحدة تتعاطى المخدرات، فبلعت في السوق حبة، أدارت تلافيف رأسها، فأمالته باتجاه منحرف، فوافقت على الذهاب معه، ولكن...

كانت ماجدة تسمع كل هذه المعلومات وهي فاغرة فاها، وهنا خرجت عن صمتها وسألت تغريد قائلة :

- ولكن لم تقولي لي، أو لم تقل لك طالبتك الداهية، كيف تدخل المرأة

بيت الرجال دون أن يلاحظها الجيران أو المعارف، أو أولو الأمر والنهي المنتشرون لجمع المصلين وحشرهم في المساجد. ! أين هم من كل هذا الذي يحصل، إذا كان ما تقوله تلميذتك صحيحاً. !

- سألتها فقالت لي: العملية سهلة يا معلمتي، الرجال من هذا النوع، يجلبون صوبحباتهم وهن يلبسن أثواب الرجال، وعلى أعينهن نظارات شمسية رجالية عريضة، وعلى رؤوسهن شماغات رجالية بيضاء أو حمراء، فيدخلن معهم رافعات رؤوسهن، وكأن الواحدة منهن رجل، أو شاب بشوارب، وبعدها، وفي داخل البيت، يهون كل شيء !

- ولكن هذه الطالبة الطفلة، تعرف أشياء كثيرة لا نعرفها نحن المعلمات الخبيرات في الحياة ومعاركها المختلفة !

- الكبت يخرج الإنسان عن بساطته!

×××××

أحاديث ومفارقات كثيرة كانت تشغل بال الصبيتين ووقتهما، وأما في خلوتها، فكانت ماجدة تتألم لوجع البعاد عن خطيبها غازي، وتكلم نفسها وهي تستعيد شريط الذكريات:

أتذكّر قصة الخطوبة وتفاصيلها، والذي لم أفهمة يومها استفهمته لاحقاً من أمي.... فيوم خطبني أبوك، لم يعرف الحاضرون منه ما إذا كان جاداً أم هازلاً.. كنت أقدم لهم ضيافة الشاي على طبق كبير حين قالت أمك :

- ما أحلى هذه الماجدة يا أبو جهاد! خفّة دمها، وشغلها في البيت، شيء غير معقول! ما شاء الله، تمسح وتنظف، وتقدم الشاي والقهوة، وتبتسم،

مثل الملاك الطاهر! فانفصلت شفتي والدي عن فم نرجيلته الأفعى، ونفث دخاناً كثيفاً من فمه وأنفه، ثم قال:

– شكراً يا أم غازي، هذا من ذوقك، والله فعلاً إنها شاطرة، وخفيفة دم، وذكية وخدومة! فقالت أم غازي يومها:

– والله إنها لابقة لولدنا غازي، صبي طالع طلعة..! ما شاء الله عنه، مثل البلحة! فاعترض أبوك على الكلام الذي ليس في وقته، وقال لأمك :

– لا تعبري جسراً قبل أن تصليه يا امرأة! عندما يكبر غازي، ويصير شاباً مؤهلاً للزواج، يكون القرار بأيديهما وأيدينا معاً، وساعتها لن نجد أفضل من دار)أبو جهاد(لنصاهرهم !

كان رأسي مطأطئاً في الأرض وأنا أتصنع السذاجة والبراءة، ولكنني كنت أفهم كل شيء يتعلق بهذه الأمور، وأسترق السمع، كانت الحكاية على شكل)خرافية جبينة(التي قرأتها مؤخراً لإميل حبيبي، وعندها قالت أمك:

– والله إني أحبيتها هالمقصوفة! فتضايق أبوك ونهرها قائلاً :

– لا تقولي مقصوفة، قولي هالمنظومة، هالحلوة، هالحورية، هاللعبة الزاكية، هالقمر!

– هذا لغو الكلام يا ابو غازي،)لا يؤاخذكم الله في اللغو.....(. فدافعت أمي عن ضيفتها أم غازي بقولها:

– هل تعرف لماذا نحن النساء نقول كلمة مقصوفة، أو كلمات قاسية أو مُنفِّرة من هذا النوع؟ السبب هو كي لا نحسد الموصوفة، فالعين تَطرُق الموصوف،).. ومن شرِّ حاسد إذا حسد(، فنحن النساء نقول كلمات شنيعة من هذا النوع، بهدف تشويه الصورة، لكسر عين الحسود، ومنع الحسد، وكما تقول الشاميات: تقبرني ابن عمي، أو تقول: تحفر قبري بالإبرة ابن عمي... فيقول لها ابن عمها :

- لماذا)بالإبري(بنت عمي ؟! هل تريدين أن تعيشي كل هذا العمر الطويل، وأنا مستمر بحفر قبرك بالإبرة، هذا معناه أنك ستعيشين مئات السنين! اليوم المطارق الحفارة الآلية تحفر قبرك بربع ساعة، إذا كنت مستعجلة فخلّصينا، موتي بسرعة، خلينا نشوف واحدة غيرك!

وضحك الجميع على حكايات أمي، وسحب والدي نفساً من نرجيلته القاتلة ثم قال :

- اللهم مرِّر هذا اليوم على خير، وأبعدنا عن الشر! فقال الجميع:

- اللهم آمين.

وكي يخرج الجميع من متاهاتهم الحزينة، قالت أمك لأبيك :

- يقول المثل)دُقّ الحديد وهو حامي(وها هو الحديد حام، فما رأيك يا رجل أن نخطب هالبنت الأمّورة ماجدة، للولد الأمّور غازي، هكذا مجرد حجز منذ اليوم؟ فارتبك والدك، وقال لها بسرهما :

- ما هذا الدلع؛ الأمّور والأمّورة! هل هي لعبة، نشتريها لولدنا، وإذا كسرها أو أضاعها، نشتري له غيرها ؟

- يا رجل، صرنا حاكيين في الموضوع، وكل هذه المسائل تبدأ لعبة، ثم تكبر..! أي خلص، قل على بركة الله..! وعندما لم يرفض أبي وأمي الفكرة، قال أبوك بصوت جهوري تلك المرّة :

- على بركة الله..!

قرأ الجميع الفاتحة، وصرت مخطوبة لك يا غازي، وساعتها احمرّت جمرة نرجيلة أبي، وتكاثف دخانها الخانق في جو الغرفة، واشتعلت المهاهاة والزغاريد، وقامت دبكة في البيت، وأغانٍ شعبية بحق وحقيق...

سَبّل عيونه ،

ومَدّ ايده، يحنّونه ،
خصرُه رقَيِّق ،
وبالمنديل يلفّونه..!
غزال بالبرِّ شارد ،
ويَمّا رُدّونه... !

ما هذا الشعب الغريب، الذي يغني في الأفراح والأتراح، نفس الأغاني، ويهزج نفس الأهازيج! ما هذا الشعب الذي يعقد قران زواج الصبايا والشباب فوق مقابر الشهداء! ما هذا الشعب الذي يضحك ويقهقه، وقلبه مكفهر، وحالك السواد على شهدائه المتقاطرين...! ما هذا الشعب القليل العَدَد والعُدَد، والذي يتشبث بالبقاء، ويواجه أطغى وأغشم قوى عالم الحروب التجارية المُستَقتل على رغبة الامتلاك والاغتصاب؛ امتلاك مليارات المليارات، واغتصاب الأرض والشجر والحجر والنساء والرجال والأطفال والرُكّع السجود، وكل ما تقع عليه العين التي لا يملؤها سوى التراب! هل هذه هي مواصفات)شعب الجبّارين(؟

وبعدها صرت يا غازي تشعر بالمسؤولية تجاهي، وتُحضر لي هدية صغيرة في كل مناسبة، وتقدِّم الخدمات لأبي ولأمي، وكأنك ولد من أولاد العائلة، هكذا بكل براءة وطفولة، ولم تمض سنة ونيِّف، حتى صرتَ على أبواب التوجيهية، فسافرتَ إلى أمريكا، وأما أنا فدرست في الكلية الجامعية المتوسطة، ثم هاجرت إلى الواحة، وبقيت هنا بانتظارك.

لم يكن سفرك بالحسبان، قلت لي إنك راسلت شركة أمريكية متخصصة في التبادل الثقافي، فأرسلت الشركة لك أوراق استبيان، فعبأت المعلومات، وامتحنت لغة إنجليزية فنجحت، وهكذا لعبة بغلبة، تأكدت بعثتك لدراسة التوجيهية في بلاد العم سام، فسافرت !

وبومها كنت متفائلاً ومندفعاً للسفر، وقلت لي: كنت أتمنى أن تسافري معي لمثل هذا البرنامج الثقافي يا ماجدة، فقلت لك: حتى لو وافَقَت المدرسة، فإن أهلي مثل أهلك، محافظون تجاه الجريم فقط، ولا يوافقون على سفري إلى مثل تلك الديار! يحزنني أنك خرجت ولم تعد! صحيح أنك على اتصال هاتفي مع أهلك، ولكنك نسيتني، أو تناسيتني، أنا التي لم أعرف شاباً غيرك، وكلما خطبني شاب، يقول له أهلي: البنت مخطوبة لابن عمها في أمريكا، ويا ليت هذا الفارس يأتي ليخطفني، حتى ولو على حمار أجرب، لقد مللت الانتظار يا غازي!

أفلام جنسية..!

انتبه أبو مهيوب إلى أن شعره قد طال أكثر من الطبيعي، فاتجه إلى صالون الحلاقة القريب من مسكنه، وبعد السلام والكلام، والتعارف مع الحلاق؛ الشيخ جبر، الذي رحّب به دون اكتراث، جلس على كرسي الحلاقة، وطلب من الشيخ جبر تقصير شعر رأسه، فاستأذنه الشيخ بأنه سيغلق الدكان مؤقتاً للذهاب إلى المسجد للصلاة، ودعاه للذهاب معه إلى هناك... لم يرفض أبو مهيوب طلب الشيخ، خاصة وأنه يزوره لأول مرّة... ذهبا إلى هناك، ودخلا المسجد، وصلى كل منهما ركعتي سنّة، ثم جلسا على السجاد منتظرين إقامة الصلاة، وخلال جلوسهما أبلغه الشيخ جبر أنهم يعقدون حلقات مسائية أسبوعية للذكر الحكيم، كل مرّة في بيت أحد المريدين، ودعاه لحضور الجلسة القادمة، والتي ستكون في بيت الشيخ مصطفى العسّال، المقابل تماماً لمحطة البنزين.. لم يعده أبو مهيوب بشيء، وإنما تابع فروض الصلاة مع إخوانه المسلمين، وبعد انتهاء الصلاة خرج مع الشيخ جبر باتجاه صالون الحلاقة، فساعده في فتحه، وجلس مرّة أخرى على كرسي الحلاقة، وطلب من الشيخ تقصير شعره، وحلاقة ذقنه..فرفض الشيخ حلاقة الذقن، اقتداءً بالسُّنة التي تقول)احلقوا الشوارب وربوا اللحى(فانزعج أبو مهيوب وفاض به الكيل، وقال للحلاق:

- يا رجل أنت تفتح هنا دار إفتاء، أم صالون حلاقة؟ فأجابه الحلاق منزعجاً :

- قلت لك إنني لا أحلق اللحى، معناه إنني لا أحلق اللحى..أستطيع أن أشذّب لك لحيتك فقط، ولكن لا يمكن أن أحلقها، فحلاقة اللحية حرام..!

استغرب أبو مهيوب الذي تعوّد أن يحلق ذقنه أكثر من مرة في الأسبوع، فكيف لا يحلقها أثناء قص شعره في الصالون، وكيف سيقولون له:)نعيماً(دون حلاقة ذقنه؟! وفي مواجهة إصرار الشيخ جبر، قام أبو مهيوب عن الكرسي، وقال للحلاق :

- ما دمت تصرّ على عدم الحلاقة، أنصحك بتحويل دكانك إلى محل لبيع الفجل والبصل، ودع عنك مهنة الحلاقة هذه، فالفجل والبصل لا يحتاجان لحلاقة ذقن عند الشراء أو البيع..! فغضب الحلاق من سخرية الزبون، وكادت تنشب بينهما خناقة، افتداها أبو مهيوب بالخروج السريع من الدكان، وسار باحثاً عن صالون حلاقة آخر، إلى أن اهتدى لصالون حلاقة ينزوي في مدخل عمارة تجارية في الحي المجاور، دخل فرحّب الحلاق به، واهتم بحضوره. شاهد أمامه ثلاثة شبان يجلسون بتراخ على مقاعد جلدية يتمازحون ويتضاحكون، ورجل كبير من جيله يجلس في حاله، ولا يكلم أحداً. وبعد طول انتظار، جاء دور)أبو مهيوب(، فجلس على كرسي الحلاقة، ودار بينه وبين الحلاق حديث طويل، ليس من ورائه سوى قضاء الوقت والتسلية والتعارف، وكسب ودّ الزبون، وحكى له أبو مهيوب قصة ذلك الحلاق الملتحي، فتشجع هذا الحلاق ليحدثه في أمور الدنيا والسفر والحر والبرد وأمور الجنس، وبعدما سخن الحديث، قال له الحلاق:

- عندما يتحدث الناس في السياسة فإنهم يختلفون، وعندما يتحدثون في الدين فإنهم يملّون، وعندما يتحدثون في الجنس فإنهم يتّفقون.. فقال له أبو مهيوب:

- ذلك لأن رجل الدين لا يترك للمستمعين فرصة الحوار، فكل المستمعين مجبرون على الإنصات وعدم إبداء الرأي، ويا ويل من يعارض، فقد انتهت أيام عمر بن الخطاب الذي قال: من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه بيده. فقام أعرابي مجهول، وقال له: والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه

بسيوفنا..... وخرج الأعرابي إلى بيته، ولم يلحق به مخبرون، ولم يُعتقل، ولم يُعَذّب، ولم يُسجَن، ولم يُقتَل، ولم يُتهم بالإرهاب والكباب، بل عاش بعد ذلك عمره كله دون مساءلة أمنيّة، لو كنا اليوم نستطيع الرد، حتى على رجل الدين - وليس على الوالي الكبير - أو حتى الحوار معه..! أنت يا رجل لا تستطيع أن تصحح لغة خطيب المسجد، حتى لو أخطأ في النحو والصرف! ولذلك يملّ الناس من إمعان الدراويش والمرائين في تحريف ديننا الحنيف، مع أن جوهر ديننا كاللؤلؤ، ولكن صلابة وخشونة الأغلفة التي يغلفونه بها، تكاد تخنق أو تقتل اللؤلؤة، ولكن حكمة الله أن اللؤلؤة غير قابلة للقتل، مهما حاولوا خنقها.

ولربط عرى المصالح المشتركة، دعا الحلاق)أبومهيوب(ليزور الصالون في أي وقت يشاء، دون مبرر الحلاقة، فيتبادلون الحديث، ويتسلّون بقضاء الوقت، وهذا ما حصل، فصار له متكأ خارج البيت، يزوره ويقضي فيه بعض الوقت.

تكررت زيارته لصالون الحلاقة، وتولدت بينهما معرفة وعلاقة شخصية، يتبادلان فيها المنافع، فأبو مهيوب يخرج من عزلته بتبادل الحديث مع رجل غريب، والغريب للغريب نسيب، والحلاق من جهته يزيد عدد زبائنه، ومصدر دخله. وفي وقت فراغ الحلاق كان أبو مهيوب يحدثه عن الغربة والوحدة، وسعى الحلاق للتعرف عليه أكثر، فسأله عن زوجته، فأجاب بأنها قد توفيت منذ زمن.

- معنى ذلك أنك أعزب، قال الحلاق. فأجاب أبو مهيوب :

- أعزب وعجوز وشائب، سمِّني كما يحلو لك. فاعتذر الحلاق منه قائلاً:

- لا أبداً، والله إنك ما تزال شاباً وقوياً يا رجل! فانفرجت أسارير)أبو مهيوب(، وقال للحلاق :

- الله يجبر بخاطرك !

وبعد عدة زيارات أخر، أراد الحلاق أن يضمّه للشلّة، فاقترح عليه أن ينضم إلى ناديهم الثقافي :

- ما رأيك أن نلتقي خارج الصالون؛ في نادينا الخاص؟ فأنا أعْزب ومغترب مثلك، ونحن نلتقي هناك في شقتي مرة في الشهر، ونشاهد بعض الأفلام الترفيهية، ونتعارف أكثر. تنضم إلينا لتشاهد أفلاماً فيها فنون من نوع آخر! أعني فيها إباحية زائدة عن الحد... ! نحن نلتقي في السّاعة العاشرة صباحاً، في نهاية كل شهر!

- لا مانع لدي، فأنا منذ نزلت في هذه البلاد، لم أدخل بيت أحد غير بيتي !

وحسب موعد محدد، زار أبو مهيوب شقة الحلاق، ولكن مجلس النادي كان معتماً، وبالتدقيق في المكان، شاهد عدداً كبيراً من الحضور، فقعد على أحد الكراسي الفارغة، وكان الفيلم قد ابتدأ، والحضور صامتون، وامرأة على الشاشة تتأوه مع رجل يعاشرها معاشرة الأزواج، ولكن بطريقة شرهة ووقحة وفظّة وقاسية ومباشرة، ففهم أن هذه هي الأفلام الجنسية التي يتحدثون عنها، والتي لم يشاهدها من قبل، وها هو يراها لأول مرة في حياته، فيندهش بها، ويتهيج لمرآها، ويفتح عينيه على اتساعهما، ليشاهد كل شيء كما يعرضه الفيلم، وبين لحظة وأخرى، كان ينظر إلى الحضور، فيلاحظ كونهم مختلفي الأعمار والأشكال والجنسيات، ويبدو أنهم كلهم من الأجانب الشرقيين والعرب، وليس بينهم واحد من أبناء البلد أو الغربيين، وعندما سأل الحلاق عن هذه الملاحظة، أجابه بأن الغربيين قد يشاهدون هذه الأفلام في بيوتهم أو نواديهم الخاصة، وأما أصحاب البلاد، فلا علاقة لنا معهم، ولهم حياتهم الخاصة التي لا نتدخل فيها.

لم يستطع أبو مهيوب أن يقعد بلا عمل، ولم يرغب بالتورط في مثل هذه الاجتماعات التي شاهدها، فلقد شعر بنفسه صغيراً قميئاً مهيناً وهو يشاهد هذه الصور الإباحية التي تُحوِّل الإنسان إلى حيوان قذر، يشمشم الروائح النّجسة، ويفعل كل المحرّمات التي تُخرج الإنسان عن سُمُوّه وطهارته، وتلوث تفكيره ونظرته الإنسانية للمرأة، ومن يومها قرر شراء آلة حلاقة كهربائية، تحلق له كل شعر رأسه؛ يثبتها على رقم صفر، فتحلق له على الصفر، ويثبتها على رقم ثلاثة، فتحلق له على رقم ثلاثة، ويثبتها على رقم ستة، فتحلق له على رقم ستة، وهكذا. صار الرجل يتحكم بحلاقة شعره، وارتاح من الحلاق، ومشاكل الحلاق، وأفلام الحلاق الزرقاء.

XXXXX

لم يرتح أبو مهيوب للقعود في هذه البيئة بلا عمل، وبعد عدة أشهر من الملل والضغوطات النفسية، فكر في الذهاب إلى بلدية الواحة، وهناك التقى بمدير الحدائق والزراعة، فعرض عليه خبراته، وحدّثه عن التطعيم والتقليم والقص والتشكيل والتسميد والرش، وما إلى دون ذلك، وقال له إنه مستعد للذهاب إلى البيوت التي يطلب أصحابها خدمة حدائقية.

انتبه المدير إلى أن كثيراً من الأهالي يطلبون منه خدمة حدائقهم المنزلية، ولكنه لا يجد أشخاصاً يثق بهم ليرسلهم في مثل تلك المهام البيتية الحساسة، ولكن يبدو أن هذا الشامي متمكن من علومه وأفعاله، ويبدو أن شخصيته موثوق بها في التصرف مع أهالي البيوت، فاتفق معه على أن يعمل في بعض الحدائق الخاصة، وأن تكون الأجور التي يتقاضاها مناصفة بين الشريكين، ولتفسيرها دينياً، وكي لا تكون الأتاوات التي يأخذها مدير الحدائق من باب الرّشوة، ولاستبدال الحرام بالحلال، اعتبراها شركة خاصة بين الموظف والبستاني، مع أن الموظف يقبض راتبه من الحكومة، والبستاني يقبض أجور عمله بعرق جبينه، من أصحاب البيوت، ولكن لا مناقشة

لغريب في حضرة مواطن، ولا مناقشة لرجل سليط متسلط في سلطاته، حتى ولو كان أقرب المقربين، فالسلطة؛ كلمة مشتقة من التسلُّط، والتحكُّم، والابتزاز!

ومع ذلك، فلقد فرح أبو مهيوب بالشغل الجديد في أعمال البستنة، وراح يشتغل كما تعَوّد في معسكر الحصار، فالشغل هنا يُشعره بأنه ليس عالة على أحد، وبأن الزمن يُستثمَر، وجهوده تؤتي أكلها، فقال لنفسه: لماذا لا أعمل، وأفيد وأستفيد؟ أليس ذلك أفضل من أفلام الخلاق المحروقة ؟

وهكذا راح ينفذ طلبات مدير الزراعة، ويذهب إلى المكان الذي يرسله إليه، ويعمل منذ الصباح، وحتى المساء، لدرجة شعرت معها تغريد وماجدة بوحشة السكن وحدهما في ذلك البيت الخانق!

الحدود..دود..دود..!

لا ربيع في هذه البلاد، والصيف حَرٌّ قاتل، وفراغٌ لا عمل فيه، وجوُّ البيت خانق، لا خروج ولا دخول، وأبو مهيوب يعمل صيفاً شتاءً في صيانة الحدائق، ولكنهم في مساء كل يوم جمعة، يكسرون الجو المخنوق، ويذهبون معاً للتفرُّج على الأسواق، وشراء بعض الحاجيات، وأما باقي أيام الأسبوع، فتتمدد البنتان مقبورتين داخل بوتقة البيت، وتدوخان وهما تنظران إلى مروحة السقف الدوارة، وتحسّان بفراغ قاتل، وعلى سريريهما المفردين، كانتا تتمطيان وهما تقضيان الوقت بالحديث)الفارغ والمليان:(

كنا نتفلسف أيام دراستنا في الكلّية ونقول: ساق الله يوم انتهاء الدراسة، وإذ بالكلّية أجمل أيام حياتنا، يوم كان الأستاذ فكري المصري يبحث عن ألوان الزيت فلا يجدها، أكون أنا قد خبأتها في درجه، فيروح يبحث عنها في أدراجنا، وعندما يكتشفها في درجه، يشعر بالحرج، فتقول له سماهر: ها قد وجدتَها في درجك يا أستاذ، ألا تشعر يا فنان الشعب أنك قد ظلمتنا؟ فيعتذر الأستاذ، ونضحك نحن بصمت مستغربات سذاجته، وكيف يعتذر عن شيء لم يفعله) !إيييه(..! أيام..! ضاعت علينا سدى! ولا يريد أبوك إلا أن يخطبني لأخيك غازي! يا عمي لا داعي لخطوبة كهذه لا نعرف أبعادها! اسمعي يا تغريد، إذا لم يأت خبر من أخيك غازي، فأرجوك أن تبلغيهم أنني من طرف واحد، ومن هنا، أعلن إلغاء هذه الخطوبة الكاذبة، أعلن خلع هذا الرجل على طريقة الخلع النسائية الحديثة..! وأرجوك أن تساعديني في التعرف على شاب محترم، يكون أهلاً لبنت محترمة مثلي.. ضحكت وهي تقول محترمة.. طبعاً محترمة، فإذا لم يجاملني أحد، ويستمر الجميع بتجاهلي، ولا يقولون لي: يا محترمة. على الأقل أنا أجامل

نفسي في هذا الفراغ القاتل، وأكرر رغبتي بشاب محترم، يبحث عن فتاة حلوة ومحترمة مثلي، تصونه وتحفظه، وتقف معه لتساعده على شقاء الدنيا، فأنا إذا أحببت، فسوف أضحي، وسأعمل مع زوجي، لنحمل معاً طرفي البساط الطائر، الذي سيحلّق بنا معاً في فضاء الحياة. فقالت لها تغريد :

– أول مرّة أشاهد وأسمع بنتاً مجنونة ونرجسية مثلك تدلل نفسها، وتشيد بأنها حلوة ومحترمة! فكيف عرفت أنك حلوة يا محترمة؟ هل لحست قفاك، فذقت طعمه الحلو؟!

– لست أدلل نفسي..! أنا بحاجة لشاب محترم يدللني، ولكن الجوع كافر! وحتى البقرة الدنماركية تجد من يدللها – حسب إعلاناتهم على الأقل – ولهذا استنجد بك !

– تريدينني أن أعمل لك مُطلّقة، أم خاطبة؟ واحدة من الاثنتين! يا ماجدة خلّيها على الله، تأكدي بأن ما هو مقدّر لك، فهو لك.

– هذا صحيح، ولكن الواحدة منا تفكر وتخطط، والله يُدبِّر.. وأنا الآن في دور التخطيط والسعي، ولن أبقى عالة عليهم بعد اليوم..! ولن أنتظر منهم تقرير مصيري.. أنا التي سأقرر مصيري بنفسي، حتى لو تزوجت)أبو مهيوب(ذات نفسه، فلن أتركهم يتحكمون بمصيري إلى ما لا نهاية..! ضحكت تغريد، وهي تأخذ الأمر على أنه مزاح، وقضاء وقت فراغ، وقالت :

– دعينا نصل إلى بلادنا أولاً، ومن ثم تقررين مصيرك يا شاطرة! إذا كانت فلسطين كلها، غير قادرة على تقرير مصيرها، فهل أنت يا خر.... ستقررين خيبتك؟ وكّليها لله..!

XXXXX

جاء صيف السنة التدريسية الثانية، والحنين إلى الوطن قد أكل لحمهما، وشرب دماءهما، ولم يكن أبو مهيوب أقلّ منهما شوقاً للوطن. وكثيراً ما كان ينحني وهو يمسح الأرض، أو ينظف مجلى المطبخ، أو مغسلة وحوض الحمام، وهو ينشد قائلاً :

كل شيء للوطن ،
كل شيء للقضيّة،
ليس للروح ثمن،
فهي للأرض الأبية،
للوطن..... !

تعودان من المدرسة فتسمعانه يغني، فتشاركانه بتلك الأغنية الوطنية التي صارت أسطوانتها مشروخة، من كثرة ما رُدِّدت، وليس من وطن حسب مفهوم ومعنى الوطن..! وكما يقول أولئك الممثلون اللبنانيون المسطولون على الفضائيات اللبنانية: إلوطاااااان... !

فكّرت كل من البنتين بأهلها وأقاربها، عددهم ونوع الهدية التي ينتظرها كل منهم، وكذلك فكر أبو مهيوب بشراء هدايا كثيرة لبناته الثلاث، وأولادهن الذين تخيلهم بلا ملابس، أو بملابس بالية قذرة تحت الحصار الخانق.

خرج الرجل والصبيتان إلى سوق المخيمس، ذهبوا معاً لشراء الحاجات، حيث تباع الملابس في السوق الشعبية، فاشترى كل منهم عدّة قمصان صيفية)نُص كُمّ(، وعدّة بيجامات رجالية ونسائية وبناتية؛ صيفية وشتوية، وعدداً من أزاوج الجرابات، وأطقم ملابس داخلية، وعدة بنطالات، وأثواباً نسائية، وعدّة قمصان نوم نسائية، وأشياء من هذا القبيل، وعندما ازدادت مشترياتهم، ذكّرهما الرجل بالاقتصاد في النفقة قائلاً :

– والله لو اشترينا لهم السوق كله، فلن يكفيهم، فهم كُثرُ. فضحكت الاثنتان على ما قاله المحرم.

عادوا من السوق منبعجة أحمالهم، وسائق سيارة الأجرة مندهش من هذه الأغراض التي ملأت السيارة من الخلف، وما بين المقاعد، ولكنه لم يتكلم في الموضوع لسبب واحد، وهو أن لغته كانت أجنبية؛ من لغات الشرق الأقصى.

كل هذا كوم، والشوق والحنين أكوام، بل جبال من العشق والوله لتراب الوطن.

ركبوا حافلة عامّة للركاب المسافرين. كان الطريق طويلاً إلى بيت المحبوب؛)إلوطاااان.. (!، والمشقّة تهون أمام الشوق، و)مصر على المشتاق مش بعيدة(، وفلسطين على المشتاق غير بعيدة، وكانت فيالقهم الثورية هناك تقول:

– الألف كيلومتر باتجاه فلسطين أولها خطوة، فصارت على مرمى حجر منهم، ثم تمددت إلى عدة كيلومترات، ثم آلاف، ثم ملايين الكيلومترات..!

كانت الحافلة تتمدد وتتلاشى مع السراب المتوهج الشفاف الخادع، وتُشوى بنار صحراء حارقة عرضها السموات والأرض، وكانت رمال الصحراء المتحركة تعسف غبارها مثل موج البحر الهادر...!

ما هذه الصحاري الجرداء في كل اتجاه ؟

ولماذا أزالوا الأشجار من كل مكان ؟

وهل يوجد هنا أيضاً محتلّون، يُجرِّفون أشجار مزارعهم وغاباتهم، فتصير بلادهم امرأةً عاقر، لا تنجب أشجاراً ؟

والمتسائل أبو مهيوب لا يعرف أن كل الأراضي العربية خالية كهذه

الصحاري، من الصحراء الشرقية، إلى الصحراء الغربية، إلى الصحراء الشمالية، إلى الصحراء الجنوبية، إلى صحاري السموم، إلى صحاري التيه، إلى صحاري الرمال المتحركة، إلى صحراء الربع الخالي، إلى صحراء الثلث الخالي، إلى صحراء النصف الخالي، إلى صحراء الكل الخالي.. كلها صحاري خالي يا خالي..! قالت له تغريد ذات أمسية وهم يشاهدون التلفاز في البيت: انظر إلى خارطة الكرة الأرضية، تشاهد الوطن العربي كله موشحاً باللون الشاحب الباهت الصحراوي، وباقي الكرة الأرضية خضراء، كل شيء أخضر، إلا الوطن.. فقالت ماجدة ساخرة :

)إلوطاااان(!

كل شيء للوطن ،

كل شيء للقضية،

ليس للروح ثمن.. !

وقالت لها تغريد: وكيف يكون للروح ثمن في هذه الـ.....؟

لم يكونوا يفكرون بوسائط السفر المتغيرة هذه، من سيارة أجرة، إلى حافلة، إلى باخرة، إلى حافلة، إلى سيارة أجرة، تدخل بهم إلى معسكرهم، فما بعد الحدود إلا الحدود.. حدود وراء حدود، وراء حدود، وراء حدود ،. .دود.. دود.. دود...دود.. وكلها حدود عربية القلب واليد واللسان، والعربي على العربي، مثل الشحم على النار، فعند الحدود العربية العربية مرار ودمار.. هكذا كانت تأتي التعليمات من موظفي الجمارك ،

وموظفي الأمن،

وموظفي تخليص البضائع ،

وموظفي التعقيب ،

وموظفي التفتيش ،

وموظفي الطوابع،

وموظفي الخدمات،

وموظفي التأمين،

وموظفي التقطيع والتوصيل والتزفيت..... ،

موظفون مختلفون،

تشهد عليك يوم الحشر أشكالهم وأحجامهم وأيديهم وأصابعهم وملابسهم وأصواتهم ولهجاتهم ووجوههم وعيونهم وأنوفهم وأسنانهم وصبغات ذقونهم وأوامرهم :

- قفوا..

- انتظروا، موظف الجمارك، ذهب ليتوضأ.

- لا تخرجوا من السيارة، إلا بأمر من مسؤول الأمن، ومسؤول الأمن غادر نظراً لتغيُّر الدورية، وسيعود رجال أمن آخرون..

- لا تخلفوا صفوف الدور، والموظف ذهب ليصلي جماعة مع باقي الموظفين.

- كلها ساعة، ساعتان، ثلاث ساعات، ويحضر المسؤول، وينتهي كل شيء.

- بعد انتهاء الصلاة، ذهبوا ليتناولوا لهم لقمة طعام، الجماعة يتعبون.

- بعد الأكل يشربون الشاي، وسوف يصلون فوراً.

- لا تتزاحموا عند المعبر..

- أنتم عرب جَرَب، وغير حضاريين.

- لا تتراكضوا.

- قفوا بالدّور.

- سوّوا صفوفكم، إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج..

- أنزلوا أمتعتكم من الحافلة، هنا على المصطبة، كل قطعة صغيرة معكم، يجب أن تُنزّل هنا على الأرض للمعاينة، ومن يترك شيئاً داخل الحافلة يُخالَف.

- افتحوا حقائبكم وأكياسكم وأمتعتكم وأغراضكم، واعرضوها ظاهرة للعيان..!

وكان ثمة كلب أمني بحجم الجحش، يتجول مع تابعه الذي يسير وراءه مقطوراً بحبل متين، يشمشم رائحة الأمتعة، باحثاً عن شيء مفقود.. وعندما اقترب من أمتعة ماجدة وتغريد، ارتعبت الصبيتان، وهربتا من مكان الأمتعة، خوفاً من عضّة أو نهشة أو ميتة شنيعة بين أنياب كلب شرس..! فقال لهما تابع الكلب :

- لا تخافا، إنني أمسك به! وتابع توجيه تعليماته للركاب المحتشدين حول أمتعتهم :

- كل واحد يقف أمام أمتعته، وكل واحد يتعرف على أمتعته، ويفتح حقائبه بنفسه، ومن لا يتعرف على إحدى الحقائب، فليتركها، لأنها قد تكون محشوة بالمهربات أو بالمخدرات أو المتفجرات أو المحظورات، أو تخص إرهابيين خارجين على القانون، أو ال.....

- لا تأخذوا حقائب ليست لكم، لأنكم قد تنقلون أشياء ممنوعة، وأنتم لا تدرون.

وقال لها موظف تدقيق الجوازات على الحدود :

- ما اسمك يا بنت ؟

- اسمي ماجدة.

- ما معنى ماجدة؟ من المجد؟ وأين هو المجد؟ هل أنت من الماجدات العراقيات؟.. لم ترد عليه ماجدة، بل تركته يلعلع كما يحلو له..

- وأنت ما اسمك يا صبية. ؟

- اسمي تغريد؟

- لماذا هذا الاسم، تغريد؟ يا أختي صوت المرأة عورة، فلم التغريد، هذا والله حرام!

وهنا تأفف أبو مهيوب متضايقاً من علك الكلام الفارغ، وقال: لم هذا التحكم بعباد الله، وتأخير المعاملات، وعدم وجود تقدم في الصف الطويل، فقال له الشرطي الذي يراقب الأمن :

- أنت سدّ خشمك، وإلا أرجعتك إلى آخر الصف، أو جعلتك تبيت الليلة على الحدود..! وتابع موظف الجوازات تعليماته واستعلاماته مع المغادرين:

- نريد أن نتأكد من الجوازات.

- هل معك جواز سفر ساري المفعول؟

- هل معك إقامة على الجواز ؟

- هل إقامتك سارية المفعول ؟

- هل معك تصريح خروج ؟

- هل معك براءة ذمة من المستخدِم؟

- هل معك تصريح عودة؟

- هل معك طوابع ؟

- اكتب كشفاً بالأغراض التي معك، وضع طوابع على المعاملة.

فقال له المسافر :

- من أين آتي بالطوابع ؟

- هذا ليس شغلي، اذهب هناك في العمارة المجاورة، واسأل عن طوابع.. أهم شيء الطوابع.. أية معاملة دون طوابع، طبعاً ستطبع بالرفض..!

- ما هذه؟ مجلة نسائية؟ ممنوع تمرير مجلات نسائية! فقال له المسافر :

- ولكنني خارج مروراً ببلادكم، فالمنع يُطبّق لو كنت داخلاً إلى بلادكم!

- هذه مجلة مصادرة يعني مصادرة، داخل خارج، هذا لا يهم، المهم أن الحدود تمنع تمرير مجلات نسائية فاضحة !

- القانون..!

- تريدني أن أطلعك على القانون الذي يمنع المجلات الإباحية ؟

- ولكنها ليست إباحية، إنها مجلة نسائية محترمة !

- يا أخي تريد أن توقف تحـــرك كل هذا الصف الطويل الطويل من السـيـارات، كي أريك القانون؟ يا أخي صـحـيح إنك لا تستـحي على وجهك..! قال قانون قال..! طيب انصرف..!

استولى رجل الحدود على المجلة النسائية، ليس بهدف المنع، بل بهدف التفرج عليها بعد انتهاء الدوام، ذلك لأن تلك المجلة قادمة من ولاية عربية مجاورة أكثر تحرراً، وتسمح بمثل تلك المجلات التي يعتبرونها هنا خليعة ومخالفة.

تحركت الحافلة بحمولاتها من الركاب والأمتعة، وانطلقت تنهب الرمال المتحركة، وتمضغ القيافي والقفار، وتطارد في الصحاري العربية المترامية الأطراف حتى يجف ريقها، وتصل عطشى إلى شاطىء البحر، وهناك على الحدود، لم يكن موعد الباخرة قد جاء. ولكن عدداً من رجال الأمن والمباحث والجمارك والتأمين والشحن والتدقيق والتفتيش والصحة والتعقيب والطوابع والوقاية والدفاع المدني والبائعين المتجولين، ورجالاً آخرين لم تعرف هوياتهم كانوا في انتظارهم، راحوا يتحلقون حول الحافلة، ويمطرونهم بوابل من التعليمات المشددة:

- الباخرة ستكون هنا غداً صباحاً، ولكن الخروج من الحافلة ممنوع...

- طبعاً ممنوع، فبلا مؤاخذة، معظمكم فلسطينيون، وغير مسموح لكم بالنزول على سطح القمر، آسف على سطح الأرض، خوفاً من التسلل والهروب إلى داخل البلاد.

- وما هو الحل؟ سأله أبو مهيوب الجالس في المقعد الأول المواجه للباب.. فأجابه أحد الموظفين :

- الحل بسيط وسهل ولطيف.. سيدخل عليكم بائعو الطعام والشراب والعصير والشطائر، وكل واحد منكم يستطيع أن يشتري كل ما يريد، خذوا حريتكم في الشراء، أنتم مرحب بكم في الشراء، أنتم في وطنكم العربي في الشراء، فأطعمتنا شهية وعربية مئة بالمئة، ولا تحوي لحم خنزير، أو أية مأكولات مُحرّمة، واللحم المباع لكم كله مذبوح على الشريعة الإسلامية، وحلال زلال.... وقال موظف آخر :

- ولكن النزول من الحافلة ممنوع. وقال موظف ثالث:

- رجاءً عدم الإحراج، ونحن للسلامة العامة فقط، سنغلق عليكم باب الحافلة.. وقال رابع :

- سنغلقه فقط للصباح. وقال خامس :

- لا تؤاخذوني، فأنا عبد مأمور، وهذه ليست تعليماتي، وليست إرادتي، لقد كان)الودّ ودّي(ولكنني مضطر لأن اختم الباب بالشمع الأحمر. وقال سادس :

- وسيأتي موظف الجمارك في الصباح ليستلمكم، ويفك عنكم الشمع الأحمر، فأنتم عُهدة على ذمته. وقال موظف ذو لحية كثة طويلة مشطة حمراء اللون، يضع يديه في جيبي ثوبه الباكستاني، ويقف بخشوع من خشية الله :

- ستكون الأمور مُيَسّرة بإذن الله.... فقال أبو مهيوب لحرمتيه اللتين تجلسان على مقعد خلفه مباشرة: ماذا نريد أكثر من هذا التيسير ؟!

وبعد طول معاناة، انتقل الركاب من الحافلة إلى الباخرة، وصاروا في عرض البحر، ولم يُعرف مَن منهم أصابه دوار البحر، ولكن الذي تم التأكد منه، أنه لم يشرب أحد منهم البحر...

كان رجال الحدود مستنفرين على الجماعة، وكأنهم خائفين على ماء البحر أن ينفد، ولكنه والحمد لله لم ينفد... فوصلوا كلهم سالمين إلى البر الثاني، إلى الحدود العربية الثالثة عشرة، وهناك أعيدت عليهم تعليمات أكثر شدّة من تعليمات الحدود السابقة، ولكن بمنتهى الأدب والاحترام واللياقة في التعامل :

- لو سمحتم، قفوا كلكم على باب الشاطيء.
- لو تكرمتم، لا تتحركوا إلا بأمر الشاويش.
- أسعدكم الله، اختموا معاملات الجوازات.
- أثابنا وإياكم الله، اذهبوا إلى الجمارك.

- نرجوكم، لا تنسوا الرقابة الصحية.

- من فضلكم، تابعوا الرقابة الأمنية.

- لو تلطّفتم، اختموا أوراقكم من المخابرات.

- بارك الله فيكم، ضعوا طوابعاً على معاملاتكم.

- إخواني وأخواتي الكرام، ادفعوا رسوم المرور.

- سيداتي وسادتي، أخرجوا حقائبكم وافتحوها جاهزة للتفتيش.

- نستميحكم عذراً، لا تتركوا قطعة مخفيّة دون عرضها للتفتيش..

- لو سمحتم، قفوا بانتظار الحافلة التي ستقلكم إلى بلادكم.

- أعزائي، كلها عدة ساعات، وتكون الحافلة قد وصلت، وتنطلقون إلى بلادكم بإذن الله.

- ربَعي وأهلي، انتبهوا، نريد أن نفهم على بعضنا، ونريد أن نحترم النظام والقانون والعرف والعادات والتقاليد.

- أخوالي وخالاتي، نريدكم أن تقعدوا هنا في هذه الساحة المبلطة، وسنرسم حولكم دائرة بالطبشورة، ومن يخرج من الدائرة، ستدور عليه الدوائر، ومن لا يريد أن تدور عليه الدوائر، فليحترم الدائرة، ويقعد فيها غير ملوم ولا محسور... وهنا تذكّرت تغريد مسرحية دائرة الطباشير القوقازية لبريخت، فضحكت، ولكنها كتمت ضحكتها تضامناً مع النظام والقانون.. وقال آخر :

- يا جماعة، ستجدون هنا كل المأكولات والمشروبات الغازية والمشروبات الساخنة والباردة بأسعار معقولة. والحمّامات لحسن الحظ تقع داخل الدائرة، فمن أراد أن يعملها فليعملها بمنتهى الحرية، حرية على طول. وقال آخر :

- هلا عمّي، خذوا راحتكم، واشعروا كأنكم في وطنكم.

- نرحب بكم في وطنكم الثاني، ونحن معكم في كرم الضيافة والأمن.

- البلد بلدكم، ولكن إياكم أن يتسلل أحد منكم إلى البلاد، فهذا خط أحمر. ! وقال رجل عيناه حمراوان، تقدحان شرراً :

- وكل خروج عن الخط الأحمر يا أحبائي، هو خط أحمر..

وهنا قالت ماجدة لتغريد: تعليمات، تعليمات، تعليم، تعليم... يا ليت الحكومات العربية تولي شعوبها تعليماً أكاديمياً ومهنياً وفنياً بقوّة ودقّة هذه التعليمات الأمنية على الحدود..! فقالت لها تغريد: أرجوك أن تطبقي فمك، فمقتل المرأة العربية بين فكيها...!

وبعد ليلة حافلة بالاحتياطات المشددة، وبرد الصحراء القارس، وصلت الحافلة المصون، وعندما طلع الصباح، وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح، تدافع الركاب نحو بابها، اتقاءً للبرد والمعاناة الطويلة، وحشر الركاب أنفسهم فيها، وانطلقت بلا طول سيرة إلى أرض الوطن، إلى الحدود الحادية والعشرين، حيث قطعت الحافلة كل هذه الحدود، ووصلت بيُمن الله ورعايته إلى أرض الوطن....!

وصلت الحافلة منتفخة بالأمتعة والركاب والراكبات،)وترى الناس سكارى وما هم بسكارى(، شعر أبو مهيوب بأنهم صاروا مطبوخين معلوكين مضغوين مبصوقين، وأن الحافلة تواصل دخولها إلى حدود أرض اللبن والعسل الممزوج باليورانيوم المنضب، والمحمول على أجنحة طائرات الأباتشي المتخصصة باصطياد العصافير الصغيرة، والتي لا تقرأ إلا أرقام الملابس الداخلية لأطفال الحجارة..... دخلت الحافلة إلى حدود الوطن، وتوقفت هناك.

كان هناك صف طويل جداً من الحافلات والسيارات الصغيرة والكبيرة، وصف آخر لا نهاية له، مخصص للشاحنات المحمّلة بمواد مختلفة.

قالت ماجدة: الحمد لله أننا وصلنا إلى الوطن، صحيح إنه لا شيء يعدل الوطن، الآن نستطيع أن نتنفس هواء بلادنا، وقالت تغريد: أنا لا أصدق نفسي، أتفرج على الحدود وكأننا على أبواب الجنة! وقال أبومهيوب: اذكرا الله. فقالت تغريد: لا إله إلا الله.. ولم تفهم ماجدة مغزى قوله، فاستفسرت منه :

- ماذا تقصد بقولك؛ اذكرا الله ؟

- أقصد أنكما لم تدخلا بعد، وحين وصولكما، كل إلى بيت أهلها، تستطيعان القول: إن هواء بلادي... !

وعند الحدود كانت الحافلة تُقدِّم عَجَلَةً من عجلاتها، وتؤخر أخرى، وكان قائد الحافلة والركاب داخل حرِّ الحافلة وهوائها الممزوج مع دخان عوادم السيارات، التي تضخ هواءً أزرق مُسوداً مشبعاً بالديزل الخانق غير المحروق، وألم الجلوس بكسر الظهور، يترقبون إشارة مَخرَج من هذا العذاب المتلاحق على جثثهم طوال الوقت.

وكان على الحدود مجندون غرباء، لا تعرف ما إذا كانوا رجالاً آليين، أم أناساً، وأولاد ناس، شقراً وسود البشرة، شاهدهم الركاب، يروحون ويجيئون من بعيد، ولا يكلمون أحداً، ذلك لأنهم متباهون بأسلحتهم الأوتوماتيكية، يحركونها يمنة ويسرة على أكتافهم، وبالأحضان، كما تُحرك الفتاة المغرورة بجمالها غُرَّة شعرها بيدها، يميناً ثم يساراً.. كان الرجال الآليون يصوبونها هنا وهناك، ويتحركون بحذر شديد، بالقرب من الحافلات والسيارات، والشاحنات المكتظة بشكل ملفت للنظر، ومثير للدهشة، وكأنهم في معركة حقيقية محتدمة، ولكنها صامتة. وتحت مظلات الساحات، يقف عساكر، ذكور وإناث، بملابسهم العسكرية، يتحدثون مع بعضهم، ويتمازحون وهم مكفهرو الوجوه، يبدو أنهم يكسرون حاجز الخوف والكُره لتخلّيهم عن إنسانيتهم، وذلك بالمزاح الثقيل، تحجزهم عن جمهور المعتقلين - آسف

جمهور المسافرين - جدران زجاجية سميكة، قالت ماجدة: إنها واقية من الرصاص والمتفجرات، فقالت لها تغريد القاعدة معها على نفس المقعد : سدِّي حلقك، الحيطان لها آذان.. فسدت ماجدة حلقها، وأطفىء محرك الحافلة، وارتفعت درجة الحرارة، وقعدت الحافلة على الأرض عدة ساعات في الانتظار، وكل ساعة أو بعض ساعة، يدير السائق مفتاح الحافلة، فيشغِّل المحرك، وينتبه الركاب للتقدم باتجاه يوم الحشر والنشر، وعندما يصل الدور عليهم بعد عمر طويل، تقوم الحافلة وتتململ وتتنحنح بحشرجات محركها الخشن، ثم تتقدم عدة سنتيمترات، أو أمتار قليلة في الشارع الترابي المهترىء، والذي كان يوماً ما مُعَبّداً بإسفلت مثل الحلاوة، ثم تتوقف للمرّة التاسعة والتسعين، ويطفىء السائق محركها، وينام على المقود، ويستغرق في أحلام متناقضة الصور والأصوات والكلام والمناظر..

وبعد عمر طويل من الانتظار والترقب، صعد معاون السائق، درجات الحافلة، وقال للركاب: يا جماعة كل واحد يستعد لتناول حاجاته، وتقديمها للمحاكمة، أقصد تقديمها للتفتيش، فهي تدخل من باب، وتخرج من باب آخر، وقبل إدخالها، كل واحد منكم يفتح أغراضه، وينفلها، قطعة قطعة، أمام كلاب بوليسية، ولا تخافوا الكلاب، فهي مدربة، وخلال سنوات الانتفاضة كلها، لم تأكل الكلاب أو تنهش على هذه الحدود سوى لحم تسعة وعشرين مسافراً من الركاب. وأنتم تعرفون أن عدد الناس الذين يموتون دهساً في الشوارع، أكثر من هذا الرقم بكثير، ولذلك لا تخافوا إذا حسبتم عدد المسافرين عبر الحدود، فالنسبة آمنة، وهذا التفتيش سيتم حالاً، بعد عدة ساعات فقط من الآن.. ولذلك كلوا واشربوا واستريحوا لحين وصول الدور إليكم.

- كيف نستريح، ونحن مربوطون على هذه المقاعد الضاغطة على أقدامنا ومفاصلنا، وتحت هذا الحر القاتل، والخنق المتواصل، قال أبومهيوب؟

فنهره معاون القائد قائلاً :

- أرجوك يا عمي لا ترمينا في داهية، دعونا يا جماعة نصل أهالينا بسلام، ألا تريدون أن تصلوا إلى بيوتكم؟ فقال الجميع بأصوات مختلطة ومتداخلة :

- نعم... !

- ولاّ... !

- آه... !

- طبعاً... !

- دخيلك..... !

- طنيب عليك..... !

- نحن في عرضك..... !

- دبرنا.... !

- من شان الله... !

وكان ثمة مُجَنّد آليّ يقف بين مكعبي إسمنت حجم كل منهما متران مكعبان تقريباً، وعشرات المكعبات الإسمنتية تتوزع بانتظام أمني هنا وهناك، فتحشر السير، وترسل القلوب إلى الحناجر، وتُقعِد رقاب المارين في عنق زجاجة إسمنتية.

ثلّة من حرس الشرف يسيرون تحت)المحسوم(، وهم يتحسسون ويداعبون كلب أمن شرس، يشد حبله المتصل بمجند مختص بالتفتيش، والكلب يندفع ويكافح للتقدم إلى الأمام، باحثاً عن شيء مفقود ، يلهث ولسانه يتدلى بطول شبر من فمه. والرجال الآليون، تتعلق بأكتافهم بنادق رشاشة، وعلى جوانبهم أطقم من الأسلحة المعززة لبنادقهم، وعلى وسط كل منهم مسدس،

وأمشاط.. ليست أمشاط شعر، بل رصاص، نعم رصاص..! وقنابل مُعلّقة مثل ثمار القشطة القابلة للانفجار في أية لحظة، وأشياء لم يفهمها أبو مهيوب الجالس مضغوطاً داخل هذه الحافلة، والذي لم يصل بعد إلى المستوى العلمي للتعرف على هذه الأسلحة الفتاكة، أو أسلحة الدمار الشامل، أو أسلحة الليزر، أو أسلحة القرود... قال الرجل الآلي بلغة عربية عبرية مكسّرة :

- كل ما نريده منكم هو الانضباط، والصف بالدور، وعدم الحركة، إلا بأمر الضابط..

- حاضر يا خواجة..! قال معاون القائد.

وقالت ماجدة لتغريد المعتقلة بجوارها :

- هذا المعاون - والعلم عند الله - يشتغل مخبراً لنا كيف نتصرف؛ سلّم تسلَم. ! وقد يكون مخبراً لهم، فيبلغهم كيف تصرفنا خلال العبور..... فأجابتها تغريد :

- اتقي الله يا ماجدة، قد يكون الرجل مسكيناً، وله أطفال، ويريد الستر، ليصل إليهم سالماً، فبطشهم لا يستثني منا أحداً، ألم يقل مظفر النواب :

- أبول عليكم، .... لا أستثني منكم أحداً... !

إنهم يبولون علينا، ولا يستثنون منا أحداً، لا المعاون، ولا المتعاون، ولا حتى القائد....!

وعندما سمحوا لهم بالخروج من التابوت، أقصد بالنزول من الحافلة، تدافع الركاب نازلين، ينشدون نفساً من الهواء، وحركة لأرجلهم المكتّفة منذ زمن.. وهناك شاهدوا سيارة إسعاف تقف قبل حاجز الحدود، يتصارخ حولها رجال ونساء :

- الله أكبر..! لو تركتم السيارة تمر من الحاجز، وتصل إلى المستشفى، لعاش المولود ؟

- الله أكبر، مات الجنين في بطن أمه.. !

- يا حسرتها أمه..!

- يا حسرة أبوه وأهله. !

- يا قهر الحاجز وسنينه..!

- الولد مات..!

- الحقوا المرأة المجهضة على الحاجز، لا تزال مشيمة الجنين الميت تنزف بغزارة بين فخذيها، فالمستشفى على بعد مئتي متر عن الحاجز.. !

وراح أحدهم يستعطف الحاجز المعدني، الذي كان يقف عملاقاً في المنطقة، ويقف في وسط الطريق، فاتحاً رجليه على شكل الأمر العسكري)استرح(، بينما السيارات والمشاة، وكل شيء يمر من بين ساقيه المنفرجتين:

- يا خواجة عملنا تنسيق مسبق مع المستشفى، وقالوا لنا تعالوا.. فتململ الحاجز وقال :

- بدكم تصاريح..!

- معنا تصريح..!

- التصريح ما فيش فيه أسماء، مكتوب ثلاثة مرافقين فقط.

- طيب اسمح لثلاثة أشخاص بمرافقة السيارة..!

- اذهبوا واكتبوا أسماء الأشخاص المسموح لهم بالمرور بهذا التصريح، وساعتها أفكر في الأمر.

- الجنين مات وخلص، نحن نريد إسعاف المرأة! المرأة تموت!

- يا خواجة المرأة تموت، اسمح لها بالمرور دون مرافقين! افتح هالحاجز.. !

- التصريخ يقول: ثلاثة مرافقين، يعني ثلاثة مرافقين، وأنا لا أستطيع تمريرها وخدها دون ثلاثة مرافقين! مخالفة التصريخ ممنوعة !

- كل شيء عندكم ممنوع ممنوع، ممنوع!

وهنا غضب)المحسوم(وخرج من عقاله، وانتفض، فطقطقت عظام رقبته، وسمع كل الموجودين صوت اصطكاك الحديد بالحديد، ثم قال لهم :

- أرجعوا سيارتكم إلى آخر الصف..وبسرعة صوّب العملاق آلته الرشاشة نحو جماعة سيارة الإسعاف، فجمعت الجماعة جموعها، وأغلقت بابها، ورجعت إلى الخلف، إلى آخر الطابور الطويل.. رجعوا على أمل استحضار أسماء مكتوبة على التصريح.

xxxxx

كانت المدينة تنتشر وتتمدد قبل وبعد الحدود، وصارت تتكاثر بعض المعالم حول)المحسوم:(محل لبيع الشطائر، اسمه)مطعم الترويئة(، ومحل عجلات وخدمة سيارات اسمه)في العجلة الندامة لصاحبه أبو سريع(، وعريشة يبيع صاحبها مشروبات غازية وسجائر مهربة، مرشوش على واجهته الأمامية بالدهان الأسود عبارة)دخّن عليها تَنجَلي، وخليك قدها.. (! وعريشة أخرى مشهورة باسم صاحبها)قهوة أبو العبد، إلى الأبد. (!، وعلى الجهة الأخرى عريشة أخرى مكتوب فوقها)عبد السميع للشاي السريع(وكلا الدكانين يبيعان الشاي والقهوة، وطاولة صغيرة جداً على شكل منضدة قميئة، عليها بضعة أوراق، ومغناطيس دبابيس ورق، وملقط غسيل بلاستيكي أخضر يصطاد جميع أوراق المنضدة والطوابع المتعلقة بالعمل، والمنضدة مكشوفة تحت أشعة الشمس والحر والبرد والريح الصرصر العاتية أحياناً، يقعد خلفها رجل ستيني شائب الشعر، حليق الذقن، يبيع طوابع، ويقوم بتصوير وثائق، ويكتب طلبات تتعلق بالمرور، والأحوال

الشخصية وطلبات الاسترحام، وجمع شمل العائلات، وتجديد هوية الاحتلال، وإضافة مولود جديد، وحذف زوجة مطلّقة، وتوكيل في كل شيء، حتى في الـ..... ويتناثر في المكان على جانبي الحدود كثير من إطارات السيارات المهترئة، وأكياس بلاستيكية سوداء تذروها الرياح، فتنشبك بنبتة شوكية، أو بحجر أو بأية نتوءات بارزة، فتجد الأرض مزروعة بأكياس البلاستيك النابتة المرفرفة سواداً كالغربان المتكاثرة الناعقة في خلاء المكان.... وتقعد هنا وهناك أعداد من السيارات المكسوة بالغبار الكثيف، بعضها لأصحاب يُفضّلون الانتقال بعد الحدود بسيارات الأجرة، وبعضها لأشخاص لا يملكون تصاريح لسياراتهم، ويكون التصريح الممنوح للشخص، وليس للسيارة،)فيضطر المارق أن يمرق دون أن تمرق معه سيارته غير المارقة..(

كانت الحدود تقسم المدينة إلى قسمين، قسم تابع للدولة العربية غير المحتلة، وقسم للدولة العربية المحتلة، هكذا تم تقسيم مدن الوطن العربي، كل مدينة مكونة من فلقتين، أو فخذين؛ فخذ في دولة، والفخذ الآخر في الدولة الأخرى، وصاحبة الفخذين تفتحهما على مصراعيهما، على الحدود، فتبقى القضية رقم واحد بين الدولتين العربيتين، هي قضية البحث بين الحدود، والإشارة بالإصبع على الحدود.. حدود.. حدود.. دود.. دود.. وبالتالي رسم الحدود، فهل يتم الرسم بالمحسوم، أم بقطع الشوارع بحفريات عميقة وتلال ترابية مستخرجة من الحفريات، أم بالأسلاك الشائكة المكهربة، أم بالمكعبات الإسمنتية الضخمة، أم بالجدار العازل الذي برز أخيراً كالفطريات السامة في كل حقول فلسطين؟ !

كان المستشفى التخصصي في النصف الآخر من المدينة، التابع للولاية العربية غير المحتلة، وسيارات الإسعاف الفلسطينية ترسل المرضى؛ ذوي الحالات الخطيرة إلى الجهة الأخرى، ولكن الاحتلال يحسم الموقف بشكل حاسم، بوضع)المحاسيم(.

شاهد قائد الحافلة جماعة سيارة الإسعاف المغدورة يتراكضون ويتدافعون

حول الميِّت، وهو ما يزال قاعداً على كرسي القيادة، فقال الرجل الآلي للقائد :

- لماذا يتدافعون، لماذا يتدافعون؟ أنتم عرب متخلفون، لا تفهمون النظام، ولا تعرفون كيف تصطفون بالدور..! لم يجبه القائد، ولم يقل له :

- إن هؤلاء المتدافعين، لا يبغون شيئاً أكثر من إنقاذ ما يمكن إنقاذه.. مات الجنين، وبقيت الأم، رجل في الدنيا، ورجل في الآخرة..

نظر)المحسوم(إلى هؤلاء الرعاع المتخلفين حضارياً، والذين ينزلون متثاقلين من الحافلة إلى ساحة التفتيش، فأمر قائدهم قائلاً بصوت عال:

- لم أسمح لكم بالنزول.. لم أعط إشارة النزول.. أنتم تخالفون التعليمات.. ورا..يا الله ورا.. ارجع أنت وباصك إلى آخر الدور..

- يا خواجة نحن...

- قلت لك ارجع يعني ارجع.

وسحب عليه أقسام الرشاش، فتراجع القائد، وقال له :

- أمرك سيدي. اصعدوا إلى الحافلة يا جماعة، فقالت الجماعة بأصوات متداخلة بعضها مع بعض:

- الله أكبر.

- ولّ عليه.

- دخيل الله.

- قتلتونا..!

- متنا..!

- تخدّرت أرجلنا.. !

- والله لو كنا أغناماً لسمحوا لنا بتحريك أرجلنا قليلاً.. وصاحت

امرأة:

- يا ناس، طفلي سيموت بالمراجعة والإسهال والحرارة المرتفعة! وقال أبو مهيوب :

- يبدو أن هذا العجوز المجاور لي على المقعد، قد توفي!

وبعد عودة كل منهم إلى مقعده، تراجع القائد بحافلته إلى آخر صف السيارات الذي صار على بعد خمس مئة متر إلى الخلف، وقعدوا هناك بانتظار أن يتقدموا من جديد.. كان تقدمهم يشبه)حجر سيزيف(، كلما تقدم مسافة طويلة صاعداً به قمة الجبل، وقع الحجر فتدحرج، فعاد مسافات طويلة إلى الوراء لالتقاطه وحمله، والعودة به من جديد..

ومن هناك، من الآخر، ابتدأت الحافلة تتقدم من جديد.

وعند منتصف الليل، كان قد بدأ تفتيشهم، وذهب أبو مهيوب إلى غرفة تشليح الرجال، بينما دخلت ماجدة وتغريد، واحدة تلو الأخرى إلى قسم تشليح النساء.

- اخلعي كل ملابسك هنا، وانتقلي إلى الغرفة الزجاجية التالية، وسنناولك ملابسك من الشباك الزجاجي، والبسيها على مهلك.. قالت المرأة الآلية لماجدة، فامتثلت ماجدة للأمر، وخلعت ملابسها، ولم تبق غير حمالتي نهديها، وسروالها الداخلي، ولكنها أمرتها بقسوة:

- اخلعي كل شيء، وإلا ستعودين إلى آخر الدور خلف المحسوم، ثم تتقدمين بعد عمر طويل إلى هنا، لتخلعي أمامي كل شيء من جديد... ! لا تخافي، الغرفة مغلقة من جميع الجهات... نحن نصور بالأشعة فقط، ولا نلمس شيئاً بأصابعنا.. تكهربت ماجدة مرعوبة وهي تمد يديها لتخلع آخر خيط يغطي أنوثة جسدها أمام المفتشة الآلية، ولكن الآلية طمأنتها قائلة :

- لا تندهشي، فنحن نعيش في عصر الشفافية!

خلعت ماجدة كل شيء، ودخلت إلى الغرفة الثانية عارية كما خلقها ربها، وهي منكمشة على روحها، وتغطى كنوزها بيديها الاثنتين، ثم استلمت ملابسها من شباك الغرفة الأولى، ولبستها أمام المفتشة الثانية، التي كانت تراقبها وتتفحص جسدها العربي الجميل، والذي بدا متناسقاً تناسق جسد مهرة عربية أصيلة، ولكنها مَذلولة... خرجت من هناك مستورة، ولكنها مسودّة الوجه وحاقدة !

وهكذا فعلت تغريد، وكل الصبايا اللواتي مررن قبلها، وهكذا تفعل كل الصبايا اللواتي تمررن بعدها. كانت المجندة الآلية تغار من جمال أجساد الصبايا العربيات اللواتي تعاينهن، لدرجة تولدت عندها رغبة مكبوتة.....!

وعند منطقة الجمارك، دفعت كل منهما الشيء الفلاني، قيمة جمارك باهظة على الهدايا البسيطة التي أخذتها لأهلها وذويها.

بحث أحد الرجال عن حذائه الذي تأخر كثيرا حتى خرج من فتحة غرفة التفتيش، متقدماً على قشاط الأمتعة المتحرك، وأخيراً وجد حذاءه يتقدم نحوه مربوطاً بعقاله الأسود..! انكمش وتقزمت هيئته والتقطهما بكرامة ملوثة، ولكنه لم يقدر أن يبتّ الحصوة، ويناقش مسألة العقال - شرف العرب - المربوط بالحذاء..!

كان صوت محمد عبد الوهاب يغني صادراً من مذياع الحافلة:

)أشكي لمين الهوى والكل عُذّالي

أضحك لهم، والبكاء غالب على حالي...(

وكان الركاب قد وصلوا إلى إرهاق لا يستطيعون معه أن يناقشوا، أو يعارضوا، أو حتى ينطقوا بكلمة واحدة غير :

- أمرك يا خواجه..

- حاضر..
- مفهوم..
- معلوم..
- صحيح..
- فوراً..
- مضبوط..
- كويس..
- ممتاز..
- آسف..
- حاضر..
- طيب..
- موافق..
- مرتاح..
- راضي.....
- مبسوط..

واستمر القول هكذا، حتى خرجوا من ربقة معتقل الحدود !

أخذتهم سيارة أجرة، من الحدود إلى معسكر الحصار.. كان سائق سيارة الأجرة رجلاً خمسينياً، أصلع، كث الشعر الأشيب المحتشد حول رقبته وتحت أذنيه، وذقنه غير حليق، وملابسه رثّة، وبقايا عينيه مُفَعّصتان.. يمضغ الكلام فيتلفه قبل أن يتفوه به، وخلال الطريق شرح لهم قصة حياته قائلاً :

- عذاباتنا مع المحتلين من جهة، ومع الناس الذين يدفع بعضهم بعضاً في سوق يتلاطم فيها الخلق كما تتلاطم آلاف الأسماك في حوض ماء صغير

ضحل..! كل يريد أن ينهش الآخر ليعيش..! الحياة معركة متعددة الجبهات، فنحن ننهش بعضنا البعض، والاحتلال ينهشنا جميعاً..! نحن كالسمك يأكل بعضنا بعضاً، ولكن الاحتلال مثل شبكات بواخر الصيد العملاقة، تشبكنا وتجرفنا جميعاً، ثم يتلذذون بخيراتنا..!

كان يثرثر بكلماته المخنوقة كمرجل يغلي ويفور بما فيه من عذابات، بينما أبو مهيوب والبنتان مخدّرون من عناء السفر.. يسمعون ولا يسمعون ما يقوله السائق الذي واصل كلامه قائلاً: كل هذا كوم، وامرأتي وأولادها كوم؛ المرأة مريضة، وكل يوم تريد أن آخذها للطبيب، وأنا لا أملك أجور الأطباء، ولا أجور نومها في المستشفى، ففي أحسن الأحوال، أستشير الصيدلاني، فيصف لي دواءً، أشتريه لها، وفي معظم الأحوال، أقول لها اغلي ماءً مع ميرمية، أو جعدة أو شيحاً أو قيصوماً، واشربيها، فيخف عليك الألم، أو استشيري الداية أم خليل، فالملعونة أم خليل خبيرة بأمراض النساء والتداوي بالأعشاب، ولكن ماذا تنفع الأعشاب، عندما يكون الولد عنده فشل كلوي بسبب المياه الوسخة التي يتنازلون لنا عنها لنشربها، والولد الأكبر منه عنده يرقان وصفار وفقر دم، وابنتي الثالثة عروس في التوجيهية، جاءتها رصاصة مطاطية في كتفها، فشلّت نصفها الأيسر، وقعدت في البيت، والرابغة في كلّية المعلمات، عندها أزمة صدرية خانقة لاستنشاقها غازات القنابل المسيلة للدموع التي يقذفونها عليهنّ داخل الكلية، بينما الدرس شغال، فينطفئن صرعى داخل صفوفهن، وهي الآن لا تقدر أن تخرج من البيت..! وصارت عندها حالة مرضية، أثّرت في صدرها وكبدها الذي تشمع بهذه الغازات..! يقولون إن هذه الغازات التي يقذفونها على مدارس البنات ليست مسيلة للدموع فقط، بل معقمة جنسياً، فلا ينجبن بعد ذلك، هذا إذا تسنى لهن أن يكبرن، ولم يمتن على طُرُق المدارس قبل أن يتزوجن. وإلا لماذا يقذفون هذه القنابل الدخانية على الطالبات، وليس على الطلاب، وفي داخل الصفوف المتراصة المكتظة بالصبايا

الطفلات؟ مصائب تتراكم فوق مصائب، وكل هذا يقع أخيراً على كاهل الرجل الذي يحمل الأمانة، ويتحمل تبعات عذاب هذه الحياة..!

انتبه السائق إلى أن أحداً لم يتحاور معه في حديثه هذا، ولم يعرف أن الكل ذائب بسبب عذابات السفر...فتابع شكواه قائلاً: وهذه السيارة آخذها من صاحبها بالأجرة اليومية، وكل يوم بيوم، وصاحب السيارة يأخذ مني يومياً مئتي شيكل، على البارد المستريح، وأنا أركض بسيارته ليل نهار، فلا أحصّل هذا المبلغ، ولكن ما باليد حيلة، ماذا أفعل، فأنا لا أستطيع العمل مع عمال المياومة الذين يسهرون بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً، ليُحَصِّلوا الدور في الدخول إلى أراضي الثمانية وأربعين، للعمل هناك في الأشغال الشاقة، وحمل الإسمنت والرمل والطوب والباطون، لبناء الفلات للمستوطنين، ولا يعودون إلا في الساعة الحادية عشرة ليلاً، يحضرون قوت أولادهم الذين لا يرونهم إلا وهم نائمون، وينامون ساعتين أو ثلاث ساعات، ثم يقومون ليلحقوا بالطابور الطويل المحتشد منذ الفجر في صراع البقاء...! صدقوني يا جماعة إنني لم أدفع أجرة البيت منذ ستة أشهر، وصاحب البيت الذي تحمّلنا مشكوراً، سيطردنا من السكن والسكون، وسوف نلتجيء للنوم في ما حول المسجد، أو تحت خيمة في الشارع..!

ذكر السائق لهم كل هذا، ويبدو أنه متعود على مثل هذه الثرثرة، ليمضي وقت العمل من جهة، وليفضفض عن قلبه وضيق حياته من جهة ثانية، وليشحنهم كي يشعروا مع المواطنين القابضين على الجمر من جهة ثالثة، وكمقدمة لطلب ضعف الأجرة المتعارف عليها لسيارته، كنوع من الشفقة والتعاون والتعاضد والتكاتف والتلاحم والتراحم، والمشاركة في تحمل المحنة الوطنية من جهة أخيرة.. لم يتفوه أبو مهيوب، ولا أي من البنتين بكلمة، وكل الذي فعلوه هو أن دفع المحرم كل ما طلبه السائق، رغم اعتراضات)أبو غازي(، الذي كان يقف في استقبالهم عند باب الدكان، وبعد الترحيب بهم والقبلات والأحضان، قال للسائق: هذه الأجرة التي تطلبها مضاعفة..! ولكن)أبو مهيوب(دفع بالتي هي أحسن.

الغول

منذ استشهاد الطفلين؛ جعفر الأسمر ونضال شلهوب، بدأت أفكار الحداد جهاد الأسمر تتغير، فصار يشعر بالخطر المحدق يقترب منه، وكأن صدمة عقلية قد أصابته، صار يفكر بأخيه جعفر ليل نهار، ويراه يلعب أمامه، ويقفز من بين السيارات المسرعة، ويقعد على الأرض المزروعة بالنفايات، ويقترب منه وهو يضحك، ويمد يده طالباً مصروفه، فيمد جهاد يده بالنقود، فيستغرب الحضور تصرفاته، ويسأله زبون يقف لاستلام بابه الحديدي، لماذا تمد يدك بالنقود؟ وهل تقصدني بذلك؟ ماذا تريد؟ ولماذا تتصرف هكذا؟ فيخجل جهاد من تصرفه اللامعقول، ويعود إلى عمله.

ظلت صور أخيه جعفر تلازمه في الليل والنهار، وتلحُّ عليه ليأخذ بثأره، كان يمد يده إلى جهاد مناجياً مستعطفاً :

- أنقذني..! خذ بيدي..! اسحبني إليك.. احضنّي.. أعدني إلى بيتنا.. لدرجة أنه شعر بعدم توازن وهلوسة، فقرر تخفيف أعماله المهنية، وراح يبحث عن شباب المقاومة، حتى تعرّف على أحدهم، فطلب منه أن يقعد معهم، وعندما عرفوا صدق توجهه، تم تنسيبه إلى خلية مقاومة إسلامية، وفي جلستهم الأولى راحوا يتناقشون في تطوير أساليب المقاومة، فها هم وأطفالهم يُقتَلون،)عينك عينك...(!، وبدم بارد، تأتيهم رصاصات مثل المزاح السمج، فيموتون مثل نكتة أو كذبة أو دعابة، الجنود الصغار المنتشرون في كل مكان يداعبونهم، يزغزغونهم، يلعبون معهم الطمّيمة، يعصبون عيونهم، ويقولون لهم: ابحثوا عنا.. ولكنهم وبعد اعتقال نظرهم، وتسويد الدنيا في عيونهم، يطلقون عليهم الرصاص الحي! لا ليست مزحة!

إنها حقيقة. القتل حقيقة، بعض المعتقلين يُحشَرون في سراديب مظلمة، ثم يُصَفّون جسدياً، نعم يُقتَلون بدم بارد.. والمقتولون لا يعودون إلى بيوتهم، بل يُحملون إلى المقابر..! الشهداء يمرون بطريقهم إلى الجنة..! الموت حقيقة، وليس حكاية..!

كان الغول يا شاطرين يقف على باب المعسكر، ويهاجم كل يوم طفلاً صغيراً، يلتقطه ، ويأخذه إلى مغارته، وهناك ينهش لحمه بنهم، ويقرمش عظامه الطرية بطريقة حضارية، ديمقراطية، متعددة الجنسيات. يسمع أطفال الحارة حكاية جهاد، فيخافون، ويتحسسون أجسادهم، فيتأكدون أنهم ما يزالون أحياء، فيحمدون الله على تلك النهاية الخرافية، ولكن جهاد بأم عينيه شاهد الغول يأكل أخاه جعفراً، ونضالاً أخا خطيبته تغريد، وهو الآن تائه لا يدري كيف ينتقم لهما ولغيرهما من أطفال المعسكر. لا يمكن أن يمر هذا القتل بدون انتقام..) !وبشّر القاتل بالقتل، ولو بعد حين!(

وفي اجتماعهم السري الأخير الذي عقدوه في مكان ما، اتفقوا على أن يقوموا بتدريب الحداد جهاد على صناعة متفجرات معدنية، توضع تحت المركبات، فتنفجر تحتها، فارطة عقدها، فيقع سروالها بلا مؤاخذة، وتنكشف سوءتها، فيضحك الأطفال المتجمهرون على عورتها، وتنفكّ عقد ألسنتهم، خاصة بعد استشهاد الطفلين جعفر ونضال. وهكذا تمّ، فصارت محددة العودة تشتغل أبواب الحديد والفرنيات نهاراً، ولكن الحداد جهاد يأخذ آلة لحامه وأجهزته المعدنية، ومواده الناسفة، بشاحنته الصغيرة إلى غرفة بعيدة، في مزرعة مهجورة، خصّصوها لنشاطاتهم المقاومة، فيصنع فيها قنابل المتفجرات الثقيلة ليلاً، وبعد أن يجهزها حسب المواصفات التي علموه إياها، كان ينقلها في صندوق كرتوني، أو كيس يحمله على ظهره، ويوصله إلى مغارة متفق عليها، أو يضعها تحت شجرة معينة، أو بجوار شيء معروف، ويتصل بأحد الرفاق ليأتي فيأخذ)البطيخة(من ذلك المكان،

وأحياناً يسمّون المتفجرة)قلم الرصاص(أو)ضمة الخبيزة(، فلا يعرف الآخرون غير البطيخ أو الخبيزة.

يأتي الأخ إلى المكان المحدد، فيحمل الكيس ويذهب به إلى مكان لا يعلمه الحداد جهاد الذي صنع المتفجرة، وفي نفس الوقت، لا يعلم المقاوم من هو الذي وضع هذا الكيس، ومن الذي صنعه، يحمله هكذا بدون سؤال أو انتظار جواب.

كان الاتفاق على ألا يبلغ أحد زميله عن اسمه، أو أسماء زملائه، بل يذكر اسماً حركياً مثل عبد الله، أو عبد الغفور، أو عبد الرحمن، أو..... وهذه الأسماء التي هي حسب قناعاتهم)خير الأسماء ما حُمِّد وعُبِّد(كثيرة. لم يكن أحد يَعرف المكان الذي خرجت منه المتفجرات، ولا المكان الذي ستذهب إليه، أو مصيرها، سوى حاملها، فلا يملك الاعتراف إذا ما اعتقلوه، وهكذا تتم العملية فرادى، بحيث لا يعرف الأخ أين يذهب أخوه،)وكل في فلك يسبحون(، هكذا كانت التعليمات، فإذا ما اعتقل مقاوم، وعُذِّب ونُتف ريشُه، فإنه حقيقة لا يعرف من أين أتى بالمتفجرات، ولمن أرسلها... ! وهكذا)تضيع الطاسة!(

كان لا بد من المقاومة يا إخوان، لأننا لو لم نقاوم في صبرا وشاتيلا، لكانوا قد أجهزوا على المخيمين؛ بأطفالهما وشيوخهما ونسائهما، ولكن أهالي المخيمين الذين كانوا محاصرين، وبعد أن شاهدوا القتل على كل الأبواب، وأنه لن يسلم منهم أحد، وأن اللعبة مستمرة، قرروا المقاومة، وهاجموا القتلة، فتوقف القتل، ونجا من أشعل روح المقاومة..! المقاومة يا جماعة هي الحل الوحيد للبقاء، مجرد البقاء، نحن لا نريد ان نرميهم في البحر كما يدّعون، ولكننا لن نتركهم يستمرون في دفننا في الصحراء كما يفعلون..! هكذا خطب فيهم رجل ملتح، اسمه عبد الغفور، ثم أغلقت الجلسة أمام الفضوليين أمثالي أنا العبد لله، سارد هذه الرواية، والذي لا

تخفى علي خافية،)استغفروا الله لي ولكم(أغلقوا الجلسة، فإذا بي خارج الحلبة، لا أعرف بماذا يفكرون، وماذا سيفعلون.. ولو حضرت اجتماعهم لرويت لكم بالتفصيل ما اتفقوا عليه، ولكنت فضحتهم، فأنا راوية، لا أؤتمن على سر، ولهذا أخرجوني من بينهم بلباقة، وبلا مطرود..!.

•

xxxxx

•

عند عودتها من ولايه الرمال، لم تشعر تغريد بأن جهاداً - الذي أصبح ملتحياً - متلهف لرؤياها، كما كان سابقاً، صحيح أنه جاء وزار أهلها بمناسبة عودتها بالسلامة، وقعد معهم، وذكر الله كثيراً، وكان طوال الجلسة مطأطئاً رأسه في الأرض، ويعدُّ بإبهامه على الخنصر والبنصر والسبابة والشاهد، ويذكر كلمات دينية، ويستغفر الله العلي العظيم، ويتوب إليه، ويندم على ما فات، ويسعى للشهادة، ويطلب الجنة.

لم يكن الرجل أمام تغريد كما عرفته؛ ملهوفاً عليها ومتيماً بحبها، ويتمنى رؤياها، ومشتاقاً لها، وعنده لوعة، كان كما يبدو مشتاقاً لله، ومتوجهاً للقاء وجه ربه، ومستبشراً بعبق ريحان الجنة، وهادئاً رزيناً وقوراً، وعندما سألته تغريد عن حاله، قال لها: بخير من الله، ونطلب عفوه ورضاه، وننتظر بالدور لدخول الجنة.. كلنا على الطريق يا أختي، وما الدنيا إلا دار الممر، والآخرة دار المقر، ونحن نتأهب من ممرنا إلى مقرنا.

دهشت تغريد من قوله لها: يا أختي..! كيف تكون أخته، وهي مخطوبة له؟ صحيح أنه لم يكتب كتابه عليها، ولكن المتعارف عليه..!

وتابع جهاد قوله لها: ما داموا يتقدمون ولا يرهبون الموت، فالأولى أن نواجههم، ولا نرهب الموت؟ الموت قادم قادم، فلماذا لا نستقبله بدل أن

نستدبره ؟

وأمام صمت أفراد العائلة كلها، وحزنهم، وتفهمهم لموقف جهاد، وتغير نفسيته وسلوكه تدريجياً، ونفخ إخوته في التنظيم روح الجهاد فيه، ليكون حبيب الله، وقريب الرسول في الجنة، تابع جهاد قوله لتغريد:

- بالأمس دخلت المحددة، فصادفت فأراً في منطقة محصورة، فهاجمته بعصا المكنسة، فما كان من الفأر المُحاصَر، إلا أن اندفع باتجاهي، ودخل في رجل بنطالي، فانفعلت ونفضت رجلي، فخرج الفأر من المعركة سالماً... أقول إذا كان الفأر المحاصَر لم يستسلم، بل قرر المواجهة، فكيف لنا نحن المحاصرون، أن نهرب من المواجهة.!

- ما هذا الشاب الملتحي المُتلَف؟ إنه ليس جهاداً الذي أعرفه! ما الذي جرى يا أمي؟ سألت تغريد أمها بصوت خفيض. فقالت لها أمها:

- بعد استشهاد جعفر ونضال بفترة، لم يعد جهاد هو جهاد الذي نعرفه، لقد تغير خطيبك يا تغريد، وصار رجلاً آخر، وكما تلاحظين، كان يحلق وجهه، فأطلق لحيته، وقَلّ حديثه، وصار يقضي وقته في المسجد، ولم يعد يسألنا عن كتب كتاب، ولا عن زواج، ولا عن شيء من هذا القبيل !

- ألا يكون كتبُ كتابنا على)أبو مهيوب(قد أضر بنا، فارتفعت نفس جهاد عن الرغبة بي ؟

- ليس هذا هو الموضوع يا ابنتي، فهو يعرف أن الرجل بمثابة والد لكما، وأن الكتاب صوري، وأن الظروف تهد الحيطان، وأن الضرورات تبيح المحظورات ...!

حرارة الصيف

لم تكن تغريد وماجدة فرحتين بوجودهما مع أهلهما، ولم يختلف كثيراً شعور)أبو مهيوب(بعودته إلى معسكر جريح قاعد على الأرض وينزف دماً، حتى بوجود بناته اللواتي استقبلن والدهن استقبالاً حزيناً باكياً، معفّراً برمال الجرافات التي هدمت بيوت وعمارات حي سلام الشجعان في قلب المعسكر، وسوّتها بالأرض بهدف خلق شارع عريض جداً، على شكل مدرج مطار يقسم المعسكر إلى قسمين، بحيث تستطيع طائرات لحاف يمن لبعيدة المدى الهبوط والانطلاق منه باندفاع سريع، باحثةً عن فارّين أو مطلوبين أو مقاومين إرهابيين كي تأخذ معها أرواحهم إلى السماء.....!

خرجوا جماعات مُعفّرة أو مجرّحة أو مقطّعة من تحت ركام العمارات، أخرجوهم من بيوتهم المهدمة بالملاقط، ورموهم في الساحات العامة، وبسرعة - ودون الدخول في تعقيدات سحب البانصيب - أهدوهم خياماً، هدايا مجانية من قوات التحالف ضدهم.. وبكل احترام وتقدير نصبوها لهم في الساحة الرئيسة للمعسكر، تماماً مثلما يخلعون الأشجار من جذورها، وينفضونها، ثم يكومونها بهدوء وعناية على شكل جبل من حطب، تجف على مهلها في الأرض الخلاء.....!

قعدت خديجة هي وأولادها وزوجها المُعَطّل عن العمل تحت خيمة كشفية مزركشة، مثل تلك التي يلعب بها أطفال الأغنياء صيفاً، في بلاد السعادة والهناء.

كانت الساحة الرئيسة للمخيم تزدحم بالناس. والمهدومة بيوتهم بجرافات الكاتربلر الجبّارة الناشطة في تجريف شعب الجبّارين يقعدون مؤدبين في

الساحة الرئيسة، وينضوون تحت كرم وعطف وحنان الخيام المزركشة الفرائحية، والأطفال يلعبون ويلهون بمتعة الرمال المتطايرة، ويتصدون ببسالة للرياح الصرصر العاتية التي تهب عليهم من الغرب، فتعفر الغبار في وجوههم، وتقتلع خيامهم الجديدة الحلوة من قيعانها. !

xxxxx

وفي جلسة أهلية، قعد أبو غازي وماجدة وتغريد وأبو مهيوب على صناديق خضار وكراسي قش مخلّعة أمام دكان الفالوجة، وقالت ماجدة متألمة:

- ما هذه العيشة التي وعدنا بها ربنا !. فأجابتها تغريد ساخرة:

- لقد هجّرونا عام ثمانية وأربعين، ثم هجّرونا عام ستة وخمسين، ثم هجّرونا عام سبعة وستين، ثم هجّرونا عام سبعين، ثم هجّرونا عام ثلاثة وسبعين، ثم هجّرونا عام اثنين وثمانين، ثم هجّرونا عام واحد وتسعين، وها هم يهجّرونا للمرة التاسعة والتسعين، بعد خمسين سنة مما تعدُّون، وكل خمسين سنة وأنتم في مخيم جديد..... مخيم في المخيم.. تخييم الخيام المخيِّمة في خام خيام المخيّم..! وكل مخيم وأنتم بخير. !

- ومن أين يأتي الخير؟ من وكالة الغوث ؟!

- ولكن الوكالة لا تستطيع إطعام جياع العالم، ذلك لأن الجياع صاروا هم الأغلبية المطلقة.

- قرأت في صحيفة الفقر أن ٨٠٪ من العالم مخنوقون بالجوع، و٢٠٪ من سكان العالم مخنوقون بالشبع.. يطفحون..! إنهم يشبعون حتى

حلوقهم، ولذلك تنسد حلوقهم شبعاً، ولا يبقى ممر للقصبات الهوائية، فيموتون مخنوقين شبعاً... ! شبع في كل شيء، شبع في الرغبة مهما كان نوعها... شبع في كل شيء...! شبع لدرجة أن المليارديرة محاسن أوناسيس أغنى مليارديرة في العالم، قد اختنقت بشدة الشبع، فانتحرت وماتت، اختنقت بتدفق الإيرادات.. إيرادات مالية ومعنوية تشتري كل شيء، تشتري الخدم والحشم والوجاهة والجمال والشهرة والسمعة والصيت وتلميع الصورة والمتعة واللذة واللحم....، وتشتري الكُلية والكبد والقلب والعقل واللسان للأغنياء، إيرادات مالية تشتري كل شيء، وقالت الصحيفة إن أموال أبيها المرحوم جواد أوناسيس قد انهالت فوقها، فوقعت المستورة وماتت، مثلما انهالت على الجاحظ كتبه، فوقع المسكين تحتها ومات، ولكن الجاحظ يا حرام - مات فقيراً تحت ركام الكتب..!

وقال أبو مهيوب لأبو غازي ساخراً :

- صارت الساحة الرئيسة مكاناً عاماً لكل اللاجئين والنازحين والمُهجّرين والمجرّفة بيوتهم..! فأجابه أبو غازي بسخرية على سخرية :

- ليس المجرفة بيوتهم فقط، فالشعب يا أخي يُجّرف كله اليوم إلى الساحات العامة. اليوم هو يوم الحشر والنشر والصراط المستقيم والحساب والعقاب والعذاب والنار التي وقودها الناس والحجارة قد خصصت للشعب الفلسطيني، لقد بدأوا الآخرة بهم.. مجرد تجارب ليوم الحساب، وبعدها يأتي الطوفان العظيم..! وتعطلت حركة السيارات في الساحة الرئيسة..! وعبّرت تغريد عن شعورها قائلة :

) -وتعطلت لغة الكلام.... وخاطبت عينيّ في لغة الهوى عيناك.. يا فلسطين..! عيناك الزرقاوان الواسعتان اللتان ورثتهما من مدى البحر، وجسدك المغسول بزبد البحر الأبيض..! أحدّق في عينيك المجرفتين يا فلسطين، فأبكي..!

سأل أبو مهيوب عن السبب الذي جعل بناته الثلاث؛ هاجر ومريم وخديجة لا يتفحصن الملابس التي أحضرها لهنّ، بالرغم من حاجتهنّ لكل خرقة بالية تستر أجسادهن وعورات أطفالهنّ، وتدفئهم من البرد..! فأجابه أبو غازي :

- مؤكد أن)حشيشة قلوبهن ذائبة(.. فوافقه أبو مهيوب :

- أشعر بشدّة معاناتهنّ وكثرة العيال، وظلم أزواجهنّ الذين يواجهون بدورهم ظلم الشارع والمحتلين، فَيُنَفِّسون عن عذاباتهم بأن يقوموا بالتنكيد على نسائهم، وسبِّهن وشتمهن...

- يشعر الإنسان أحياناً بأن رائحته نتنة، فيدب نفسه في الماء الطاهر، ويسبح ويتلوى كثيراً لينظف نفسه، فيوسِّخ الماءَ النقيّ، وهكذا يشعر المفعول به أنه يفعل شيئاً ويصبح فاعلاً، فينتفي عنه الشعور بأنه مفعول به..! وقالت ماجدة مؤيدة :

- لاحظوا أن السيارة التي تصطدم بها سيارة من الخلف، تفاجأ بأنها تضرب السيارة التي أمامها..كل سيارة مفعول بها تتحول إلى فاعلة، دون إرادة سائقها.. وختمت تغريد لهم بقولها:

- والعدو الذي كان مضطهَداً داخل)جيتو(أوروبي صغير، تجده قد كسر قيوده، وخرج من قمقمه)الجيتوي(، وكي يثبت تحرره، تجده يهاجمنا ويقتلنا، ثم يبني لمن لم يمت منا جدار)جيتو(كبير، يتمدد على الوطن كله، تجده يفعل ويفعل ويفعل بهدف التخلص من عقدة المفعول به..!

وخلال تلك الجلسة، شكر أبو مهيوب صديقه)أبو غازي(الذي ساعد ابنته خديجة وأفراد عائلتها المنكوبين، والتقطهم من بين مخالب الجرافة الكاتربلر، التي جرّفت عمارات حي سلام الشجعان كله، لتفتح شوارع عريضة في بُطون المواطنين، ويومها قامت الآليات العملاقة بتجريف شقتهم،

ضمن ما تم تجريفه من عمارات، فقرر أبو غازي أن يُسكن الابنة المنكوبة وعائلتها في بيت والدها المغلق، والذي كان قد تركه أبو مهيوب أمانة برعايته. ورد عليه أبو غازي قائلاً :

– لم نشأ أن نربكك في الغربة، ونبلغك عن تجريف بيت ابنتك خديجة، فتُجَن وتترك ابنتينا هناك، وتأتي فارعاً دارعاً، لتقوم بالواجب، ولكنني وبالتشاور مع من يهمه الأمر، تصرفت بسرعة، ونقلتها هي وأطفالها وزوجها إلى بيتك هذا.. فقال له أبو مهيوب :

– والله إن سكن ابنتي خديجة في البيت، هو عين العقل، يكفي أنها ستملؤه أطفالاً يسرحون ويمرحون، ويقاومون قاتليهم، فلولا وجود الأطفال، لحدث فراغ في المكان، والطبيعة تكره الفراغ، ولو ترك البيت فارغاً، فسوف يكون مسرحاً للفئران، التي تسيد وتميد فيه..!

وعند ذكر الفئران التي تسرح وتمرح في أرجاء البيت، قالت ماجدة ساخرة: لقد قرأت في مجلة ثقافية أنه إذا ما تعرضت الأرض لحرب نووية، ومات فيها كل الناس، وانقرضت الحيوانات، فإن الفئران سترث الأرض، وذلك مما اكتشفوه بعد جريمتي قنبلتي هيروشيما وناجازاكي اللتين قذفتهما أمريكا في الحرب العالمية الثانية، كأسلحة دمار شامل على اليابان، وبعد عشرين سنة من ذلك التاريخ، بدأت بوادر الحياة تعود إلى أراضي المنطقتين، وأول الحيوانات التي خرجت من بين الأنقاض، كانت الفئران، وهذا يدل على أنه إذا ما تعرض معسكر الحصار لأسلحة دمار شامل، وتلاشى الفلسطينيون، ولم يبق لهم أي أثر في المنطقة، فإن الفئران سترث الأرض التي كانوا يعيشون عليها، وتعسكر فيها..! وسيظهر من بينها زعيم للفئران، يجلس على كرسي الحكم، وتخيلوا معي كيف سينتشر حول الفأر الكبير كثير من الفئران الخدم والحشم، والفئران المجندين لتحقيق حاجات ومتطلبات وأوامر سرِّية، يوعز بها الفأر العظيم. ! تخيلوا كبير قوم الفئران،

وهو متربع على كرسي عظيم، يكاد يصل مسنده إلى السماء، وهو يشفط دخان النرجيلة من أنفه، ويخرج دخانها الكثيف من فمه، وهذا الفأر الصغير يضع جمرة تصليحة، وهذا الفأر السمين يضع مُعَسَّلاً من نوع تفل تفاح أصلي، وذاك الفأر القميء يركض مُحضراً كتباً ووثائق قانونية، يقرضها الفأر المهول بهدوء وتمعن، ثم يختمها بإبهام رجله اليمنى..! والكل في شغل شاغل، وإرباك دائم. !

ضحك أبو غازي وأبو مهيوب والحاضرون، على ماجدة، وعلّق أبو غازي قائلاً: صحيح إنه شر البلية ما يضحك..!

فكر أبو مهيوب في الفئران التي يمكن لها أن ترث بيته، فقال:

لا يقاوم الفئران إلا زيادة المواليد من البشر، وإن إسكان خديجة وعائلتها في بيتي ليتوالدوا ويتكاثروا، هو نوع من المقاومة..!

دفع أبو مهيوب إلى بناته كل ما جمعه من ولاية الرمال، ووزّعها بين النساء الثلاث، وعزّز مواقفهن أمام الله، وأمام أطفالهن، وكذلك أزواجهن، فبكت بناته كثيراً، وقالت كبراهن هاجر :

- الله يرحمك يا أمي، ويا أخي مهيوب. وقالت وُسطاهن مريم :

- عندما كنا صغاراً، كنا نلعب، ولا نشعر بالمسؤولية التي نعاني منها اليوم. وقالت الصغرى خديجة :

- أدامك الله لنا يا أبي، وأطال الله عمرك. نحن نحبك كثيراً يا أبي، ولكن الحياة صعبة، وهي التي تلوي أعناقنا، فتؤلمنا وتجعلنا مكفهرات الوجوه. !

XXXXX

وبعد أيام من الصمت حول ارتباط غازي بماجدة، هاتف غازي أهله، وكلّم أخته تغريد، فسألته عن علاقته بماجدة، فقال لها إنه قد استقرّ هناك في أمريكا، وإنه لا يستطيع العودة في الوقت الراهن، وإنه يعتذر لماجدة عن الخطوبة التي ألزمه أبوه بها، ولقد تورط في الحياة هناك، ولم يعد ممكناً زواجه من ماجدة، وليس بمقدوره سحبها لتعيش معه هناك، وقال لها: إن المفاهيم هنا مختلفة، فالطعام والشراب والأكل واللبس والعمل والمزاج والتعاون والزواج والطلاق وكل شيء هنا مختلف، ولذلك فأنا غير قادر على العودة إلى حياة المعسكر. قولي لها إنها في حل من تعهدات والدي، وقولي لأبي ألا يخطب بعد الآن طفلة لطفل..!

صدمت تغريد بحديثها المطوّل مع غازي، تماماً كما صدمت ببرودة جهاد نحوها، وبحرارته الزائدة نحو رجال المقاومة، كانت الأمور تتفاقم سريعاً، وتخرج من بين أيديهما، هي وماجدة.. ما هذه الصداقة التي تجمعنا على بؤس وحظ عاثر.. ؟ وما هذه الأزهار التي تُقطَع أعناقها قبل أن تتفتح؟

وعند التقائها بماجدة، صرّحت لها بما سمعته من غازي، ولاحظت الصديقتان أنهما في الهمِّ شرق، وأن الظروف ليست سالكة، وأن مستقبلهما.....! كانت كل منهما تعتقد أن في عودتها إلى أرض الوطن زواجاً ومستقراً لها، فإذا بالظروف تتعقد، والغربة ليست في البعاد، وها هي كل منهما غريبة داخل بيت أهلها، والوضع المعيشي للعائلتين أسوأ مما كان، وكأنهما تحاولان ملء قربة مقطوعة!

×××××

أصبح وضع دكان أبو غازي أسوأ من ذي قبل نظراً لضعف القوة

الشرائية عند الناس، فصارت كل عائلة تربي دواجنها وأرانبها فوق السطح، وعادوا يأكلون أعشاب البرية بدل شرائهم للملوخية والباذنجان والبندورة والمعلبات واللحوم من السوق، وقامت الفرنيات بواجب الخبز، وبعضهم اشترى له ماعزاً حلوباً ووضعها في مدخل الدار، أو في صندوق خشبي أو كرتوني مناسب داخل شرفة شقتهم المطلة من عل، فاستغنى عن شراء الحليب واللبن واللبنة والجبن، وكل الأغذية الضرورية، وعادت النساء تغسل شرائط أطفالها الرُضّع، وتغليها فوق نيران عيدان الحطب المجموع من البساتين المجرفة، وتعيد تحفيظ أطفالها بها، بدل حفاظات السوق الورقية)البامبرز(، وتوقفت الحركة التجارية، ومنع العمال من المرور إلى أعمالهم، ذلك لأن الحواجز كانت تفرض سدوداً منيعة من الفولاذ بين كل حارة وحارة، وتستلئم خلفها..!

ممنوع الاقتراب والتصوير ،

ممنوع المرور:.

ممنوع الذهاب إلى العمل...

ممنوع الذهاب إلى المدارس والمعاهد والجامعات المزروعة في الحي الآخر..

ممنوع زيارة الجيران والأقارب...

)روخ جيب تصريخ..(!

كان)المحسوم(هو الخصم والحكم، وهو المدخل والمرجع، وهو القانون والفَلَتَان، وهو المعطي والوهاب والمانع والعازل، وهو المُخطِّط والمنفِّذ، وهو الماكر والصادق، وهو القوي والقادر، وهو الآمر والناهي والغافر، وهو الكاشف والمتقي، وكأنه حامل أسماء الله الحسنى..! كل ذلك بهدف تقطيع أوصال بني آدم، وإعادة من بقي منهم حياً، إلى عصر الإنسان الأول. !

هكذا رأت كل من المعلمتين الموقف، وشعرت به، فلم يكن أمامهما سوى

انتظار انتهاء شهري الإجازة، فاختصرتاها إلى شهر واحد، وأبلغتا)أبو مهيوب(الذي ارتاح لقرار سرعة العودة إلى ولاية الرمال، ذلك لأن عمله في الحدائق لا يفهم إجازة ولا نيلة، وما هي سوى أيام معدودات، حتى حزموا أمتعتهم، واتكلوا على الله، عائدين من حيث أتوا. !

خيانة زوجية

لم تكن السنة الثالثة بأحسن من سابقتيها، فلقد شعر الثلاثة بأنهم محاصرون بالإحباط من جميع الجهات، فلا الغربة مريحة، ولا أخبار الوطن تسرُّ البال، ولا الوضع الاجتماعي يسمح بالتنفس، وكل منهم توجعه ليلاه..

وبالرغم من عودة أبو مهيوب من معسكر الحصار، مُنفَضة جيوبه، أو)على الحديدة(كما يقولون، فلقد تحسنت أشغاله هنا في مدينة الواحة، وصار يخرج معهما مبكراً، فيوصل الصبيتين الذاهبتين إلى مدرستهما، بينما يتجه هو إلى حدائقه، وفي كل يوم خميس يزور مدير الزراعة، فيتحدث معه ويلاطفه، ويدفع له الأتاوة والمعلوم في الظاهر، ويأخذ منه معلومات حول زبائن جدد يرغبون بصيانة لحدائقهم، ويستمع إلى تعليمات حول مشاكل، أو قضايا أثارها بعض الزبائن، ولكنه وبصراحة، صار يأخذ من الباطن بعض الأعمال التي لا علاقة لمدير الزراعة بها، فلا يبلغه عنها، ولا يدفع له أتاوة عليها، وبذلك ازداد دخله، فصار لا يعود إلا بعد صلاة العشاء.

xxxxx

تستوحش تغريد وماجدة، وتشعران بالوحدة، وبأن فراغاً ما يهدد استقرارهما، عادتا تشعران بهزات الطائرة في الجو، عندما قال القائد إنهم يتعرضون لمطبات هوائية، تؤدي لاهتزاز الطائرة..ولكن حيوات الصبيتين وأبو مهيوب تتعرض لهزات مستمرة، وعدم استقرار ناتج عن مطبات أرضية، فالأرض هي المشكلة، وليس الهواء، وعندما تحرم الكرة الأرضية

أبناءها من العيش في أحضانها وتلفظهم، أو تتركهم للمطبات الهوائية تعصف بهم، أو تسبب لهم دوار البحر، أو سراب صحراء خادع، فإنهم يتوهون، وتصير شخصياتهم مشوهة، فتجد الفلسطيني يتصرف بطريقة مختلفة عن أي عربي آخر، تجده يحب ويكره في نفس الوقت، ويتشجع ويجبن معاً لدرجة الرعب، كما قال امرؤ القيس) :مكرٌّ مفرٌّ مقبل مدبر معاً.....(وكلمة)معاً(أي في نفس الوقت... وتعني أنه لشدة سرعة الحصان، فلا تعرف هل هو مكرّ أم مفرّ، أم مقبل، أم مدبر! وكلمة)معاً(جعلت الصورة مشوشة، فيها غموض ضبابي رائع جميل سريع غير واضح المعالم ممتع مخيف مدهش قوي... كل صور الحركة التي تتخيلها، تجدها موجودة في ذلك الحصان العربي الأصيل.. وهكذا الفلسطيني الواقع تحت التعذيب المستمر قروناً، تجده) :مكرٌّ مفرٌّ مقبل مدبر معاً...(فيندفع لتقديم جسده ضحية للوضع المتأزم للوطن، يفجر دُمّلَ قلبه المحتقن في عيون أعدائه، على شكل قنبلة تقتل المحاصرين الضاغطين على روحه،)عليّ وعلى أعدائي يا رب(...تجده جميلاً، وروحه مشوهة، متفانياً في العمل، وهو زاهد في الحياة كلها، لا يتأثر بنزف دم جرح عابر، ذلك لأن حياته نازفة بالأعداء والأقارب والمعارف والجيران والحاسدين والحاقدين والجاهلين والمارقين والمنافسين والعنيدين والمرتشين والفاسقين والمؤلفة قلوبهم والمخبرين والمنافقين وأصحاب العمل الذين يستضعفون عظمه، فيشغّلونه لديهم، لأنه يعمل بدقّة وبقوّة وبتفان، ويصرف كل كبته وعقده وحرمانه المعيشي في العمل،)كجلمود صخر حطّه السيل من عل(يحب الموسيقى والطرب والعتابا والميجنا... ودلعن دلعن دلعونا.. بينما مخيلته غاصّة بأصوات الأرواح المخنوقة المتألمة الصارخة بأنين موتى القبور، متشابك النغمات والأصوات والعذابات، على شكل أوركسترا سيمفونية، يجمع الملاليم أو الملايين أحياناً، وهو مقتّر أبخل من بخلاء الجاحظ، رؤوف رحيم بأطفاله يقدّم لهم كل ما يستطيع من مواد استهلاكية ومدارس خاصة،

ولكنه قاس عليهم شديد في تربيتهم، يريد منهم أن يفيقوا فلا يقعوا في تجربة آلام الإلياذة والأوذيسة الفلسطينية التي عاشها وعايشها، يحب وطنه العربي ويتابع أخبار موريتانيا والبحرين، ويفرح لفرحهم ويتعس لشقائهم، ويشعر في نفس الوقت أنه وحيد كالأيتام على.....! مثقف متعلم، ولكنه يجهل أموراً كثيرة أهمها السبب في انتشار حقوق الإنسان على سطح الكرة الأرضية، التي تتزاحم لتغمر جسده، وتهيل عليه التراب..

كان أبو مهيوب مُصراً على إنجاح تجربته، وهو يُطعِّم عدة براعم ليمون وبرتقال وكلمنتينا ومندلينا وكمكوات وبوملي وجريب فروت، على شجرة خشخاش واحدة، بناء على طلب رجل ثريٍّ ذي مزاج رائق من أهالي الواحة، فراح يُطعِّمها وهو يشم رائحتها العطرة، ويتذكر زهور برتقال وليمون وحمضيات يافا واللد وغزة، والبيّارات التي تهبُّ روائح عطورها على تلك السفوح، فتصل منها إلى روابي القدس، فيشم منها المصلون في المسجد الأقصى وكنيسة القيامة، والفلسطينيون القابضون على الجمر، روائح الجنة..!

كان صاحب الحديقة مسروراً بفن أبو مهيوب في تلك المهمة الصعبة، فوعده بأن يدفع له مئتين وخمسين دولاراً، إذا نجحت المطاعيم المذكورة كلها على نفس الشجرة، وقال له إنه سيدفع ألف دولار، إذا أثمرت الفروع المذكورة كلها على نفس الشجرة، ولذلك تابع أبو مهيوب مطاعيمه، ويبدو أنه في تلك الزحمة قد نسي الصبيتين، ولم يعد يفكر بغير شجرته متعددة المواهب. !

صار الرجل يغيب عن البيت، فتنشغل ماجدة وتغريد بالجلي أو الغسيل أو الطبيخ المصحوب بروائح مواد التنظيف الكيماوية، أو روائح أبخرة طبيخ الطعام والثوم والبصل والزيت المحروق الخانقة في غرفة المطبخ الضيقة، أو تنشغلان بقراءة مجلة نسائية، أو مشاهدة التلفاز، أو بالقيل والقال، ومما

قالته ماجدة يومها :

- أدهشتني المعلمة زهرة، حينما قالت لي إن فضيحة اشتعلت في بيت جيرانهم.

- فضيحة؟ !

- قالت لي إن أم يونس راقبت امرأة تدخل بيت جارتهم أم نعمان، وكانت الزائرة مبرقعة بالحجاب والخمار والعباءة السوداء، ولكن مشيتها ليست مشية امرأة، وشكلها ليس شكل امرأة، فشكّت زهرة في الأمر، وأبلغت زوجها)أبو يونس(. وذات يوم راقب أبو يونس الغمامة السوداء الداخلة إلى بيت)أبو نعمان(، فشك في أمرها، ومما عزّز موقف الاهتمام والمتابعة ومحاولة التشفي بالخيانة - إذا تمت - أن أم نعمان كانت قد تشاجرت مع أم يونس حول قصة حب وزواج وطلاق، ومشكلة لها تفاصيل كثيرة. فأيدتها تغريد قائلة :

- هي قصص الحب والغرام وراء كل مشاكل الدنيا، وسبب حروب دامية بين دول...! طيب وماذا حصل بعد ذلك؟

- الذي حصل يا حبيبتي، أن أم يونس أرادت أن تنتقم من غريمتها، فكلّفت زوجها بالمتابعة، فما كان من)أبو يونس(إلا أن كتب رسالة قصيرة على ورقة، ووضعها داخل مغلف، وتابع دخول)أبو نعمان(المسجد للصلاة.. وبعدما خلع أبو نعمان نعله عند باب المسجد، ودخل البهو، حشر أبو يونس الرسالة في حذائه، وعندما انتهت الصلاة، لبس أبو نعمان حذاءه، فاصطدمت رجله بالرسالة المعترضة، فأخرجها، وقرأ ما فيها من مصيبة وخيانة زوجية - لو ثبتت - فسيكون لها رد فعل عنيف..! استشاط الزوج غضباً، ولكنه لم ينفعل أمام زوجته، بل أبلغها أنه سيتأخر في الشغل، واختفى في مكان قريب من مدخل البيت، وراقب الموقف حسب ما كتب له

المخبر الصادق غير المعروف، حتى دخل المُجَلَّلُ بالسواد، فدخل أبو نعمان وراءه، وهناك حصلت الطامّة الكبرى!

- الله يخرب بيتك يا أم يونس! يا لطيف! ألهذه الدرجة من البذاءة وصل الانتقام؟ وهل الناس متفرغون لهذه الدرجة لمراقبة عباد الله، وتدبير الخطط للانتقام منهم ؟ الله يستر على عباده! المسيح عليه السلام قال) :من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر! (آه وبعدين؟

- وهناك يا ستي حصلت استفهامات، تبعتها مشادات كلامية، ثم فضيحة مجلجلة، عندما اكتشف الرجل أن المرأة المحجّبة الزائرة لزوجته كانت رجلاً عاشقاً لأم نعمان، ولم تُحفَظ القضية ضد مجهول، بل طلّق الرجل زوجته فوراً، وما تزال الفضيحة مستمرّة حتى لحظة إعداد هذه النشرة..! ويا بنت قولي لأختك...!

- اقتنعت؟ قلت لك إن الحجاب هو السبب.. لو أن كل امرأة تبدي وجهها علناً أمام خلق الله، لما حصلت مثل هذه المشاكل المدمِّرة..!

كانت ماجدة تجلس وحيدة في غرفة الجلوس تقرأ مجلة نسائية عندما عاد أبو مهيوب متأخراً من العمل كعادته، فشاهدها جالسة بقميص نوم شفاف قصير بلون الشمام الزهري، وهي تضع ساقاً فوق ساق، مما يظهر مفاتن كثيرة من فخذيها الممتلئين إغراءً... ! وبعد دقيقة من مشاهدته لها على هذا الحال، رفعت ساقها العليا، وأنزلتها بجوار الساق الأخرى، فظهر ملتقى فخذيها الجميلين مثيراً، ثم قامت بهدوء وعدم ارتباك، ودخلت خدرها، فلبست روبها فوق القميص، ثم عادت، فتجاهلت المشهد وبادرت الرجل بسؤالها:

- أين كنت حتى هذا الوقت؟ لقد خفنا عليك!

- أين سأكون في غير طرقات البحث عن لقمة العيش !

- في الحقيقة لم نخف عليك بقدر ما صرنا نخاف القعود وحدنا. وعاتبته بدلال أنثوي قائلة :

- وأهلنا يعتقدون أننا حرمتان، ومعنا محرم، ولكننا قاعدتان حرمتان بلا محرم! وأنت يا أبو مهيوب دائر على حل شعرك! فقال الرجل :

- أنا عائد من العمل يا بنت... ! قولي لي: الله يعطيك العافية، بدل قولك كسائر النساء: أين كنت حتى هذا الوقت؟ وأين سأكون يا ترى؟ حياة كلها تعب في تعب!

حضرت تغريد على صوتهما، وقعدت الصبيتان معه في غرفة الجلوس، وأكمل الرجل حديثه قائلاً :

- أنا لا أفهم معنى للحياة سوى العمل.. إنما أصل الفتى ما قد فعل! فقالت له ماجدة :

- اسمع، بلا ما قد فعل، بلا ما قد حصل..! نحن مخنوقتان في هذه العيشة المُرّة، ونريد حلاً..! فدُهش أبو مهيوب وقال لهما:

- ما هو الحل؟ ماذا تريدانني أن أفعل لتحقيق السعادة والرخاء لكما؟ فقالت ماجدة :

- طلبنا سهل وبسيط. وكانت الصبيتان قد قتلتا الأمر بحثاً مع بعضهما، قبل دخول الرجل عليهما. فقال الرجل :

- هات تفضلي يا ست الحسن والدلال!

- نقترح عليك شراء سيارة، وأن تدفع أنت نصف ثمنها، ونحن ندفع النصف الآخر،)وللذكر مثل حظ الأنثيين(وتقودها بنفسك لتنفيذ أعمالك، وترسلنا بها إلى المدرسة، ثم تعيدنا منها، خاصة بعد رحيلنا من هذه الشقة إلى شقة أوسع وأنظف وأبهى، وأبعد عن هذا الحي الشعبي الملاصق

للمدرسة.. فسخر منها أبو مهيوب قائلاً :

- والله صرت برجوازية يا بنت أبو جهاد الله يرحمه.. !

فهمت ماجدة قصد محرمها، ودون أن تسمع هذا التعليق البذيء، ردت عليه قائلة :

- احترم نفسك يا)أبو مهيوب(، وأنت تعرف أن أبي - تحت قصف الاحتلال - خلق صناعة ومهنة محترمة، وقاوم العدم. ولم تتمالك ماجدة نفسها، فأجهشت بالبكاء.. وعندها انفعلت تغريد، وبكت مع صديقة عمرها المزوج بالآلام والحسرات، فأسقط في يد أبو مهيوب، وقال لهما :

- أنا آسف، ولم أقصد سوى المداعبة، وأنتما تعرفان أننا في الهمِّ شرق، اللعنة على هذه الحياة المرهقة، حتى لو مزحنا لإضفاء النكتة والهزل، فإن مزاحنا ينقلب إلى نكد، يبدو أن الإنسان الفلسطيني مكتوب عليه الزعل والنكد ومرارة العيش مهما كان وضعه الاجتماعي، ومهما تحسن دخله..!)اسمعن يا بنات:(أنا موافق على طلبكما، سأشتري سيارة مستعملة، وأنا في الحقيقة أسوق السيارات، ولكن ليس معي رخصة قيادة، وسأقدم لها، وسأحصل عليها إن شاء الله بأسرع وقت ممكن، وسأذهب معكما بها أسبوعياً إلى السوق. فقالت تغريد متفائلة وقد خرجت من حزنها :

- ما أحسنك يا أبومهيوب.. نحن نعرف أن وعدك قريب، وأنك على قدر أهل العزم. ومسحت ماجدة دموعها، وابتسمت فرحة بخبر السيارة.

xxxxx

لم يُكذِّب الرجل خبراً، فما هو سوى شهر من تاريخ تلك المناوشة، وإذ

بالسيارة تقف على باب بيت جديد، رحل الثلاثة إليه، وكانت الشقة الجديدة في حي أرقى وبيئة أنظف وجوٌ أشرح، ومنذ ذلك اليوم تغيرت الأحوال، وازدادت مطالب البنتين ودلالهما عليه، وازداد تجاوب الرجل، وكان أول مطلب لهما هو الذهاب معه إلى السوق، وبالفعل ركبوا سيارتهم وخرجوا إلى السوق، وهناك زاروا محلات أدوات التجميل، ومعارض الملابس النسائية، وكان أبو مهيوب خير معين ومرافق وجليس لهما، وفي تلك المناسبة، اشترى لهما زجاجة عطر، مكتوب عليها)ياسمين يافا(، كان يحب عطر ياسمين يافا، أيام طفولته الحزينة، وقال لهما: إن زجاجة واحدة تكفيكما، فإذا وضعت كل واحدة منكما عطراً من نوع آخر، فرائحة كل عطر، تضرب الرائحة الأخرى..أفَضِّل أن أشم في البيت رائحة موحدة، ولتكن رائحة الياسمين، فما بالكن برائحة ياسمين يافا. ! شكرته البنتان على هديته، ونظرت كل منهما إلى الأخرى، ولكن مع وقف التعليق !

وابتدأت الفرحة ترتسم على وجوه الجميع، فالرجل فرح بقيادته الجديدة، وبكونه يمارس صلاحيات أوسع في المسؤولية تجاه نفسه، ونحو الصبيتين المرافقتين، وازداد المزاح والمداعبة الودِّية البريئة بين البنتين والرجل، وبينما هم يتجولون بسيارتهم في شوارع الواحة، قالت له ماجدة :

– اسمع يا أبومهيوب: نحن بصراحة نريد منك طلباً، وإذا رفضته، فسوف نبكي ونجمع عليك السوق كله! فخاف الرجل وقال لهما: يا ساتر! ما هو الطلب يا ترى؟ اللهم خفف طلباتهما علي..!

– لا، أبداً، الطلب خفيف، وبسيط..

– ها أخبراني، هل تريدان أن أطير بكما بهذه السيارة الجربوعة في السماء؟ فقالت تغريد :

– لو سمحت، لا تقل جربوعة، فهذه سيارة محترمة، مثل سيارات

العالم. !

- انظري وقارنيها بسيارات الشبح، أو سيارات الدفع الرباعي، أو حتى بالسيارات الحديثة، تجدينا نقف في ذيل الصف..! فاعترضت تغريد، وقالت:

- ليس في ذيل الصف، ولنقل في وسط الطريق،)وفوسط الطريق ومشينا وسلمنا وودعنا ياقلبي، ودموعنا في عنينا ياقلبي..(قالتها هكذا وهي تغني داخل السيارة بصوت منخفض، ولكنه جميل وشجي، فقالت لها ماجدة:

- يا عيني عليك يا نجاة الصغيرة! خلونا في الموضوع، نريد أن نذهب يوم الجمعة القادم إلى البَرّ، وأن نتغدى هناك في الصحراء، وأن نأخذ معنا كانون نار، وكافة الأغراض المتعلقة بشواء اللحم والهشّ والنشّ. فقالت لها تغريد:

- ولا تنسي كرة القدم، فأنا أحب اللعب بكرة القدم.

- أنا أحب كرة المضرب. فتدخل أبو مهيوب ساخراً:

- ما رأيكما أن تشكلا فريق كرة قدم، وتلاعبا فريق الزمالك، وتغلبا الأهلي؟

- يا عمي لا أهلي ولا زمالك، نحن نريد الذهاب إلى البر والسلام.

وبالفعل فلقد جاء يوم الجمعة حاملاً ومرضعاً بمتطلبات الرحلة، وبعد صلاة الجمعة، ركبت ماجدة بجوار المحرم، وهنا احتجت تغريد مازحة: لماذا تجلس هي بجوارك، ولست أنا؟ فقالت لها ماجدة: اخترمي السن يا بنت، فأنا أكبر منك بشهر، معنى ذلك أنني أهم منك بدهر! فقال أبو مهيوب: المثل لا يقول هذا، بل يقول) :أكبر منك بشهر، أعلم منك بدهر(! وليس أهم منك، وحتى هذه المقولة، ثبت بطلانها، وها أنا أكبر منكما، فهل أستطيع

أن أعلّم البنات لغة عربية مثلاً... فقالت تغريد: ونحن أيضاً لا نعرف كيف نُطعِّم أشجار الحمضيات مثلك، وكل شخص له مهارات مختلفة. وهنا تدخلت الفيلسوفة ماجدة قائلة :

– ولكن من المؤكد أن أطفال الكمبيوتر والإنترنت والخلوي والبلوتووث، هم أكثر معرفة من الجيل الذي قبلهم، وعندما يكبرون مثلنا، سيكونون أكثر دراية ومعرفة منا! ورداً على احتجاج تغريد قال لها :

– كل مرّة، تجلس واحدة منكما في المقدمة..! لا تزعلي! فقالت تغريد :

– نحن فقط نداعبك يا رجل، وكما تقول شادية)وان ما اتدلّعش عليك إنت... أمال حاتدلّع على مين؟(! فقالت ماجدة :

– يا عيني على شادية، تعرفي أنها ما تزال حتى اليوم دلّوعة الشاشة ولم ينافسها في الدلع سوى نانسي عجرم! فأجابتها تغريد:

– والله إنني صرت أخاف منك، يا متابعة الدلوعات! هذه علامات مخيفة..! هذا ضوء أحمر! لو قلت إنك معجبة بعمرو خالد أو فيصل القاسم، أو مرسيل خليفة، لكان الموضوع فيه نظر! ولكن....! فقال أبو مهيوب :

– يا حسرتك يا أبو مهيوب.. ليس لك اليوم سوق في عصر الفضائيات هذا..! فأجابته ماجدة :

– بالعكس، أنت أهم شخصية في حياتنا يا أبو مهيوب..! ألا يكفي أنك تتحمل كل نكدنا، وتشاركنا همومنا ومتاعبنا ومشترياتنا وطعامنا وشرابنا ونزهاتنا، وأنت صابر مكافح!؟

اتجه ثلاثتهم بسيارتهم المشتركة إلى سوق المثنى، فاشتروا كل ما يلزمهم، واتجهوا إلى البر، واستمرت السيارة بسيرها، حتى وصلوا إلى منطقة تنزه شعبية معروفة.. كانت عائلات متناثرة هنا وهناك، ولكن عن

عد، قعدوا تحت ظل شجرة سدر، وكانت الشمس تنحدر نحو الغروب، استغلّت الصبيستان الوقت بلعب كرة القدم، وصارت هذه تضربها يميناً، تتجه الكرة إلى الشمال، وما هي إلا ألعاب صبايا لم يلعَبن ولم يفرَحن من قبل، فطارت الكرة إلى الفلاة البعيدة، وكان هناك شابان يقضيان وقت غداء واسترخاء، ونزهة عصر الجمعة في البر، مثل سائر خلق الله، وصلت الكرة إلى حوطتهما، فالتقطاها وأخذا يلعبان بها، وبسرعة أعادها أحدهما للصبيتين اللتين اتجهتا نحوه، وناولهما الكرة، فشكرتاه وابتسمتا له، ثم تابعتا اللعب بها، فضلّت الكرة طريقها مرة أخرى باتجاه الشابين، وهناك جرى حوار بين أربعتهم.

ناداهما أبو مهيوب غاضباً، فركضتا باتجاهه خجلتين.

- ما الموضوع يا صبايا ؟

- أبداً، شكرنا الشابين، وأخذنا الكرة.

- منذ البداية قلت لكما: لا داعي لهذه الكرة، إنها تجلب المشاكل!

- لا مشاكل ولا شيء، نحن كبيرتان يا أبو مهيوب، ولا يُغَرِّر بنا أحد، وطوال عمرنا نكلم الناس؛ شباناً كانوا أم شابات !

أشعل أبو مهيوب نار الكانون، وارتفع اللهيب، ثم همدت النار، وأزهرت قطع الفحم متوهجة. وكانت ماجدة تحضر اللحم المقطع بحجم رأس الحمامة، وتُتَبِّله بالبهارات الشرقية، والفلفل الحار، واستلت تغريد أسياخ شواء اللحم، فغرست بكل منها ست قطع من اللحم، على شكل حبات المسبحة المشبوكة بالخيط، وشبكت بين اللحم مع كل سيخ رأساً من البصل الصغير وحبة بندورة حمراء صغيرة، وقرن فلفل حار، وبعد النضوج رفعت ماجدة الأسياخ عن النار، ورشت عليها الملح قائلة لتغريد :

- الملح يجب أن يرش بعد الشواء، للحفاظ على عنصر اليود، فلو

رششنا الملح مسبقاً، لتبخر اليود، واحترقت حبيبات الملح، ولا أعرف ما بعدها من علوم ومعلومات فارغة.! فقالت لها تغريد:

- ما دامت معلوماتك فارغة، فلماذا تُنفِّذينها بدقة يا أم المعلومات؟

- إذا لم نتحدث في الملح واليود والفلفل والبهارات، فبماذا نتحدث؟ ولماذا جئنا إلى هنا أصلاً؟ أليس لنتحدث ونغير جوّنا، ونتسلى ونضحك؟

كانت الشمس قد غربت، فأشعل أبو مهيوب ضوءاً اصطناعياً مجهزاً ببطاريات للعمل في الليل، فحوّل الليل إلى نهار. وهكذا أكلوا وشبعوا وتحدثوا، ثم جمعوا أمتعتهم، وعادوا فرحين بيمن الله ورعايته إلى شقتهم الجديدة.

سيوف يعلوها الصدأ..!

عادت ماجدة من المدرسة، فوجدت أن تغريد قد سبقتها إلى البيت، فبادرتها بابتسامتها المعهودة قائلة:

- خبر مدهش..!

- ماذا في جعبتك اليوم أيتها الدبة الشقية؟

- أنا دبّة يا قرن الخروب؟ طيب..! والله لن أقول لك ماذا سيحصل..!

شعرت تغريد بالحاجة إلى معلومات ماجدة، خاصة في بلد ليس فيه معلومات، ولا من شاف، ولا من درى، فغيّرت نغمة حديثها واستعطفتها قائلة :

- ماذا سيحصل؟ أخبريني.. !

- ما دمت تقولين لي دبة، فلن أخبرك، أنا زعلانة، هه. !

- لا، لا تزعلي، أنا آسفة، ماذا سيحصل يا قالب الشوكولاتة، يا أحلى من العسل، يا غزالة الوادي؟ خلص هلكت وأنا أتغزل بك، أخبريني ماذا سيحصل؟

- ستزورنا أم شيخة؛ زوجة صاحب العمارة، صباح غد الجمعة.

- هذا هو الخبر المدهش الذي تتمنعين عن إبلاغي به؟ وماذا تريد أم شيخة من هذه الزيارة ؟

- طبعاً هي قادمة للحديث عن ابنتها شيخة، التلميذة عندي في الصف، وللتعرف علينا، وقد يكون لديها دوافع أخرى.. وأنت عارفة..!

- ما هي الدوافع الأخرى التي تبغيها أم شيخة هذه؟

- لست أدري، قالت لي إنها ستزورنا في طلب، والله أعلم بطلبها.. !

- كنت أتوقع من خبرك المدهش، أنك قد رُقّيت إلى مديرة مدرسة، أو زادوا رواتبنا، لتصير متساوية مع رواتب المعلمات، بنات بلدهم !

- يا ستي نحن أيضاً محتاجتان لمن يتحدث معنا.. قالت ماجدة ذلك، ثم غيرت نغمة حديثها لتكون بنغمة مسرحية :

- نحن يا آنسة تغريد، نرغب بالتبادل الثقافي مع نساء الواحة، وكفانا ترديد محتويات الكتب للطالبات، تثقيف وتعليم من طرف واحد دون تبادل ثقافي، هذا أمر محزن. إنها فرصة للتعرف على أم شيخة، وعلى حياتها الأسرية، وللولوج في شؤونها وشجونها، فنفتح باباً جديداً من المعرفة، ونتسلى، وتتسلى المرأة معنا !

- حلوة)الولوج(هذه! أهلاً وسهلاً بأم شيخة، ولكنك تعرفين الكثير عن هذا المجتمع، من خلال زميلاتك المعلمات المواطنات !

- الحديث مع زميلاتي في المدرسة شيء، ومع أم شيخة، شيء آخر يا فهيمة!

في الوقت المحدد وصلت أم شيخة، ورنّت جرس الباب، فاستقبلتها ماجدة وتغريد داخل الباب، وهات يا قبلات ومجاملات.

جلست النساء الثلاث يتحدثن في أشياء كثيرة، وسألت المرأة :

- ها إن شاء الله مرتاحتان في هذا السكن ؟

- الحمد لله.. قالت ماجدة.

- وكيف شيخة عندكم في المدرسة ؟

- شيخة ممتازة، ومثابرة على دروسها، كنا نتمنى رؤيتها معك في هذه

الزيارة؟

- هي تسلم عليك.

- كيف أتيت إلينا؟ هل أوصلك زوجك ؟

- لا. أوصلني سائقي، وذهب، وسوف يعود بعد ساعة.

- زيارتك ساعة فقط ؟ ولم العجلة؟ قولي لنا كيف تقضين وقتك؟

- مثل كل نساء الواحة؛ متابعة الأولاد، وطبيخ ونفيخ وترتيب بيت ومكياج وتجميل وزيارات وتسوق ومشاكل الخادمات ومشاكل السواق، كل يوم يغيب، وعندما يحضر يقول لي: تصليح السيارة، غسيل السيارة، بنشر السيارة، رخصة السيارة، غيار زيت السيارة، والله هذا السائق الفلبيني يغلّبني، وغير منضبط في مواعيده، صار له عندنا سنة، جلبه أبو مرس من الفلبين.. كان هناك في تجارة، فأحضر معه خمسة منهم، سائق له، وسائق لي، وثلاثة لشركائه.

قالت السيدة ذلك وشعرت بأن الحديث ذو شجون، فقامت بخلع عباءتها، وإقصاء أغلفتها السوداء، فظهرت بجسم ممتلىء، يجسِّمه ثوب زهري شفاف قصير ينحسر فوق فخذين مدملجين سمراوين كالقمح المنقى، ويبرز ذراعين عاريين حتى ما تحت إبطين منتوفي الشعر، ملفوفين امتلاء نضراً، ووجه بهي، تزينه غُرّةٌ من الشعر الأسود المنسدل على وجنتيها، والواصل كشلال أسود فاحم حتى أليتها القاعدة بإثارة استدارة القوارير على المقعد المتواضع أمام جمال المرأة الفائر الناطق بكل اللغات ،. . فقالت لها تغريد :

- الله الله! ما هذا الجمال الساحر..!

-شكراً شكراً أخجلتني يا آنسة..

- اسمي تغريد يا سيدة..

– وأنا اسمي جواهر.. وزوجي)أبو مرس(، – تبسمت وهي تقول – ومرس هو ابن الزوجة الثانية، فبعد أن طلّق زوجته الأولى، وهجر الثانية، تزوجني فأصبحت زوجته الثالثة، فولدت له شيخة ثم محيسن... فقالت ماجدة ساخرة :

– وهل الرابعة على الطريق؟ فقطعت جواهر ابتسامتها وتجهمت، ثم قالت :

– فال الله، ولا فالك! لقد عرفت كيف ألجم اندفاعاته منذ يومي الأول، وتصرفت مثل شهرزاد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، قلت له: أنت حر، تصرّف كما تشاء، وسافر كما تشاء، واعشق من النساء ما تشاء، وأما أنا، فلن أهتم بشيء سوى بيتي وأولادي، ورعايتك عندي هي أهم شيء. فقالت تغريد :

– والله يا أم محيسن هذا عين العقل، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : إذا لم تستح فاصنع ما شئت ولذلك لا داعي للتجسس على الزوج، ولا على الزوجة، فالذي يريد أن يفعل شيئاً من هذا القبيل، يفعله ولو كان في برج مُشيّد! وحاولت تغريد الخروج من هذا الموضوع الشائك فسألتها :

– وبماذا تعمل شركتكم ؟

– استيراد كل شيء، نحن نستورد من أمريكا الملح، ومن الهند أعلاف الدواجن، ومن إيطاليا المفروشات والأحذية والمضخات، ومن الصين نستورد الأدوات المنزلية، والخادمات من سيريلانكا، وكل ما نريده، نستورده.

– تستوردون كل شيء، كل شيء مستورد؟ ألا تصدرون ما يتعادل مع الاستيراد؟

– الله يخلي لنا الدولة، فهي تصدر لنا البترول، وأشياء كثيرة يصدرها التجار. فسألتها ماجدة:

- ألا يوجد لديكم صناعة آليات أو سيارات أو كمبيوترات أو مجوهرات... وعلقت تغريد بلؤم:

- قرأت أنهم كانوا قد باعوا شركة فولفو بحوالي سبعة مليارات دولار، كنت أتمنى لو أن ولاية الرمال العربية قد اشترتها، فقفزت دولتكم لتصير من دول الصناعات العملاقة، بسبعة مليارات دولار فقط.. !

- هم يعرفون مصلحتهم أكثر منا، هداك الله! فأضافت ماجدة :

- قرأت في الجريدة أن الولاية اشترت صفقة صواريخ عسكرية، بعشرة مليارات دولار قبل شهرين، فأين ستطلق هذه الصواريخ؟ أإلى البحر؟ مؤكد إنها ستصدأ قبل أن تتحرك من مكانها، ألم يكن من الأفضل شراء شركة مثل فولفو العملاقة بهذا المبلغ، وإدخال الوطن العربي في عالم الصناعة الحقة؛ لماذا لا نستطيع صناعة حتى إبرة خياطة أو مضخة مائية صغيرة تدفع الماء إلى سطح العمارة، مثل المضخات الإيطالية والصينية المعتبرة، بدل شراهتنا في الاستيراد والاستهلاك؟ وما الذي يمنع صناعة هذه الصواريخ المستوردة في بلادنا، بلاد مليارات المليارات؟ ولماذا دخلت كل الدول المحيطة بنا؛ من الشرق والغرب النادي النووي، ونحن لا نزال نذود عن حوضنا بسيوف يعلوها الصدأ؟

- هذا كلام لست على قدره يا أستاذة ماجدة يا حبيبتي.. خلينا في حالنا، وفرجيني على عطوركن انتن نساء بلاد الشام. أنت لم تقرئي أبا محجن الثقفي الذي قال للمرأة التي عيّرته بعودته من المعركة صباحاً، وما تزال رحاها دائرة:

إن الكرام على الجياد مبيتهم فدعي الرماح لأهلها وتعطري

وأنت يا ماجدة دعي الرماح والصواريخ لأهلها، وتعطري لرجلك وحبيب قلبك، ولا تفكري بهذه ال..... فاستمرت ماجدة باندفاعها غير الخجول،

وقالت :

– هذا عندما يكون لدينا كرام مثل أبو محجن وسعد وعمر، ولكن نحن ينطبق علينا قول القائل: لم يبق غير المُتردِّية والنطيحة وما أكل السبع..! فلمن سنتعطر بربِّك يا أم شيخة، وهل أمامنا غير عطر الأموات؟ نحن في فلسطين نتعطر بعطر الأموات، ونرقص ونغني ونحتفل في الجنازات، ولا من ملتفت إلينا يا أم مرس.. ؟ فنهرتها تغريد قائلة :

– كفى نَكداً يا ماجدة، وركوب رأس. ! أنت مثل باقي الفلسطينيات، لا تفهمين إلا في الصواريخ والأباتشي والطائرات المروحية وصواريخ لاو! هذا جنون والله، يبدو أن جواهر شاعرة وكَيِّفة، وذات مزاج رائق! لاحظي جمال عينيها وتناسق قدها ونضوج شفتيها... تغزلي بالمرأة ودلِّعيها خاصة وأن لك سوابق في الدلّوعات – بدل أن تواجهيها بصواريخك المنطلقة... وغيرت تغريد حديثها قائلة:

– ولكن قولي لنا؛ كيف تتصرفين في يومك؟ وأين تذهبين للخروج من حشر البيت والعيشة الضنك ؟

– لا عيشة ضنك ولا ما يحزنون، فنحن نذهب إلى البر، نأخذ سياراتنا ونخرج، ونلعب مع أولادنا وبناتنا، ونحضر الطعام، ونشوي اللحم في البر، وفي الليل نعود فرحين مجهدين من شدة التعب واللعب والفرح والرياضة... أنا ألعب معهم كرة المضرب، نذهب إلى هناك عصراً، بعد صلاة الجمعة، ويمر الليل بسرعة، فنعود هالكين وننام مرتاحين.

انتبهت جواهر إلى أنها لم تبحث موضوع زيارتها مع المعلمتين، فقالت بعد تنحنح واستدراك: في الحقيقة أنا جئت لزيارتكما، ونظراً لشدة مدح ابنتي شيخة للأستاذة ماجدة، فكرنا أنا وأبو مرس أن نطلب منكما أن تُدَرِّسا بناتنا وأولادنا دروساً خصوصية في منزلنا، ونحن مستعدون لدفع

الأجور المطلوبة.

فوجئت ماجدة وكذلك تغريد بطلب أم محيسن، ونظرت إحداهما إلى الأخرى، فتابعت المرأة قولها : كثير من المعلمات العربيات المغتربات يعطين البنات والأولاد دروساً منزلية خاصة، وكثير منهن يدخلن بيوتنا وكأنهن من أهل البيت، ولا أريد أن أذكر أسماءً، ففي بيت أختي أم عناد تدخل معلمة شامية بيتها، ولا تتحرج في الدخول إلى مطبخهم، والمشاركة في الطبخ والجلي، وتتعلم منا صناعة المأكولات العربية، وتعلمنا كيفية صنع المأكولات الشامية، ولا تعود في نهاية العام الدراسي إلا ويداها مشنشلات بأساور الذهب، يهديها إياها أبو عناد، هذا بالإضافة لجيوبها التي تعود مملوءة بالنقود..! لماذا لا تعملن في الدروس الخصوصية، وتخرجن من هذا الجو الخانق إلى المجتمع، وتشاهدن خلق الله، وتستمتعن بوقتكن.. ؟ فقالت لها ماجدة:

– والله نحن نتشرف بالوقوف إلى جانبك يا أم مرس في تعليم الأولاد والبنات، ولكن أنت تعرفين، ما زلنا صغيرتين في العمر، ولا نملك قرارنا، وأنت تعرفين مشاكل المجتمع، والقيل والقال..! ثم من سيرسلنا إلى بيتكم، ومن سيعيدنا..! ولذلك، قررنا عدم الدخول في هذا التعليم الخاص، وعدم دخول عصر الخصخصة من أصله!

– سائقي الخاص سيكون تحت تصرفكما، أو سائق)أبو مرس(، أيهما أقرب، تجدانه يأتي ويوصلكما..! فقالت ماجدة :

– نحن بغنى عن الذهب والنقود الإضافية، فما زاد عن حده، انقلب إلى ضده، ونحن نتقاضى رواتبنا، والحمد لله، مستورة حتى الآن.. وبررت تغريد موقفهما بقولها :

– نحن نشاهد الرجال يتجمعون على باب المدرسة، رجال يقفون لاستلام

حريمهم.. هذا ينتظر ابنته، وذاك ينتظر زوجته المعلمة في المدرسة، ليأخذها بسيارته، ولكنهم يتجمعون مثل تجمع دبابير غازية عند باب صندوق نحل، فنخاف منهم، ومن معاكساتهم لنا، نهاراً جهاراً، فكيف تريدينا أن نذهب مساءً، أو ليلاً إلى هنا أو هناك!. وأضافت ماجدة :

- المذهل في الموضوع، أن بعض هؤلاء الرجال لا يتورع عن مغازلة الفتيات أو المعلمات الأخريات الخارجات من باب المدرسة دون ولي أمر، أو محرم يحميهن من ضباع المدينة..! تجدين بعضهم يفاجئك بتوجيه كلامه لك :

- يا زينك مثل الغزال الشارد..!

- قلبي يحبك ويريدك..!

- الله..! الله..! تخرجين من باب المدرسة كسحابة عطر فواحة !

- مشينا..!

- شو رأيك مشوار ساعة، وأرجعك لبيت أهلك سالمة غانمة..؟

- ساعة بقرب الحبيب تسوى الدنيا كلها..!

- لو يقع هذا الخمار الحاجب ما بيني وبينك، وأشوف بس عيونك!

- لماذا أنت تشاهدينني من داخل حجابك، بينما لا أشاهدك وأنا بلا حجاب؟ فأنت محررة داخل الحجاب، وأنا مقيّد بسفوري. !

- اخرجي من محارتك أيتها اللؤلؤة الجميلة..!

تذوب الواحدة منا خجلاً، وتكره نفسها أمام هذا الغزل اللزج الدبق... كانت جواهر تسمع هذا الكلام وهي فاغرة فاها ومندهشةً فقالت:

- معقول أن يحصل هذا بباب المدرسة؟ فقالت ماجدة:

- معقول ونصف..!

- ولماذا لا تبلغن المديرة لتتصرف معهم ؟

- أهلاً مديرة..! أبلغنا المديرة، فقالت: هل ترين أن أضع شرطي أمن بجوار كل بنت، أو حرمة ؟ سبق وأن طلبنا الشرطة، وعندما جاءوا، وشاهدوا الموقف، قال لنا الضابط: كل من هؤلاء الرجال يأتي ليأخذ ابنته أو زوجته أو أخته، فهل تريدينا أن نتفحص هوية كل شخص، ونقارنها بهوية المطلوبة، ونكشف عن وجه المحجبة لنعرف من هي، وما هي صلة قرابتها بالرجل؟ هل تريدينا أن نشعل ثورة أمام المدرسة، ونتدخل في الشرف والشرع والعادات والتقاليد، وأن تتهمنا حرمة بأننا أسأنا التصرف، فنطرد من وظائفنا؟.. حسناً يا أستاذة، سنعالج الموضوع، سنعالج الأمر. خرجوا، ولم يعودوا بعد ذلك. وعلّقت تغريد :

- الشرطة يتدخلون إذا تجرأ أحدهم، وأساء التصرف مع تلميذة أو معلمة أو امرأة، ولكن الرجال الفضوليين الملعونين أذكياء، فهم يكتفون بالغزل والترغيب والتدليل، وعرض الخدمة والهدايا والكلام المعسول، وهذا يغري بعض الفتيات أحياناً، ومع التكرار، تقع إحدى الإناث فريسة، أو تجري الرياح بما يرغب الطرفان.. فقالت ماجدة :

- وقد يكون في الأمر حب، ثم زواج، ثم طلاق..! فقالت تغريد :

- ما أكثر الطلاق في هذا البلد..! نسبة الطلاق هنا تصل إلى خمسين في المئة من حالات الزواج، حسب إحصاء نشرته الصحف مؤخراً، لا أسمع عن قصة علاقة زوجية، إلا وانتهت بالطلاق..! لماذا الطلاق بهذه النسب المرتفعة عندكم؟ فقالت أم محيسن:

- فعلاً نسبة الطلاق في مجتمعنا مرتفعة، ذلك لأن الزواج عندنا لا يتم بعد معرفة.. فهذه البنت المغلّفة بالعباءة والخمار، يشتهيها الرجل لأنها مجهولة ومحجبة، والرجل يريد أن يستكشفها، فيطلب الحديث معها،

فترفض، لأن أهلها يعارضون التعارف وثقل دم الشباب حسب مفهومهم، ولهذا تتمنّع الفتاة، فيقبل الرجل التحدي، ويخوض المغامرة، ويطلب منها الزواج، فتقبل به فوراً، ويتم الزواج، فيُدخلها الزوج إلى بيت الطاعة، وإذ بها ليست كما كان يتخيلها؛ غزال شارد، وملاك رحيم حنون دافىء.. بل مثل سائر نساء المجتمع، امرأة عادية، تصيب وتخطىء، وتعرف وتجهل، وتحب وتكره، وقد تكون رائحة فمها نتنة، وكان يتخيلها زجاجة عطر فواحة، فيطلّقها، ويروح يبحث عن غيرها، سواء أكان بالحلال أم بالحرام.. وقالت ماجدة :

- والبرقع والحجاب والخمار والعباءة والملاية هم المشكلة، فلو تظهر كل امرأة بوجهها الحقيقي أمام الملأ، ويحق لها الجلوس مع الرجل والحوار معه بكل أدب واحترام، وذلك من خلال العائلة والأقارب والمعارف والزملاء في الجامعة، أو أماكن العمل، لو يُسمح لها التعارف في بيئة نظيفة، وليس من خلال الاتصالات والغنج بالهاتف والكلام المعسول، لتمت تفاهمات واقعية، واختار كل منهما ما يناسبه حسب قناعته، ولانخفضت بذلك نسبة الطلاق!

ويبدو أن السيدة جواهر قد سَخَنت مع جو هاتين البنتين الفلسطينيتين المضروبتين في عقليهما، فتجرأت قائلة :

- وهناك أسباب أخرى للطلاق، فكثرة السيولة النقدية النفطية لدى بعض الجهلة بالاسثمار الاقتصادي، يجعلهم يستثمرون بشراء الحريم بالزواج مُدّةً محدودة، بغرض الاستمتاع بهن، ثم تطليقهن دون سبب. تجدينهم يُصرّحون علناً بأنهم يرغبون بتجديد الصنف، فصرنا نسمع ونشاهد ما يسمونه؛ زواج بنية الطلاق مع سبق الإصرار والترصد، وما تبعه من زواج المسيار الذي صار يُدمّر الأسر والمجتمع ، والزواج المدني، والزواج العرفي الذي يُضيّع حقوق المرأة والأولاد، والزواج السياحي الذي يقدم المرأة كلعبة، وزواج المتعة الذي يجعل المرأة سلعة.. كل القصة وما فيها، أن الرجال

معهم نقود ، ويريدون أن يستمتعوا بنقودهم..! فقالت تغريد :

– لماذا لا يستمتعون بجمال الطبيعة والرسم والموسيقى والنحت والشعر والأدب، وسائر الفنون والعلوم والاختراعات والأعمال، والصناعة والتجارة والدفاع عن الوطن؟ فقالت ماجدة ساخرة :

– البنية التحتية هي الهدف..! كل منصات الإعلام العربي صارت لا تتحدث إلا عن البنية التحتية، كل المؤتمرات ووسائل الإعلام والوزارات والدوائر الرسمية مشغولة اليوم بعصر الشفافية، وليس بالتقنية والصناعة والتصدير ، إنهم يستمتعون بالشفافية.... المهم أن يشاهدوا ذلك الثوب الذي قال عنه الفنان فؤاد المهندس)مبروك عليك الفستان اللي مش لابساه ده(كل خطب المسؤولين صارت تتضمن عبارات عصر الشفافية و الاهتمام بـ البنية التحتية... ! وهكذا يبدأ شهر عسل، فيتبعه شهر بصل كما يقولون، ثم طلاق..! بصراحة يا جواهر؛ رجالكم يرفهون أنفسهم كثيراً بالبنية التحتية وعصر الشفافية..! فأيدتها السيدة قائلة :

– هم يرفهون أنفسهم، ثم يطلّقون نساءً تجدين الكثيرات منهن هن وأطفالهن الرُضّع يعيشون بعد الطلاق على صدقات الجمعيات الخيرية.. تدمير كامل لمجتمع بأسره.. نحن نعاني من الكبت لدرجة قد تدفع بعض البنات أو النساء المحرومات لتعاطي المخدرات ثم إدمانها، ومن تقع في هذه المصيبة لا تجد لها معيناً، وحتى أهلها لا يتفاعلون معها، وإذا تفاعلوا فلا يستطيعون إنقاذها.. وقد تكون الأم المُضَيّق عليها الخناق أيضاً لا تعرف ما هي المخدرات، وإذا عرفت فقد لا تستطيع إبلاغ زوجها بأن ابنتها مدمنة مخدرات، وإذا علم الأب فقد لا يتصرف بحكمة، وإذا تصرف فقد لا يستطيع إرسال ابنته إلى)مصحة المخدرات(، ذلك لأن إرسالها يحتاج إلى مصاريف كثيرة قد لا يملكونها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، سيسبب الفضيحة للبنت والعائلة، ولن تجد من يتزوجها لاحقاً، وستكون ورقتها

محروقة، أو زجاجها مكسوراً، ولذلك تنزوي البنت في جحرها مكبوتة، وبعدها خذي اتصالات هاتفية، وشبق جنسي على الهاتف، وبالتالي فأية فرصة تجدها سانحة للخروج من قبو البيت، فإنها ستفعل الأعاجيب. فقالت ماجدة:

- لماذا لا يستبدل اسم)مصحّة المخدرات(بإسم)مركز التأهيل والإرشاد(مثلاً، ليكون مركزاً إرشادياً عاماً، فتذهب إليه كل الصبايا، وكل منهن تدخل قسماً خاصاً، فهذه تستفسر عن الدورة الشهرية، وتلك تستفسر عن سرطان الثدي، وغيرها تستفسر عن هشاشة العظام، وغيرها تتعلم من مختصة في المركز كيفية ممارسة العلاقة الزوجية النموذجية، وتلك تستفسر عن أمراض الجنس الرهيبة؛ كالإيدز والهربس وكل الأمراض الفيروسية، وحتى إنفلونزا الطيور، وتلك تراجع طبيباً مختصاً، نفسياً، أو عصبياً، أو صحياً، أو جلدياً، أو عالم نفس اجتماعي سلوكي، وتلك تراجع طبيباً مختصاً بالتخلص من إدمان المخدرات، أو غير ذلك، فيختفي الحرج من ذهاب امرأة إلى مبنى خاص يسمونه)مصحّة المخدرات(، ويخرجن من المركز المذكور مؤهلات لبدء حياة جديدة، خالية من الفضائح؟ وأضافت تغريد :

- وحسب ما قرأت، فإن الوقاية والعلاج يتمان أيضاً بالتربية المدرسية، والوعظ الأخلاقي، والديني والنفسي والفيزيائي، وأحياناً الكيميائي الدوائي، للتخلص من هذا البلاء!

نظرت السيدة جواهر إلى ساعتها، فقالت: أف..! لقد تأخر السائق، مضى الوقت سريعاً..! فقالت لها ماجدة :

- خليك معنا، لقد سعدنا بقدومك، دعينا نستغل الوقت بالحديث المفيد الممتع معك، وقولي لنا: كم خادمة لديك في البيت؟ وكيف تتعاملين مع خادماتك الشرقيات؟ وهل تفهم عليك خادماتك؟ هل يفهمن لغتنا، وهل يتقنّ طبيخكم، وهل يتطبّعنّ بطباعكم؟ أم أن الأولاد والبنات يتطبعون

بطباع الشرق ؟ فأجابت السيدة :

- لدي ثلاث خادمات شرقيات، ولا بد من التطبع، فالخادمة تأتي إلى بلادنا لتقدم الخدمة، ولهذا فهي مطالبة بأن تسلك سلوكنا، وتتحجّب خارج المنزل بحجابنا، وتهتم بالنظافة، ولكن وللحقيقة فإن أذواقنا تأثرت بالطعام الشرقي والتوابل الهندية والمأكولات البحرية، مع أن بلادنا صحراوية والمأكولات البحرية غريبة علينا. فقالت لها ماجدة:

- المأكولات البحرية ليست غريبة على بلادكم يا أم محيسن، بلادكم محاطة بالبحار، والشاعر العربي قال في ذلك:

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا

فكيف تقولين إن المأكولات البحرية غريبة عليكم؟ تخيلي لو كنت أنا مسؤولة في بلدكم، لاشتريت أسطولاً ضخماً من السفن، ليست النفطية، بل سفن صيد السمك العملاقة، ونشرتها في عرض البحار المتلاطمة؛ من هنا وحتى المحيط المتجمد الجنوبي، حيث بحاركم مفتوحة على أكبر مدى بحري في العالم، لا حدود له، وأنا أوأكد أن إيراداتها السمكية والكنوز البحرية، ستزيد كثيراً عن إيرادات النفط....! كنت أقرأ في كتاب ألف ليلة وليلة عن الرحلات العربية البحرية التي لا حدود لها، وفي قيعان المحيطات، فأرى فيها العجب العجاب. ! ولكن يبدو أن العرب لا يتعلمون من كنوز تراثهم الرائع غير الجنس.

xxxxx

ضاقت السيدة جواهر بمزايدات ماجدة، وتعليقات تغريد، ونظرت إلى ساعتها مرة أخرى، وقالت: لقد تأخر السائق الملعون! سأتصل به، لأعرف أين هو.. وهنا أخرجت هاتفها النقال، وفتحته ثم ضغطت على عدة أرقام...وانتظرت الرد الذي لم يأت منه سوى عبارة)الهاتف المطلوب مغلق

حالياً، يرجى الاتصال فيما بعد.(تضايقت كثيراً وقطّبت جبينها، ولم تخف تبرُّمها بتأخره غير المبرر.. فقالت ماجدة :

- ليته يتأخر أكثر، فنستمتع بحديثك أكثر..

وفي الوقت الضائع بانتظار السائق، اضطرت المرأة للتسلي بمتابعة الحديث مع الصبيتين، فقعدت مرة أخرى، وقالت لها ماجدة:

- ولكن يا أم محيسن، لماذا لا تقودين سيارتك بنفسك، وترتاحين من انتظار السائق، وبلاويه ؟ فأجابت المرأة محرجة :

- أنا أتمنى ذلك، ولكن زوجي يقول لي: هذا ممنوع وحرام شرعاً، ما دمت امرأة فأنت ممنوعة شرعاً، ومحرّمٌ عليك قيادة سيارة بنفسك شرعاً.. !

- وما هو سبب منع الشرع هذا ؟

- لا أدري. يقول إن ذلك ممنوع شرعياً، ورجال مذهبنا يعارضون أن تقوم المرأة بقيادة سيارتها !

- ولكننا نعرف أن خولة بنت الأزور كانت تنطلق بين الجموع وهي تركب حصانها لتحرر أخاها ضراراً من معتقله، وكثير من النساء العربيات كن يسافرن ويذهبن إلى الحج وهن راكبات جملاً داخل هوادجهن.. أليس ركوب الحصان أصعب على المرأة من ركوب السيارة؟ أليست قيادة المرأة للجمل، فيها مخاطرة وتحمُّل مسؤولية أكثر من قيادتها للسيارة، مع فارق الرفاهية !؟ فتشجعت جواهر وقالت متجاوبة مع الفكرة:

- أعتقد أن استخدام سائق خاص للمرأة هو هدر للاقتصاد الوطني، فالمرأة القاعدة بجوار سائقها هي معطّلة لطاقاتها، وقدراتها على العمل والتفكير والتدبير، فالقيادة فن وذوق وأخلاق كما علمونا، فلماذا يحرمون المرأة من هذه المعطيات، فلو قادت المرأة سيارتها، لوفرنا مئات آلاف فرص العمل للمرأة، وأدخلنا المرأة إلى سوق العمل، لتخدم نفسها، بدل

استخدامها السائقين الأجانب.. نحن نقول لهم إن ديننا سمح، ولا يحمل مثل هذه التعقيدات، ولكنهم يغمضون عيونهم، ويتذرعون بالدين، والدين براء من هذه الخزعبلات! فأيدتها ماجدة قائلة:

- أليس ركوب المرأة مع سائقها والانطلاق وحدهما في سيارة مغلقة، منافياً للدين الذي يقول بما معناه) :ما اجتمع رجل وامرأة، إلا وكان الشيطان ثالثهما(، فها هو السائق والمرأة وحدهما في غرفة سيارة مغلقة. فكيف يسمحون بوجود السائق مع المرأة وحدهما في سيارة مغلقة؟ وتدخلت تغريد في الحديث فقالت:

- كنت أشاهد مسلسلات تلفازية، ويقولون إن المخرج يمنع اجتماع ممثلَين؛ رجل وامرأة في غرفة واحدة مغلقة، وحسب تعليمات رجال الدين، فإن الغرفة يجب أن يبقى بابها مفتوحاً. وسخرت ماجدة من ذلك المنع قائلة:

- أقترح أن يقود السائق الفلبيني سيارة الجرمة المصون، مع إبقاء بابيّ السيارة مفتوحينً، فتفرد السيارة جناحيها طوال الطريق، هكذا كجناحي النسر المرفرفين، كي لا يأثما..! قالت ذلك وهي تفرد ذراعيها ساخرة.. فوبختها تغريد قائلة :

- صحيح إنك صرت هُزُواً! فأوضحت ماجدة قصدها :

- أليس السماح للمرأة أن تقود سيارتها بنفسها، وتذهب وحدها إلى السوق، أو لزيارة صاحباتها، أو أهلها، أفضل من مرافقة سائق لها؟ وها أنت تلاحظين أن السائق قد تأخر، فلو كانت سيارتك معك، لخرجت في الوقت المناسب لك، وبلا ضغوطات. وقالت تغريد مداعبة:

- ولكننا نحن من مصلحتنا وجود سائق معك يا سيدة جواهر، ذلك لأننا كلما تأخر السائق، ازداد استمتاعنا بكل هذه الجواهر الرائعة، ويا ليت السائق يتأخر أكثر، لتبقي وتنامي عندنا، ولو أن غرفنا ليست على قدر

المقام. فقالت السيدة :

- لا، أبداً. ! قيمة البيت من قيمة صاحبتيه، وقيمتكما عالية، وأنا والله استمتعت بالحديث معكما، وأشكر الله أن ابنتي شيخة تدرس على أيديكما، فتعلمانها الحياة العصرية المنفتحة التي حُرمنا منها. !

وبعد تأخير دام أكثر من ساعة عن الموعد المحدد لعودة السائق، رنّ جرس الباب، فأطلت ماجدة، وقالت:

- ها هو السائق قد وصل.. كان شاباً أسمر، حنطي اللون، متوسط الطول، ممتلىء الجسد، في العشرينات من العمر، وسيم الشكل، خفيف الحركة، متأهباً لمساعدة المرأة، فودعت المرأة مضيفتيها بالقبلات، وخرجت وهي متوترة الأعصاب، وغاضبة لتأخر السائق عليها، فبادرته باندهاشها لغيابه كل هذه المدة، وسألته :

- أين كنت كل هذه المدة؟ وقبل أن يجيبها، رفعت ذراعها إلى أعلى، وصفعته بكفها على وجهه، فنظر الشاب بانذهال إلى الصبيتين الواقفتين في وداع جواهر، وشعر أن كرامته قد أهينت، وأنه مضطر للرد، لحفظ كرامته، وماء وجهه، فقال بلهجته المكسّرة، للسيدة التي ما تزال واقفة، تنتظر منه أن يفتح لها باب السيارة، بينما ذراعاه تتحركان بنزق في كل الاتجاهات :

) -إنت ليش أضرب... ! أنا ما أسمح لك أضرب...! أنا مش أنضرب، طيب والله إنت عارف شو بعمل أنا... وأنا الله الليلة ما في دق دق!... بتشوف... (! فأحرجت المرأة وصمتت وتراجعت، وفتحت بيدها باب سيارتها، وجلست صامتة مصدومة بما تفوه به الفلبيني، وانطلقت السيارة بهما. وأغلقت الصبيتان باب شقتهما، وهما مندهشتان بما شاهدتاه وسمعتاه. وسألت ماجدة صديقتها تغريد :

- ما معنى كلمة دق دق يا بنت؟ فقالت تغريد مصعوقة بالحديث:

- لست أدري يا ماجدة..!

ولم تعودا للحديث في ذلك الموضوع، ولم تزرهما السيدة جواهر بعد ذلك اليوم. !

الجرافة المجنونة

عادت الحرمتان للمرّة الثانية مع محرمهما إلى معسكر الحصار المكتظ باللاجئين المعتّقين، كانت الحالة يرثى لها، والتراب والنفايات تهاجم الطرقات والشوارع، وجرافة كاتربلر عملاقة تنفلت من عقالها، وتجرف العمارات وتعتدي على قيعانها، وأطفال متراكضون هنا وهناك، يرجمون الجرافة بالحجارة، وآخرون يحملون لافتة عريضة محمولة من طرفيها المثبتين بعصاتين صغيرتين، ومكتوب عليها:

)لا تُجرِّفونا، نريد أن نعيش(وامرأة شقراء من جماعات السلام العالمي وحقوق الإنسان ترفع علماً أبيض، وتتراجع أمام الجرافة المتقدمة، محذرة إياها من التمادي في تدمير البيئة، وإذلال الإنسان... بعد ذلك نشرت الصحف ووسائل الإعلام أن اسمها)راشيل.كوري(وأنها أمريكية الجنسية، وكانت مخطوبة لعشيقها وحبيب عمرها)تود(، وتنوي العودة لتتزوج منه، ولكنها كانت تفكر بأن تقدم مهرها لعريسها على شكل موقف، تستحق معه أن تعيش حياة زوجية سعيدة، إذا استطاعت أن تخفف من عذابات هؤلاء الفلسطينيين، المجرفة بيوتهم الطوبية المصابة بهشاشة العظام، وإذا عملت على وقف هذه الجبال الآلية المجنزرة المجنونة المتحركة نحوهم، والتي لا تبقي ولا تذر... كانت تدفع مهرها لحبيبها على شكل ضمة من السلام، وبعد تحقيق السلام، ستفرح بزواجها واستقرارها الأبدي، وتصنع جنة من السلام، هناك عند حافة الجحيم. ولكن الجبال الحديدية المتقدمة نحوها لم تمهلها، بل أخذتها في طريقها، وأرسلتها إلى جنة بدون سلام، ولم تسمح لها حتى بعودتها مع سلتها فارغة! كانت راشيل كوري تصرخ بالمجند السائق بصوت عالٍ قائلة:

- الآليات جاءت لترسيخ حضارة الإنسان، وليس لتدمير بنيته التحتية، وإرجاعه إلى عصر الإنسان الأول... ! ولكن الرجل الآلي لم يكن يسمع صوت صراخها، بل كان يتقدم، والفتاة الجميلة تتراجع، وتواجه الجرافة بالعلم الأبيض، ولكنها انتبهت إلى أن ظهرها قد استند على حائط العمارة التي عليها الدور في الهدم !

كان الناس يتصايحون، ويحملون الممكن من أمتعتهم، ويبتعدون، وامرأة تحمل طفلها الرضيع بكيس معلق على كتفها، وطفلين آخرين تجرهما بيديها الاثنتين، وبأسنانها تلتقط فم بقجة لا نعرف محتوياتها، وتنظر إلى كاميرات التصوير مرهوبة مندفعة مثل قطة تنقل أولادها، وتجري مع حمولتها وهي خائفة مرعوبة، والفتاة الشقراء تستصرخ الضمير الإنساني بأعلى صوتها، والجبل الحديدي يتقدم، والشابة الجميلة ترفع بيدها اليمنى علماً أبيض، وباليسرى ترفع شعرها الأشقر، وتصيح.. ارحمونا.. نريد أن نعيش.. والجرافة مستمرة بتقدمها..فاشتبكت أصابع قدمي الصبيّة الشقراء الزهرية بأسنان حديد الجرافة المتقدمة، كانت أصابع قدميها طويلة ورفيعة، بضة زهرية مشمشية اللون - يقال إن جمال المرأة يبدو من انسياب أصابع قدميها، ويزداد تقدير جمالها بمدى طول تلك الأصابع التي تتوجها أظافر نضرة بيضاء من غير سوء - اصطدمت أصابع قدمي الشابة الزهرية الطرية الغضة البضة الرقيقة المنسابة ببراءة فوق نعلها النسائي الزحّاف البسيط، مع مسننات الجرافة الكاتربلر العملاقة المنطلقة من عقالها بكل عنفوان الآلة - المأخوذ اسمها من الإله العظيم - فوقعت الشابة على الأرض، وتكسّر عمود الرخام الأفروديتي المتناسق الجمال والروعة، وانشقت الشمامة الزهرية إلى عدة فلقات..! وراحت تنساب منها دماء زهرية الحمرة، وامتزج لحم وعظم ساقيها الورديتين مع التراب والطوب المتهاوي، وامتزج اللحم بالتراب بالدم بالعظم بالإسمنت المسلح بالحديد، بينما شرر النار يتطاير من جراء انسحاق

أسنان الجرافة بحديد تسليح العمارة بلحم الفتاة الطري الندي الطاهر.

XXXXX

كان الناس يتحركون في محيط سجنهم الكبير، ويأكلون فتات الأطعمة، ويشربون مياه المصارف الزراعية، التي يتفضّل عليهم بها ذوو الحضارة الديمقراطية الحرة المتعددة الجنسيات المتحدة ضدهم، ويضحكون على أنفسهم كثيراً تحت باب،)شر البَليّة ما يُضحك(، والأطفال لا يجدون لهم حدائق يلعبون فيها، ولا مراجيح ولا سحاسيل، ولا دويخات، تمتص طاقاتهم المتدفقة بالحيوية والحركة، فيتفعفلون بالتراب، ويرجمون الجرافة المجنونة بالحجارة، والجرافة لا تلتفت إليهم، بل تواصل تجريفها بكل نشاط وجدّ واهتمام، والعرق يتصبب من جباهها الفولاذية الصفراء، بينما العمارات الكرتونية في حي سلام الشجعان وأحياء كثيرة لاحقة مصابة بفقر الدم وهشاشة العظام ومحشوة باللاجئين المخضرمين تتهاوى بمن فيها... وبعض خيام صغيرة نصبت في الساحة الواسعة وسط المعسكر، كانت قد قُدِّمت هدايا تكريمية، وجوائز ترضية من وكالة غوث النازحين الجدد، وأطفال صغار وعجائز يدخلون ويخرجون من عقالها، يملأ أحدهم دلو ماء متسخ، ويحمل طفل قطعة خبز جافة، ومخاط أصفر ينزل من أنفه، والذباب يهاجم محيط فمه، وحمامته الصغيرة بحجم قرن البامياء الصغير، تطل من بين فخذيه العاريين، وهو يضحك لكاميرا الصحافة، ويرفع لها إصبعي يده اليمنى؛ الشاهد والسبابة، بعلامة النصر، ويمسك حمامته)قمع البامياء(بيده اليسرى، كل ذلك تحية للكاميرا التي تصور هذا الشعب المقرّر جعله متخلّفاً، بهدف المتاجرة بصوره، بصفته لا يستحق الحياة، ويجري تجريفه وطمره تحت التراب، واستبداله ب شعب الله المختار، شعب حضاري ديمقراطي تكنولوجي عولمي، يأكل بالشوكة والسكين، ويتبول في مراحيض من العاج، ويغسل نفسه بمياه بكر مُنقّاة، تخرج من صنابير ذهبية، ويأكل

اللبن والعسل والكافيار، في أرض اللبن والعسل!

XXXXX

حصلت مصيبة كبرى، صوت انفجارات دمرت محددة العودة! وبعد انقشاع سحابة دخان قنبلة هيروشيمية صغيرة، وتبيُّن وضوح في الرؤية، اختفت ملامح المحددة. هجم الناس... هنا كانت محددة ودكاكين مجاورة لها.....اختفت معالم المنطقة.. لم يشاهدوا أمامهم سوى حفرة كبيرة مملوءة بقطع حديد مطعوج، ومعالم متناثرة.... بحثوا عن الحداد جهاد، وعن عامله المساعد، وعمن كان معه في المحددة لحظة الانفجار.. لم يكن هناك أحد.. شاهدوا قطعاً من اللحم وبقعاً من الدم الأحمر وحديداً أسود ملتوياً ومتشابكاً ومحروقاً في بؤرة جورة في الأرض، أسلحة الدمار الشامل نثرت التراب المحروق على كل مكان. كانت بقايا نُتف، جثث الحداد جهاد ومن معه، صبغت المحددة بألوان سوداوية مطرطشة باللون الأحمر.. تجمّع كل أهل المعسكر حول وفي قلب جورة المحددة، شاهدت تغريد وماجدة وأبو مهيوب دماراً لم يسبق له مثيل، قعد الجميع على الأرض، اندفع الشباب يجمعون قطع اللحم ونتف العظم، لفوا ما جمعوه في علم فلسطيني كبير، لم يستطيعوا تمييز بقايا الشهداء، بعضها من بعض، فجمعوا أشلاءهم كلها في علم واحد، ثم وضعوها في تابوت مخصص لهذه المناسبات، وحملوها في زفة عرس كبير إلى مقبرة الشهداء، حيث تجمع في جنازتهم خلق كثير، وهتفوا باسم الله والوطن والشهيد، وحلفوا بالله العلي القدير أن ينتقموا لهم خير انتقام!

كان عرس جنازات بالنسبة للشهداء وذويهم، ولكنه كان نهاية آمال لم

تتحقق بالنسبة لتغريد، التي كانت تتأمل الفرج كل يوم بنضوج جسديهما هي وجهاد، وحاجتهما للتأهل والزواج، وخِلفَةِ البنين والبنات، ولكن الانفجار قطع قول كل ظنين !

أنوثة ساحرة

كانت السنة التدريسية الخامسة مأساة في عيون المعلمتين، إذ غاص أبو مهيوب في عمل الحدائق لدى بعض أغنياء مدينة الواحة، وتخلى عن تعاونه مع مدير الزراعة الذي كان يفرض عليه أتاوة شهرية ثقيلة لقاء العمل الذي يجلبه له، وصار كل عمل)أبو مهيوب(يتأتى له من جيران ومعارف أصحاب الحدائق التي يشتغل فيها،)ويا بنت قولي لأختك(فالمرأة تقول لأختها أو لصديقتها أو لجارتها، والرجل يبلغ صاحبه أو صديقه، أو من يهمه أمره قائلاً: هناك بستاني شامي يتقن عمله، وهو محترم، وموثوق به، فيحصل البستاني أبو مهيوب على عمل إضافي جديد؛ فيعمل عند هذا ساعتين، وعند ذاك ثلاث ساعات، وعند تلك ست ساعات، وهكذا يبرمج وقته، ويتنقل بسيارته التي غيّرها، واشترى بدلاً منها سيارة نقل يابانية صغيرة ذات صفين من المقاعد الداخلية، تتسع لأربعة ركاب بجوار السائق وخلفه، ويستخدمها في الذهاب إلى المدرسة والإياب منها، ومشاوير التسوق أو النزهات في خلاء الصحراء..

تجلس ماجدة وتغريد، واحدة بجوار المحرم، والأخرى في الغمارة الخلفية، فالتي تصل أولاً، تقعد في المقدمة، والتي تليها، تقعد في الخلف..

استمر الرجل يعمل، ويتنقل من هذه الحديقة إلى تلك، فيحصل على نقود مجزية لقاء عمله..

بدأت النعمة تظهر على وجهه وملابسه، ولم تستقر النقود في جيبه، بل

كانت تسيل باتجاه البنك، وتودع هناك، حتى صار عنده رصيد مالي محترم، مقارنة بوضعه السابق، وشعرت البنتان بذلك التغيُّر المالي لدى الرجل، وأنه لم يعد يُقتِّر في المصروف، وعندما حدّثهما عن جمالية الشقة الجديدة، قالت له ماجدة مداعبة:

) -أبوه يا أبو مهيوب، الأشياء صارت معدن (! فقال الرجل:

- الحمد لله. وتقديراً لحمد الله، سيكون سكنكما في الشقة الجديدة على حسابي، ولن آخذ منكما بعد اليوم حصة من أجور أعمالكما، فأموالكما حلٌ لكما، وأنتما الآن محرمتان في عنقي، وأنا أترك لكما الإنفاق على مصاريفكما الشخصية والطعام والشراب، وما عدا ذلك فهي على حسابي الشخصي.

دهشت الصبيتان من قراره هذا، وفهمتا أنه قد وجد كنزاً، والحقيقة إنه لم يجد غير مردود الجدّ والتعب والمتابعة، فصار إيراده يعادل حوالي خمسة أضعاف راتبيهما معاً، وشعر الرجل أن أقدام البنتين هي التي جرّته إلى هذه النعمة التي لم يحلم بها مالياً، فشكر ربه بأن ردّ لهما الجميل، ولأهلهما المحتاجين لكل قرش تحصلان عليه، وهذا جعل البنتين تشعران بدفء)أبو مهيوب(وحنانه وشهامته، صارتا تشعران أنهما فعلاً تابعتان له، بعد أن كان هو التابع لهما، وصارتا تتعاطفان معه أكثر من ذي قبل، وتسعيان لمزيد من الاقتراب منه، وتهابانه أكثر من ذي قبل.

وذات ليلة، فتح أبو مهيوب باب الحمام، الذي كان مشقوقاً بعض الشيء، ففوجيء بوجود تغريد تقف داخله، تمشط شعرها، وهي خارجة من الحمام، لم تكن عارية، بل كانت تلف جسدها الأشقر المتناسق بمنشفة الحمام المربوطة فوق نهديها الرمّانيتين، واللذين تشعُّ نضارة بهائهما العلوي،

وتتدلى المنشفة البنفسجية القصيرة التي لا تغطي سوى الجزء الموصل بين فخذيها الشمعيين المكتنزين أنوثة ساحرة! شاهد المنظر الزهري الرخامي الطري النقي، فارتبك واعتذر لدخوله المفاجيء، ولكن تغريد قالت له بهدوء وخجل: أنا آسفة لأنني تركت الباب مفتوحاً، وعلى أي حال، دعه فأنا خارجة إلى غرفة نومي.!

تراجع الرجل، وخرجت الفتاة من الحمّام ببراءة تامة، وما زال أبو مهيوب ينظر إليها مستغرباً خروجها هكذا شبه عارية، وبطريقة لم تسبق لها أن عملتها..! وانتهت القصة.

وفي إحدى سهراتهما، سألت ماجدة:

- ما رأيك بأبو مهيوب؟ ألا تشعرين أنه رجل وسيم؟

فقالت تغريد بدهشة:

- وسيم لنفسه، ولمن يتعامل معهن !

- ولكننا نحن أيضاً نتعامل معه !

- لا شك أنه رجل محترم ووسيم، ومهيوب وأبو مهيوب أيضاً !

- في الحقيقة، شخصيته تعجبني !

- رجل منظم، وصاحب أصول.

- والله إنه حلو !

- لم يبق إلا أن تتغزلي به علناً !

ضحكت الصبيتان وانتهى المشهد.

وبعدها صارتا تذهبان برفقته مساء كل خميس إلى السوق، يتفرجون على خلق الله المنتشرين في الأسواق المسقوفة، والمواد التجارية المعروضة، من ملابس وحاجيات نسائية ورجالية. وفي سوق البقالة يشترون ما قلّ من

علب السردين، وفاصولياء، وعدس، وأرزّ وسكّر، وبهارات قرفة، وشطة حمراء حارّة، وفلفل حار.... وفي سوق الخضار يشترون الفاصولياء والباميا ء والباذنجان والبطاطا، وقليلاً من ثمار تشتهيها إحداهما، أو كلتاهما؛ مثل المانجا أو الفراولة أو الموز الصومالي أو التفاح المستورد، وخسّة، وضمة من كل من البقدونس والجرجير، وأوقية من الفلفل الحار، يشترون هذه الأغراض ويضعونها في سيارتهم، ثم يتجولون في شوارع المدينة، ويتعرفون على معالم جديدة لم تشاهدها الفتاتان من قبل، فيقول لهما أبو مهيوب، وهو متفاخر بقيادته للسيارة، وكذلك بمعرفته معالم المدينة:

– هذه وزارة التربية والتعليم، وهذه وزارة الدفاع، وهذه حديقة الأمل، وهذا الملعب البلدي الكبير الذي تقام عليه مباريات الدوري للولاية، وهذا أكبر فندق خمسة نجوم في الواحة. فتقول تغريد:

– ناطحة سحاب، ما شاء الله! وتقول ماجدة ساخرة:

– ما رأيكما أن نرحل من بيتنا، ونسكن في هذا الفندق؟ فيجيبها المحرم:

– الرحيل عملية بسيطة، ولكن راتبك الشهري كله، لا يسدد نفقات نوم ليلة واحدة هنا!

ضحكوا جميعاً، وعادوا إلى البيت فرحين.

كان أبو مهيوب يحاول بذلك أن يفرحهما، وينسيهما هموم العمل، والمعاناة والعذاب النفسي الذي تلقيانه لمجرد كونهما فلسطينيتين، وينفّس عن الكبت الذي تعيشانه.

وأثناء تجولهما برفقته ذات يوم في سوق المخيمس التجاري، فوجئتا بلقاء الشابين اللذين كانا قد ردا لهما كرة القدم، التقوا وجهاً لوجه، حيوا

بعضهم البعض، وتعارفوا من جديد، ولكن هذه المرّة عن كثب..

- أنا اسمي عباس الأخضر، وأعمل موظفاً في البنك العربي، في حي الشيح.

- وأنا اسمي نواف الخياط، وأعمل محاسباً في شركة سي دي بي، في حي المشاعل.

- وأنا اسمي ماجدة الأسمر، وأعمل معلمة في مدرسة منيرة بنت المهدي، بجوار مسجد الإمام.

- وأنا اسمي تغريد شلهوب، وأعمل معلمة في نفس مدرسة صديقتي وورفيقة عمري ماجدة.

- تشرفنا.. تشرفنا.. تشرفنا.. تشرفنا.. قال كل منهم. ولكن الشابين اللئيمين في تعارفهما، استشارا الصبيتين حول بعض الأثواب التي يريدان شراءها لوالدتيهما وأخواتهما، فسارا معهما داخل محل الأثواب المجاور، وأسديا لهما النصيحة، وعرّفاهما على نوعية القماش الناعم غير اللماع، الثقيل، الأصلي..اقتنع الشابان بالنصيحة. وهكذا مر الوقت على عجل، فتنحنح أبو مهيوب، واستأذن من الشابين، وسحب البنتين بقوله: يا الله....! فمشت الصبيتان معه دون اعتراض.

هياج النحل

في صيف السنة السادسة، عادوا ثلاثتهم إلى معسكرهم المكتظ، فاستقبلهم أهلهم بالترحاب، وانقضّوا على هداياهم، فرحين بها.

كان طعم العيشة في المعسكر أكثر مرارة، والناس أكثر جراحاً، ولكنهم أكثر تحدياً، خاصة بعد أن سادت الدبابات المتقدمة داخل المعسكر الصغير، ومادت الجرافات والسيارات العسكرية المصفحة، وحرثت الزرع، وجففت الضرع، وكأنها تخوض حرب العلمين التصفوية لكأس العالم بين رومل ومونتوغمري... صار المعسكر مفرغاً من عماراته وبيوته الطوبية غير المقصورة، وافتتحت في وسطه ساحات مؤهلة لتدرج فيها الطائرات المدنية نظراً لاتساع عرضها، قال المدججون بالحديد والنار إن هدفهم تهوية المنطقة، وتعريضها للشمس، لأن دخول الشمس إلى المعسكر عمل صحي، يطرد الرطوبة والأرواح الشريرة والأشباح، وإن أشعة الشمس تُزوِّد المهجّرين بفيتاميني ألف ودال الضروريين للأجسام. لم يفهم أحد فلسفة هؤلاء المحتلين في تجريف البيوت على رؤوس النائمين، فلم يسبق لاحتلال في التاريخ أن قام بهذا التجريف المدني للبيوت، صحيح إن الحروب العالمية كانت تنسف المواقع العسكرية، وقد تنهدم فيها بيوت للمسالمين، ولكن الهدف كان تحطيم مواقع عسكرية، وأما هذا الاحتلال فإن مواقعه العسكرية المطلوب تحطيمها هي عمارات وبيوت ومزارع الفلسطينيين قبل أرواح أصحابها... وهم يتقدمون بصمت أهل القبور، وبهدوء التماسيح الصامتة المتأنية، وبأعصاب باردة متعودة، وبشكل متواصل ومدروس، فتراهم يهدمون بيوت الناس غير الآمنين على حيواتهم وممتلكاتهم، بينما موسيقى أغاني الريف الغربية الرائقة المسخسخة تطلع رقراقة صاخبة كالنباتات من

فتحات الدبابات المتقدمة، وموسيقى القرَب الاسكتلندية المزركشة النغمات تكلل بالغار المصفحات العسكرية المندفعة نحوهم نحونا نحوهنّ نحوهما نحوك نحوه نحوها نحوي نحو طفلة رضيعة تنفجر بكاءً، وهي مقذوفة على قارعة الطريق، لأن رصاصة ثكلت أمها وهي تركض مجنونة تبحث عن طعام..!

XXXXX

وبعكس النقمة التي ظهرت على أبناء المعسكر، فلقد ظهرت النعمة على)أبو مهيوب(، تحت مفهوم)الذي يُحرِّك السَّم، يذوقه(، فهو الآن يتحرك في حي الجبارين، بملابس جديدة، ووجاهة أكثر من ذي قبل، بعد أن تحركت النقود في جيبه، وبسرعة قام بإصلاح بيته الذي تسكنه ابنته خديجة، وبنى حوله سوراً من الطوب المقصور، وفي مقدمته باب حديدي، يحميهم من العاديات، وأوصل شبكة المياه العامّة للبيت، وقدّم طلب اشتراك، فمدّدوا له الكهرباء، ودفع بالتي هي أحسن، فأوصلوا له هاتفاً أرضياً، وبنى غرفة نوم واسعة على سطح البيت، وفي داخلها حمام ومرحاض لا بأس بهما، وبجوارها مطبخ صغير، وفي مدخلها غرفة جلوس، وقال: هذه العلّية خاصة لي، وصار سكنه المؤقت أثناء زيارته للوطن في هذه العلّية، وأمامها سطح البيت المطل على كل المعسكر، وضع فيها حاجاته وأغراضه الشخصية، وشعر بخصوصية لم يعهدها من قبل، خلّصته من فوضى أطفال ابنته، الذين يملؤون البيت تحته حيوية وحركة، وحباً وشجاراً وصراخاً ونكداً، وروائح طبخ ونفخ، وجهاز مسجل يصيح بأعلى صوته : بحبك بحبك...بحبك بحبك، بظهري بحبك، بقلبي بحبك، بروحي بحبك، بعيني بحبك... ! وصوت التلفاز يصل مدوِّياً إلى أبعد مدى)..... ويشوتها أبو رجيلة.. ضربة

مسددة للهدف..! للهدف..! للهدف..! وجووووووووووووول.. جول.. جول..يا سلام سلّم، الحيطة بتتكلم.. مش معقول.. هنيئاً.. هنيئاً معجزة كبرى حصلت.. تعادل الفريقان.. الأهلي والزمالك...فرحة كبرى لم نحلم بها من قبل... مبروك يا ابو حنفي.. مبروك يا أهلي ويا ربعي ويا جيراني... مبروك.. نحن الآن نتقدم بضراوة وشراسة نحو الكأس... الجماهير ترقص في الإستاد.. الجموع.. بائعو اللّب والترمس يوزعون الدُّراية مجاناً على عشاق البوظة والآيس كريم....(وهذه مسيرة للقوى الفلسطينية، تمر أمام باب البيت، أفرادها يحملون لافتات مختلفة ألوانها وشعاراتها واتجاهاتها، فيقرأ أبو مهيوب من عباراتها: وإنها لثورة حتى النصر.... هويتي بندقيتي.. أوسلوا أوسلو.. بقرش يا أوسلو.. الطريق إلى خارطة الطريق مطروقة بالطرق الالتفافية ومحجوزة بالحواجز.. فلسطين من النهر إلى البحر.. نطالب بقرار ١٩٤ لعودة اللاجئين إلى ديارهم.. سلام الشجعان.. مؤتمر مدريد هو الحل.. الإسلام هو الحل.. المقاومة هي الحل.. نحن نتعفّر بالدماء وهم يتعفّرون بالنفط ... القدس قدسنا.. القدس عروس عروبتنا.. نرفض جدار الفصل العنصري.. حيفا ويافا عربية... نرفض التهجير... و بدنا وحدة عربية! وكلام كثير متداخل مع بعضه البعض، لم يفهم منه أبو مهيوب مطلباً محدداً.. كان حزيناً لهذا الاختلاف الوطني، ولكنه كان يصر على شيء واحد اسمه حق العودة إلى يافا واللد.

وفي جلسة كان فيها أبو غازي مستغرقاً بلعب ورق الشدة، قال له أبو مهيوب :

- هؤلاء يتغنون بخارطة الطريق، والطريق يضيق، وإذا سألت عن رأيي، أقول لك، ورزقي على الله: إما أن نعود إلى يافا، وإلا فلا نزل القطر! فقال له أبو غازي :

- أي إذا كانت الطريق مش حاصلين عليها، بدنا نحصل على يافا؟(

- الوطن المغتصب يؤخذ ولا يعطى، وكما قال عبد الناصر) :ما أخذ بالقوة، لا يسترد بغير القوة...(!

- يا عمي أنت قادم لي من بلاد النفط، ومعك قرشين، وشبعان ونائم ومرتاح، وجاي تعمل لي عبد الناصر، ومش عبد الناصر؟ أي جيب لنا عبد الناصر جديد، ونحن نطالب برأس الناقورة... ! لكن خلينا في الممكن، خلينا سائرين في الطريق!

- يا أبو غازي كل بيت في المعسكر خرج منه شهيد، وأنا راح من بين يديّ مهيوب شهيداً، وتقول لي معي قرشين..! أنا لم أذهب إلى بلاد إخواننا العرب للنزهة، بل لأشم نَفَسي هناك، وأساعد هالبنتين في كسب مادّي يسدد نفقات عدّة أسر في هذا المعسكر..! والعمل هو الجهاد الأكبر، وهذا لا يعني أنني تخلّيت عن حقوقي في وطني! لا يا عمي، الحق سيرجع إلى أصحابه، ولو بعد حين! لقد آمنا بالسلام، وذهبنا إلى كل مؤتمرات السلام في العالم، وكانت النتيجة تجريف باقي بيوتنا، وبناء الجدار على كيفهم، ويقولون إنه لا يوجد شريك استيراتيجي للتفاوض، وإذا استمر الوضع على ما هو عليه، فلن يبق جدار بيت في هذه البلاد، سوى الجدار الأكبر الذي بنوه، وإذا استمروا يبيعوننا سلامهم القاتل، فسيكون الجدار مفرغاً من أهله، وسيُعدم الفلسطينيون المتشبثون بتراب أرضهم، ويلاحق العرب مثلما تمت ملاحقة الهنود الحمر، فيبكي الباقون من العرب ضحاياهم وسلالاتهم المنقرضة عند جدار البراق الذي حوّلوه بقدرة قادر إلى جدار المبكى.. طار البراق، ولم يعد له مكان للعودة... قد يكونون يبكون على فراق براق الإسراء والمعراج!

- تعني أنك ترفض توقيعنا على سلام عادل ؟

- هم يريدوننا أن نوقع على سلام استسلامي، سلام على الدنيا السلام! سلام الشجعان، سلام الجدعان، والسلام ختام! و)يا سلام سلّم، الحيطة

بتكلّم.. (! الآن يا أبو غازي الحائط الكبير الذي يُغلّف الوطن هو الذي يتكلم، وإذا لم يقف العرب المسلمون والمسيحيون اليوم مع قضية مسجدهم الآيل للانقراض)الأقصى الذي باركنا حوله(وكنيسة القيامة وكنيسة المهد ، اللتين يمهّدون لتهميشهما، ثم..... لقد شاهدت حواراً على قناة البي. بي. سي. الفضائية البريطانية مع قسيس فلسطيني، ذكر فيه أن عدد المسيحيين في القدس عام ١٩٦٧ كان ٢٨٠٠٠ نسمة، والآن عددهم يقل عن ٨٠٠٠ نسمة.. فما هو السبب في انقراض المسيحيين من ديارهم تحت الاحتلال، سوى محاصرة الاحتلال لمواقعهم الكنسية الدينية التراثية الراسخة، تدريجياً، وفكفكتها بخطة مدروسة هادئة؟ إذا تخاذلنا وتنازلنا ووقّعنا، فقد يأتي بعدنا جيل يقلب طاولة المفاوضات الكاذبة، ويعيد الحق إلى نصابه. ولذلك لا داعي للتوقيع اليوم، فالتوقيع اليوم، يعني الاعتراف بالوقوع. !

وعندما خرجت أم غازي بصينية الشاي لزوجها وضيفه، وسمعت حوارهما الأخير قالت :

– صحيح أننا نزداد فقراً، ونعاني شظف عيش، ونقدم مزيداً من الشهداء، ولكننا نزداد ثباتاً وصلابة ومقاومة! وغداً يحلها ربنا !

×××××

وأثناء الإجازة الصيفية، انتبه بعض الشبان الراغبين بالزواج إلى أن الأستاذة ماجدة والأستاذة تغريد الموظفتين في ولاية الرمال، غير مخطوبتين كما كانتا في السابق، وحيث أنهما جميلتان ومحترمتان وفتيتان، ويجلبان دخلاً مدهشاً، والشباب تحت الحصار بأمسّ الحاجة للقرش الواحد، وبحاجة

لفرص العمل خارج البلاد، وخاصة في بلاد إخوانهم؛ عرب النفط، انهمر طلب الزواج من البنتين، وكثر العرسان، وازداد عليهنّ الطلب. ولكن ذوي المعلمتين شعروا بحاجة متزايدة للنقد، وأن العمل في بلاد الله الواسعة يسدد نفقات عدّة أسر معدومة هنا في المعسكر؛ فإذا تزوجت ماجدة أو تغريد، فمن أين سيأكل أهلها وإخوانها وأخواتها الأطفال ؟

وبعد وفاة أبو جهاد، وتقجير محددة العودة، واستشهاد ابنها جهاد الذي لحق بأخيه الصغير جعفر، بقيت أم جهاد مُلزَمة بتسديد ديونهم المتراكمة، فباعت أساورها وقلادتها الليرات الذهبية العصملية، ولم يبق من حيلتها سوى إيراد ماجدة.. وراتب تغريد هو الذي يدعم اقتصاد دكان أبيها الخاسر، فيخلق نوعاً من التوازن في عمله، ولذلك لم يوافق أي منهما على تزويج ابنته لأي طالب زواج. حياة خانقة لا تصدق!

وبعد اجتماع تشاوري، بحث كل منهم الأمر مع ذويه، صار الأربعة ذوي مصلحة مشتركة في عودة البنتين للعمل في ولاية الرمال العربية، بدون زواج، أو هكذا تم الاتفاق بينهم، بدون بحث التفاصيل.

ولكن الخُطّاب المتكاثرين حول البنتين ازداد سخطهم لشعورهم بأنهم مرفوضون، وفي هذا وحده إهانة لا تغتفر، والسبب الآخر هو قتل فرصتي عمل أمام شابين مؤهلين للعمل في الخارج، بينما هم محصورون أمام مَرجل يغلي في الداخل، ودماء تسفك، ودبابات تهدر، وجرافات تمحو كل ما يعترض طريقها، ورشاشات أسلحة أوتوماتيكية تنفلت من عقالها، فلا تعود تدرك من تقتل، ولا لماذا تقتل! وهم مضطرون لأن يكونوا - وبلا سبب - إما مقتولين أو قاتلين.. !

كان الجميع فرحين في اجتماعهم التآمري، وكلهم يُمجِّدون المعلمتين، وأبو مهيوب يختم للجميع بأن العمل شرف، وأن رزق العيال مطلوب، وأن العمل للرجل والمرأة، وليس محصوراً بالرجل وحده.

اتفقوا بالإجماع على أن يعيدوا البنتين للسنة السابعة مع)أبو مهيوب(للعمل في واحة الرمال، ما دام الرجل ابن الأصول يقوم برعايتهن، والأمور سائرة على خير ما يرام.

كان ضغط القرش مؤلما، وتفهمت المعلمتان واقع أهلهن المرّ، وإن كانتا في قرارة نفسيهما ترفضان ذلك، ولهذا عادتا، وفي قلب كل منهما حسرة! فالزواج سُنّة، ولكل منهما طموحها، ورغبتها بالتمتع بحياة أسرية كريمة، والدخول في لعبة متعة ومحنة إنجاب الأطفال، ولكن الحاجة عمياء..)والمحتاجة غنّاجة كما قال الوالي! (-

عادتا كالنحل الذي يعصرون من أقراصه العسل، فيهيج ويشيط ويثور! ولكنه لا يملك إلا أن يعود إلى أقراص شمعه المُدمّرة، فيصلحها، ويبدأ يبني من جديد، ويصنع العسل من جديد، وهكذا كانتا لا مفر أمامهما، سوى العودة، وجلب النقود من جديد..

انفجار..!

الروتين اليومي، واليأس من المستقبل المسدود أمام المعلمتين، جعل ماجدة تنفجر ذات أمسية، وتقول لتغريد بكلام مباشر، وبلا لف ولا دَوَران، وبالقلم العريض، ومن الباب للطاقة..هكذا قالتها، وكما تأتي، تأتي :

– إلى متى سنبقى هكذا، كل واحدة منا بقرة حلوب ؟ فدهشت تغريد من قولها !

– ماذا تقصدين؟ وماذا نستطيع أصلاً أن نفعل بمصيرنا؟

– نحن نشتغل طوال السنة ونعود إلى أهلنا، فيأخذون نقودنا، ويصرفونها على أرواحهم، ثم يعيدوننا مع)أبو مهيوب!(سنتين.. أربعة.. ستة.. ثمانية.. وأهلنا يرفضون زواجنا. كنا في بداية اللعبة؛ أنا مخطوبة لأخيك غازي، وأنت مخطوبة لأخي الشهيد جهاد، والآن صرنا نحن الاثنتين شبه مطلّقتين، أو فاقدتين لرفيقي دربهما، ولمركزيهما الاجتماعيين، ولاستقرار مستقبليهما، وماذا بعد؟

– هذا صحيح. لقد اكتشفنا أن كل واحدة منا قد تحولت إلى بقرة حلوب! فلماذا يزوجوننا، ويقعدون بلا حليب؟ تعرفين، لو كنتُ مكانهم، لقمت بنفس الدور، ورفضت زواج ابنتي، لأنها مصدر الرزق والمصروف لكل أفراد الأسرة. !

– ولكنك لست أباً ولا أماً..! أنت بنت، صارت في الثامنة والعشرين من عمرها، وليس هذا هو المهم، المهم أنه لا يوجد مستقبل! سنبقى هكذا كما تقول فيروز)رايحين جايين... عطول الطريق(سنبقى نتابع رحلة الصيف والصيف؛ وليست رحلة الشتاء والصيف.. كل صيفين زيارة،

والزيارة ليست لهدف سوى تسديد فواتير... نحن نسعى بين الصفا والمروة.. من معسكر الحصار، إلى واحة الرمال، ومن واحة الرمال إلى معسكر الحصار..! والحياة هنا في الواحة ليست بأحسن منها في الحصار! على الأقل هناك مجتمع وناس وعالم تحس ببعضها، ناس تشاهد بعضها، وتتقابل، وتتحاور، وتتسلى وتستأنس، وتجتمع ضمن مجتمع، وتختلف وتتقاتل وتتصالح، وتحب وتكره بعضها البعض، وتتناقض مع الغزاة؛ فيشتغلون، ويُقتَلون ويَقتُلون، فيشعرون أنهم على الأقل عاشوا الحياة قبل أن يستشهدوا، ولكننا هنا سنموت دون أن نشعر أننا عشنا الحياة، كما يقول المثل)) :مثل جبر.. من بطن أمه للقبر((إنهم يعيشون هناك، وإذا لم يكن لديهم شغل، فعلى الأقل يتزوجون! ونحن هنا بلا وجود، لا نرى أحداً، ولا نضحك مع أحد، ولا نتقاتل مع أحد! وأسوأ شيء أنه لا زواج بعد الآن..! فمن سيتزوجك بعد الثلاثين، يا ست الحسن والجمال؟

– هذه أهم نقطة! أهم شيء أنك تريدين زوجاً يا ماجدة؟ من أين أدبر لك زوجاً؟ أأزوجك أبو مهيوب، وأخلص منك؟ قالت ذلك ضاحكة، فردت عليها ماجدة:

– هذا هو بيت القصيد! اسمعي يا مجنونة، ما دمت مجنونة مجنونة، أريد أن أقترح زواجنا من)أبو مهيوب(. وماله أبو مهيوب؟! على الأقل رجل مهيوب ومحترم، وجيوبه مملوءة بالنقود، وطول عمره معنا، مؤدب وخلوق وخدوم ومستور، وعقله سليم، والجسم السليم في العقل السليم، معنى ذلك أن جسمه سليم للزواج!

– ولك يا حمارة) !العقل السليم في الجسم السليم(، وليس)الجسم السليم في العقل السليم.(

– وهل أبقى أهلك وأهلي فينا عقلاً أو جسماً سليماً؟! لاحظي أن جسم كل واحدة منا قد تقادم، وصار مثل معلبات الطعام المنتهية صلاحيتها، لقد

علت وجهينا كدمات من آثار السنين.. الزمن يمضي يا تغريد، ونحن نفقد مواصفاتنا بسبب عدم الاستعمال! والمثل قال)) :ظل رجل، ولا ظل حيطة((

- يبدو أن الرجال هنا قد استظلوا بالحيطان، فلم يبق أمامنا رجال، نستظل بهم..!

- وإذا كان أهلنا يرفضون زواجنا من شباب بلادنا، وها نحن الآن في المنفى، فلماذا لا نقبل بسنّة الله ورسوله، ونتزوج أبو مهيوب؟

- كيف نتزوجه؟ ومن أين نأتي بأولي الأمر ليوافقوا؟ ومن سيصادق ويشهد على زواجنا؟ ومن سيحضر عرسنا؟ هذا إذا كان هناك عرس من أصله؟

- لا تنسي أن العملية لا تحتاج أوراقاً، ولا محكمة، ولا شهوداً، ولا حتى عرساً، ولا ما يحزنون، فالكتاب مكتوب، بشهادة ولي أمر كل واحدة منا!

- أكيد إنك قد جننت يا ماجدة! أنت تبحثين الأمر جادّة!

- أنا جادة في قولي! ما رأيك أنت؟ هذه الرحلات المكوكية بين جراد البحر وسراب الصحراء لن تنتهي...! ونحن نعيش حياتنا مرة واحدة! وعندما يكون أبو مهيوب زوجنا على سنة الله ورسوله، فلن يستطيع أحد أن يفتح فمه بكلمة! ما رأيك؟

- والله معقول! لكنه غير معقول! نحن نعامل)أبو مهيوب(كأب، وليس كزوج.. !

- ياستي مثل أبينا، ولكنه ليس أبانا، ولا تنسي إن كتابه مكتوب علينا، وإنه محسوب علينا عند الله زوجاً، وكل واحدة تقول لزوجها: أنت حبيبي وزوجي وأخي وأبي وابني.

- صحيح والله، فأنا لا أفهم معنى لتلك العبارات التي نسمعها ونشاهدها في المسلسلات !

- فلنقل لأبو مهيوب: أنت أبونا وأخونا وحبيبنا وزوجنا و..... وخليها على الله.. !

- والله معقولة يا ماجدة، لكن هذا كلام مجانين! كلامك منطقي..! ولكنه كلام فارغ..! أنت تضعين النقاط على الحروف، ولكن هذه النقاط النارية أذابت الحروف وقتلتها... ! أنت مفكِّرة، ولكنك مُخَرِّفة، على وزن مُخرِّبة..وهنا ضحكت تغريد وقالت: هذه كلمة مُخرِّبة التي صاروا يضيفونها مجاناً على كل عبارة إعلامية، صدَرت هنا وحدها على الوزن والقافية..! أنا لا أكاد أصدق ما تقولين.... !

- دعك من الكلام المليء والكلام الفارغ، فالكلام نوعان: كلام فارغ، وكلام مليء كلام فارغ...هل أنت موافقة على الزواج، أم مُعارضة؟ أنا من جهتي موافقة! وأقبل أن تكوني ضُرتي، ولنتقاسم)أبو مهيوب(؛ ليلة عندك وليلة عندي، ونحن نعيش كأختين متكافلتين متضامنتين على السراء والضراء، فما رأيك؟

- أنا خائفة يا ماجدة، خائفة أن يقتلني أهلي!

- إذا صار لك زوج وأولاد وبنات، وكان أبوك ذات نفسه شاهداً على زواجك، فمن الذي سيقتلك ؟!

- ولكن هل يستطيع أبو مهيوب الزواج من اثنتين في مثل هذا العمر؟

- يا تغريد الرجل مقتدر مالياً، وإيراده كما قال، يزيد على خمسة أضعاف راتبينا مجتمعين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، الرجل لا يعيبه سنُّه في الزواج، خاصة هذه الأيام، فكما أقرأ؛ المنشطات الجنسية تفعل فعلها، وتعيد العجوز إلى صباه، وفي الأمس نشرت الصحف خبر العجوز

ابن السبعين عاماً، الذي تزوج ابنة الثانية عشرة، ونحن لسنا في الثانية عشرة، ولا في الثانية والعشرين، نحن على أبواب الثلاثين من العمر يا تغريد، وليس هذا بيت القصيد، فأهلنا لا يريدون تزويجنا من أحد...لقد زوجونا للنقود التي نلدها لهم.!

- تصديقاً لكلامك، قالت لي جارتنا أم سمير التي في المعسكر، إن رَجُلها تزوجها وعمره ستون سنة، وكان عمرها عشرين! ولما حكت لي القصة، صار عمره ثمانين سنة، وعمرها أربعون! وكان أبو سمير ما يزال في بقايا عافيته، ولو أنها صحة متوعكة! ولكنه عائش، وما شاء الله حوله! قالت لي يومها: ها أنا عندي اليوم كومة من البنات والصبية، صار أكبرهم في العشرين من العمر، ويستطيع أن يشتغل وينتج في ظروفنا الصعبة هذه.

- وهل سنعيش أكثر من أربعين سنة يا مجنونة؟ بعدين الأعمار بيد الله يا بنت الحلال، ممكن أن نموت قبل الرجل.. ألم تشاهدي ابنه الشهيد مهيوب وقد استشهد قبل أبيه! ياالله، قومي ناقشي أبو مهيوب في الموضوع، وإذا كان موافقاً فليكن العرس يوم الخميس القادم، ستعملين أول خميسية معاه! وستجدين أن ريقه قد جفّ، بعد أن ماتت أم مهيوب، يا حرام..! منذ خمس سنين وهو محروم من رائحة الحريم. !

- من قال لك إنه محروم؟

- المكتوب يقرأ من عنوانه يا ساذجة... لو كان أبو مهيوب متصرفاً في هذه الأمور، لكان وضعه الصحي متدهوراً، أو لظهرت عليه علامات الولدنة.. ولكنه رجل شغّيل ومحترم، وأهبل حريم.. !

- ألا يجوز أنه تالف جنسياً، ونحن نراهن على حصان خاسر.. ؟

- نسأله عن رأيه في الزواج، ونرى.. !

- أنا موافقة، وربنا يستر، ويكون معنا!

xxxxx

وفي تلك الأمسية السعيدة، عملت ماجدة إبريقا من الشاي، ونادت أبو مهيوب وتغريد، وجلستا معه في حديث جديد من نوعه، حيث سألته ماجدة :

– كم سنة مضت على وفاة أم مهيوب يرحمها الله ؟

فقال أبو مهيوب وقد فاجأه السؤال :

– حوالي خمس سنين.

– ومنذ يومها وأنت صائم عن النساء؟ دعنا نحكي بصراحة! الصراحة مليحة يا أبو مهيوب!

– الحمد لله، أنا رجل عفيف. لكن لماذا تسألين هذا السؤال؟

– نحن نريد أن نداعبك، ونخفف عنك نكد الحياة والعمل والسوق وآلام أخبار فلسطين التي تهد الجبال. !

– الحقّ معك.. تهد الجبال !

– ما رأيك في الزواج يا أبو مهيوب؟ لو تزوجت، فهل ستكون سعيداً مع زوجتك، وهل تنفع النساء؟ ولا حياء في الدين يا أبو مهيوب!

– أنا لم أجرب يا ماجدة، ولكنني أحتلم أحياناً، فأعرف أنني ما أزال بخير، ما دام لا حياء في الدين. ! ولكن ما علاقة الذي ينفع أو لا ينفع النساء بالدين؟ ضحكت البنتان، وقالت ماجدة :

– المقصود تنظيم الشرع للزواج، وعلاقاته! والسؤال هو: ما دمت مقتدراً مالياً، فهل أنت بصحة جيدة، وترغب في الزواج ؟

– ولم لا؟ فالعمل منتج والحمد لله، والأشياء معدن، والحياة دون زوجة فراغ قاتل، ومن ثم، فإذا أنجبت زوجتي أطفالاً، فهم يسترجعون الشهداء

أحياء.. ولكن من هي المرأة المحترمة التي تقبل بي في مثل هذا العمر ؟

- إذا كانت المرأة متوفرة وجميلة ومحترمة، وبنت ناس محترمين، فهل تقبل بها ؟

- لا أقبل بها فقط، بل أرجوها أن تقبل هي بي... ! أنا رهن إشارتها...!

- لقد فكرنا أنا وتغريد أننا نريد أن نُزوِّجك أجمل زيجة، فما رأيك؟

- من هذه التي سأكون سعيد الحظ في زواجي منها ؟

- تعني أنك ترغب في الزواج؟

- الزواج سترة، ونوع من العبادة، وإذا كانت بنت الحلال محترمة، فأنا موافق! فقالت ماجدة :

- اسمع يا أبو مهيوب، لا حياء في الدين، أنا وتغريد فكرنا كثيراً في موضوعنا هذا، وبعد حوار طويل، قررنا أن نعرض عليك الزواج منا نحن الاثنتين، أعني أن نزوجك نفسينا، على سنة الله ورسوله! خاصة وأن كتابك مكتوب علينا، وبشهادة ولي أمر كل واحدة منا، ونحن نحبك، ونحب العيش معك، كل واحدة منا تحت سقف منفرد، فهنا عندنا غرفتان، كل واحدة منا تعيش معك في غرفتها، ليلة تنام في هذه الغرفة، وليلة تنام في تلك الغرفة، والزواج غير محتاج لأي شيء، مادام الكتاب مكتوباً، ومن كتب كتابه فهو متزوج !

فوجيء أبو مهيوب! ولم يعرف كيف يواجه هذا العرض المدهش، وكيف يتجاوب مع هذا الوضع الذي لم يكن بالحسبان، فهو رجل ملتزم بكونه محرماً! ولكن الطرح معقول ومقبول، وهو قد عاش معهما للسنة الثالثة، وهما ابنتان محترمتان وشريفتان، وتريدان الستر، بدل الذهاب والإياب مع محرم غير محرّم، وحتى هذا التصرف السابق ليس مقبولاً في الإسلام،

فلمـاذا لا يدخل علي الخط، ويوافق على الزواج، مـادام على سنة الله ورسوله.. ؟ وبعد مناقشة طويلة مع نفسه، تأكد من موقفه، وحزم أفكاره، وقال لهما :

- لقد فاجأتماني بالخبر السعيد هذا، ولكن..! نعم على سنة الله ورسوله..! ولم لا..! لقد نسيت أن كتابينا مكتوبان، ولم لا..! فأنا.. ولكن.. !

- لا لكن، ولا ما يحزنون..! حضِّر نفسك، واستعد لذلك اليوم السعيد.. !

- ومتى هو اليوم السعيد؟ سأل الرجل، فأجابت ماجدة :

- فكرنا أن يكون زواجك من تغريد يوم الخميس القادم، أي بعد ستة أيام، تشترون فيها بعض الملابس والذهب.. وتجرأت تغريد مضيفة :

- ويكون زواجك من ماجدة يوم الخميس الذي يليه، ليكون معكما وقت لشراء متطلبات عرس ماجدة، فما هو رأيك؟

- أنا موافق!

صمتت تغريد، وقالت ماجدة: ونحن موافقتان. وهكذا نستطيع أن نتمم الزواج بدون عرس، ولا شهود، ولا ما يحزنون..!

xxxxx

ويوم الخميس، كانت تغريد هي العروس الأولى، فنجح أبو مهيوب في المهمة، وأثبت هيبته زوجاً فعلياً لتلك المعلمة الجميلة، شق الشمامة الزهرية، ففاحت من جنباتها رائحة عطرية أشهى من ياسمين يافا المفضل لديه...

شعر في ثناياها بمتعة من يتعبّد في محراب تملؤه المحبة واللّذة الشهية، كان يدفن رأسه في أريج ساحرة من ساحرات ألف ليلة وليلة، ويشمشم بأنفه المحروم عطور الجنة... جواهر لم يحلم بها، ولم يصدق نفسه أنه يعيش معها وفيها وبها..... وفي لحظات كثيرة كان يحاول التأكد فيما إذا كان في حلم، أم في علم، فيقرص خدّه، ثم يتأكد أنه موجود في هذه الجنة الغارقة في اللذة.. طبعاً هو لا يعرف نظرية)...أنا أقرص خدّي، إذن أنا موجود..(! ولكنه كان يعرف مقولة)بس بتطلع بعيوني.. بالليل يا عيني، بالليل.. (! لم يكن يتطلع بعينيه فقط، بل كان يتحسس بأصابع يديه وأنفه وفمه ولسانه وقلبه، وذلك أضعف الإيمان...

وفي الخميس الذي تلاه، استطاع أن يخترق كل القيود الجميلة، والغلالات الشفافة الزهرية التي تحف بالعروس ماجدة، كانت العملية أشبه بالانقضاض على قرص من عسل الشمع المغلف بإطاره الخشبي النقي الطاهر الشفاف النظيف البهي الجميل الفاتح للشهية، والمفتّق لكل الغدد الهرمونية الذكرية، والمنعش لحالته المزاجية والصحية والنفسية، وراح فيها يغرق يغرق، فتتدلّك عضلاته المتخشبة من شدة توتر الزمان والمكان والحياة حوله، وتنبعث في شرايينها الحياة من جديد.. كان العسل كثيراً فارتخت مفاصله، وتهدلت شفاهه، ونام نومة أهل الكهف...

وبعد الزواج، تحسن كل شيء في صحة الرجل، حتى شهيته في الأكل، وأجهزته الهضمية والعصبية والتناسلية وغدده الصماء والبكماء والعمياء.... كلها تفتحت وأصبحت تنشط بانتظام، وصارت الحياة ملونة في نظره، وطيفان من السعادة يغمرانه، ويدلّكان له جسده المتيبّس، ويفتحان عليه بابين جديدين من الرياحين والحور العين والسعادة والراحة النفسية التي لم يدركها من قبل، كانتا تنيران حياته من كلتا جانبيه بالألوان، مثل ذراعي قوس قزح.

واستطاع في هذه الحياة الزوجية الجديدة، أن يكون طيباً وحازماً، ومنصفاً لكلا الزوجتين، ولم تتغيّر الطبخة الواحدة، ولكن الذي تغيّر هو زيادة الضحكات والجلسات والسهرات السعيدة، وتغيرت ملابس المعلمتين داخل المنزل، فبعد أن كانت محتشمة وحذرة ورسمية ومحشورة ومضغوطة ومتكلفة.. صارت شفافة وقصيرة ومغرية... وتغير موعد عودة)أبو مهيوب(من العمل، فلم تعد تغيب الشمس، إلا والزوج يقف لهما بباب الدار، والزوجتان العاشقتان تستقبلانه بحفاوة وترحيب، وتتسابقان في خدمته، وإحضار الماء الساخن المملح، ليضع قدميه فيه، وهذا طعام شهي وصحي يا أبو مهيوب، وهذه حكاية حلوة يا أبو مهيوب، وهذا خبر مفرح يا أبو مهيوب..... راح الرجل الخمسيني يتنقل من دلال الشمام إلى دلال العسل !

xxxxx

كان لابد من إشهار الزواج، فاتصل أبو مهيوب بابنته خديجة هاتفياً، وأبلغها بزواجه الميمون.. فباركته خديجة باكية.

- ما لك تبكين يا ابنتي ؟

- تذكرت أمي رحمها الله.. مبروك يا أبي، ألف مبروك.. لقد كفيت ووفيت، ونحن لا ينقصنا سوى محبتك!

وكما طلب منها أبوها، ففي زيارة خاصة، أبلغت خديجة جارتهم أم غازي بأن والدها قد تزوج من ابنتيهما تغريد وماجدة، على سنة الله ورسوله، وأنه كما قال لها؛ لم يخن العهد، ولكن الزواج تم على البعد، بسبب ظروف البنتين الصعبة في الغربة، وأن الزواج ستر، وأنه نوع من

العبادة.!

صعقت أم غازي بالخبر الذي لم تتوقعه أبداً، وقالت :

- معقول أن يتزوج أبو مهيوب من تغريد! لا، أنت تمزحين، ولكنها مزحة سمجة! مزحة بذيئة! أبوك لا يفعل هذا، أنا أعرفه! فخافت خديجة من صدمة الخبر، ولكنها أصرت على توصيل الرسالة قائلة :

- هذا ما أبلغني به بالهاتف، قال إن الزواج قد تم، وأنت تعرفين أن أبي لا يمكن أن ينقل لي خبراً كهذا، على أنه مزاح ثقيل!

قعدت أم غازي على الأرض، وصمتت، ثم بكت بكاءً مراً.. وقالت وهي تبكي :

- هذا جنون! هذا غير معقول!

وعندما أبلغت عائشة زوجها أبو غازي بالخبر، استنفر الرجل وصرخ قائلاً :

- لا! لا! غير معقول! غير ممكن! هذا سخف! لا يمكن أن يعملها أبو مهيوب! فأنا أعرف الرجل.. ولكن في هذه الأيام أنت لا تراهنين على رجل! وهل بقي رجال في هذه الحياة! صحيح إنه)اللي استحوا ماتوا(!.. ولكن هذه خيانة لكل الأعراف والأعراض والعادات والتقاليد والشرف والكرامة والأمانة والأخلاق والممتلكات! طيب! تلقى وعدك يا أبو زفت! وأردفت عائشة قائلة :

- قال اسمه أبو مهيوب قال..! فقال أبو غازي :

- قولوا بعد اليوم: أبو مقتول، وليس أبو مهيوب...! سأقتله وأشرب من دمه!

- الخائن! العجوز المتصابي!

وبعد تفكير عميق بالموقف، وتصرف ذكي من قبل عائشة، التي كان يجب عليها أن تخفف من مصاب زوجها، لأنها تخاف عليه أن ينجلط، أو يتوقف نبض قلبه، أو أن يرتفع ضغطه، ويفور دمه، أو أن يتفاقم السكري في دمه، فيموت..! فقالت :

- لكن يا أبو غازي، الزواج تم على سنة الله ورسوله !

- كل شيء بالاتفاق، نحن لم نتفق مع المجرم، إلا أن يأخذ قرشين، مقابل مرافقته للبنتين..! صار حاميها حراميها! طيب..! حسابك معي يوم تعود يا أبو مقتول... !

أطعم الفم، تستحي العين!

تناقش أبو مهيوب مع زوجتيه، وقرروا عدم العودة في ذلك الصيف، ولا في الصيف الذي يليه... ومما عزّز موقفه، أن وزارة التعليم قررت إنهاء عقود تدريس كل المعلمات الأجنبيات المتخصصات بالدروس الأدبية في الولاية كلها، ولم يبقوا من معلمات الدروس العلمية، سوى من تعذّر إيجاد بديل لها من المعلمات المواطنات، وصار عليهن أن يغادرن إلى بلادهن أينما كانت، فما كان من أبو مهيوب إلا أن استعان بأحد أصحاب البيوت المتنفذين الذين يعمل لديهم، فنقل كفالته على حسابه الخاص، هو وزوجتاه، فخرجت الزوجتان من المدرسة، واستقرتا في كنف)أبو مهيوب(..قعدتا للطبخ والنفخ وإنجاب الأولاد والبنات..وعندها قال لهما: يوم لك ويوم عليك..في السنوات السابقة، كنت أنا تابعاً لكما، والآن أنتما تابعتان لي، والأيام دول..! فقالت تغريد: سنبقى طوال عمرنا تابعتين لك يا سيد الرجال، نحترمك ونحبك، ولا نعصي لك أمراً، بعدما عرفناك وأحببناك وتزوجناك!

فكر الرجل بأنه لن يعود مع زوجتيه إلى معسكر الحصار، إلا بعد أن يكون معهم رهط من الأولاد والبنات بإذن الله، ويومها سيكون مُحَمّلاً بالأموال والهدايا، التي ستجعل منه مركزاً مالياً يحميه من بطش أهل الزوجتين، وسيقوم باسترضاء أهليّ الزوجتين؛ كل بحفنة من الدولارات، وسيساعد هذا، ويدفع لذاك، إلى أن ينهي الحقد الكامن في النفوس!

لم تقطع ماجدة وتغريد علاقتيهما مع والدتيهما على الأقل، واستمرت كل واحدة منهما بمهاتفة أمها على الأقل، وشرح موقفها من الزواج، وشرح

مشكلة إنهاء عقود عملهما، وعززت المرأتان تلك المهاتفات بإرسال الهدايا، وبعض النقود، كل إلى أهلها، وكانت والدتا المرأتين تقبلان هداياهما ونقودهما، نظراً لشدة حاجتهما للقرش.

ولكن أبو غازي بقي يحمل في بطنه حقداً دفينا، ذلك لأنه أهين في رجولته، وفي أبوّته، ومسؤوليته عن كتابة عقد زواج ابنته، وكذلك لانقطاع الأرزاق عنهم من ينابيعها، ومن جهة أخرى، لأنه لم يحقق لابنته زواجاً مناسباً من خُطّابها الشباب الجامعيين.. وأثناء زيارة أم جهاد بيت)أبو غازي(، وانفتحت السيرة، قالت أم جهاد :

- إنهم لم يستطيعوا على الأقل أن يعلنوا الزواج حسب العادات والأصول، وان تُقام الأعراس في المعسكر، كما يتزوج عباد الله. وأردف أبو غازي قائلاً :

- وهل تقام أعراس لزواج كهذا؟ المفروض أن يكون العريس من عمر قريب للعروس، وألا يتزوج رجل عجوز بصبيتين في عمر الورود، وفي نفس الوقت! واستنكرت عائشة ما حصل، ولكنها قالت مسعفة جراح العائلتين : اعتبارات معنوية كثيرة فقدناها بهذه الزيجة المهزلة، ولكن الذي يخفف المصيبة أن الزواج تم على سنة الله ورسوله! وأضافت أم جهاد ساترةً عريها الاجتماعي: والذي يعزّينا أن تعاقد المعلمتين قد انتهى، فها هو يطعمهما ويُعيِّشهما، وينجب منهما أطفالاً بعد استشهاد ابنه الوحيد مهيوب في تلك الغارة التي لا ينساها أحد، واستشهاد أولادنا وموت زوجي، فمآسينا لا تتجزأ.. !.. ومع التفكير في الشهيد مهيوب وما يرتبط به من تداعيات الشهداء جهاد ونضال وجعفر بدأت النفوس تهدأ، ونيران الغيظ تخبو شيئاً فشيئاً. !

وفي جلسة مع زوجتيه على مائدة الطعام قال أبو مهيوب: عندما نعود من هنا محملين بالأموال والهدايا، سنتجاهل مجافاتهم لنا. فقالت ماجدة:

)أطعم الفم تستحي العين(وقالت تغريد: هذا قضاء الله وقدره، وكل شيء نصيب !

تتابعت اتصالات المرأتين المتكررة هاتفياً مع والدتيهما، واستطاعتا بعد حملهما معاً في شهرين متقاربين وصل ما انشرخ من علاقة أسرية، وتأكدتا أنهما ستعملان على عودة المياه إلى مجاريها، خاصة وأنهما قد حصلتا على الضوء الأخضر من والدتيهما اللتين باركتا الزواج، وبعد أن ولدت ماجدة بنتاً سمياها ياسمين، وولدت تغريد ولداً أسموه مهيوب، على اسم أخيه الشهيد مهيوب، فرحت الأمّان بالحفيد والحفيدة، وأعلنتا الخبر، فلا يُفرح الفلسطينيين تحت الحصار هناك سوى كثرة المواليد الذين يرفدون الأرض العطشى بينابيع من الجوعى المتقافزين فوق الأرض، ليملأوا الفراغ الذي تكرهه الطبيعة، فلا يعود للاحتلال رجل يضعها مكان الشهداء والموتى الذين يرحلون...

وأثناء حديثها بالهاتف، قالت أم جهاد لماجدة: إذا أنجبت ولداً في المرّة القادمة، فسمّيه جهاد، كي يخلف جهاداً على الأرض. هؤلاء الأطفال سيملؤون الجو بهجة ودوشة، وسيكونون هم مستقبل الحياة.. وأقنعت أم غازي زوجها بضرورة الاعتراف بهذا الزواج، القسمة والنصيب، ما دامت تغريد قد خلّفت حفيداً لهما، ورفدت المواليد... وقالت له: ألا يكفي أن غازي خرج ولم يعد، وتركنا في فراغ قاتل.. ؟ فصمت أبو غازي موافقاً. وأما الأخوة والأخوات، ففرحوا بسماع ولادة طفلي أختيهما، وانتظروا قدومهم، والحصول منهم على هدايا كثيرة، وتخيلوا أن أبناء وبنات أختيهم سيزدادون وسيتكاثرون وسينغلون حولهم، ليعززوا مواقفهم في شوارع المعسكر الترابية، وسيعلمونهم كيف يتراقصون معهم أمام الدبابات المهاجمة، ويُطّون لها ألسنتهم، ويتفننون بحركات السخرية أمام تقدمها! وسيقاومونها معاً بوسائل جديدة، أكثر فعالية من رشق الحجارة. !

انتهت الرواية

متعة الرعب !

لم أكد أنهي روايتي عزيزي القارىء، حتى فاجأني أمرٌ جلل..! دهشة ورعب اعترياني، لم أتوقع حدوثهما..! هل أنا في حلم، أم في علم، فركت عيني، ثم نظرت مرة أخرى، فرأيت أمامي شخصيات الرواية الرئيسة؛ أبو مهيوب وماجدة وتغريد...تغريد ذات نفسها.. أراهم يتقدمون نحوي بلحمهم وقاماتهم المعروفة لدي، يدخلون عليّ، وعيونهم تُحدِّجني.. تكاد تأكلني! ولكنني في الحقيقة كنت قد تعودت على التعامل مع هذه الشخصيات، فلم أخف من دخولهم غرفة مكتبي حيث ولدت شخصياتهم بين يديّ في هذه الغرفة..! فأنا في الحقيقة مؤلف، أتخيل شخصياتي على الورق، ولكنني لم أتوقع، ولم أتخيل مجرد تخيل، أنني سأقف مرتبكاً بتحولهم إلى شخصيات من لحم ودم، تحيا وتتحرك أمامي، وتناقش أفكارها، وتقبل وترفض أفكاري..! أمر مدهش..! لا..! مؤكد أنني لست في وعيي..! لقد أدمنت التعامل مع هذه الشخصيات، لدرجة أنني أصبحت أعيش معها، وأحلم بها، وأفكر بهمومها، وأعاني معها، وأحاول توجيهها لما فيه مصلحتها، وأحذرها من الوقوع في الخطأ.. صرت أشعر أني ولي أمر هذه الشخصيات، ومسؤول عن تصرفاتها، وأخاف على مستقبلها، ولكنني لم أفكر في أي يوم من الأيام أن أراها أمامي حية تسعى..!

نعم دخلوا عليّ هكذا)بدون إحم، ولا دستور..(! صدِّقني إنني شاهدتهم

بأم عينيّ يدخلون مجتمعين، فأنا لا أحلم أو أعيش حالة غيبوبة، أو أتعاطى المخدرات لا سمح الله! وأنا في كامل قواي العقلية والصحية والجسدية والنفسية... تباطأ أبو مهيوب في الدخول، فقالت له ماجدة :

- احتراماً للسن، فأنت تدخل أولاً، وكذلك فأنت على اليمين، وتيامنوا..!

تيامنت الجماعة، ودخلوا عليّ..! لا أخفي عليك خوفي من المشهد، نظراً لعدم توقعه على الأقل، فأنا أعرف أنني أكتب رواية من بنات أفكاري، مجرد تخيُّل، ولكن دخول شخصياتي عليّ بهذه الثقة، وأخجل أن أقول)بهذه الوقاحة! (ذلك لأنني أحببت شخصياتي وأدّبتها، فأحسنت تأديبها، ولذلك أقول لك : إنهم كانوا ذوي شخصيات قوية، وهجوم منظم نحوي، ودفاع بحجج قوية.. !

كنت أتأملهم مرعوباً، ولكني فرح بدخولهم..! هل سبق وأن شعرتَ برعب وأنت فرح؟ كثيراً ما يحصل معي هذا، فعندما كنت في)عالم دزني ماجيك ماونتن - أمريكا(وركبت مع الراكبين في تلك القاطرات السماوية التي تدور، وتلف في السماء، مثل ثعبان ضخم، والأفعى ترمي بنفسها من السماء، ورأسها يهم بنهش الأرض، فتنزلق بنا مرة، ومرة نشاهد أرجلنا باتجاه السماء، ورؤوسنا باتجاه الأرض، نتشقلب في السماء ونحن نصرخ ونصرخ،)مستمتعين بالرعب(، مبتهجين باللعبة المخيفة..! هل استمتعت مثلي بالخوف في غرفة الأشباح عندما تطلع لك الهياكل العظمية من قبورها في العتمة، وتستعطفك بأنين يهز القلوب؟ أو عندما تمرّ بجوار مقبرة دزني، فتسمع أنين وآلام الموتى داخل قبورهم، فتشعر بخوف عظيم، ولكنك تشعر بمتعة وراحة نفسية عندما تعرف أنك ما زلت حياً، فالداخل إلى المقبرة خائف، والخارج منها مرتاح نفسياً وفرح)الداخل مفقود، والخارج مولود(بعكس أصحاب هذه القبور الذين انتهوا وتحللت هياكلهم العظمية داخل

توابيتهم! هل استمتعت بأعياد الهلوين الأمريكية، التي تعتمد متعتها على الرعب؟ هل شاهدت المتعة المرعبة لتجار الأسلحة العولميين، حينما ينجحون في إنزال قواتهم في بغداد وقندهار لابتزاز النفط، ولكنهم يرتعبون تماماً عندما تلتقط تماسيح الأهوار العراقية الكثير من أرجل مرتزقتهم، وتقضمها، وتجهز عليها برمشة عين، أو بقضمة تمساح، فيخرجونهم من مياه بوص الأهوار، على نقالات إسعاف حضارية ديمقراطية، وهم ينزفون دماً، وبرجل واحدة لكل منهم، يرفعونها إلى الأعلى، قميئة مهينة أمام جذوع أشجار النخيل العملاقة.. !

لقد شعرت بمثل هذه المتعة المرعبة، وأنا أشاهد شخصياتي الحبيبة التي صنعتها من كلمات، تخرج من بين سطور كمبيوتري، كمارد خرج من قمقمه، وتقف أمامي عنيدة، رافضة للأدوار والأثواب التي ألبستها إياها..! إذن صحيحة هي حكاية المارد الذي يخرج من القمقم وسراج علاء الدين ،)... وشبيك لبيك... عبدك بين إيديك....(..ولكن هؤلاء الملاعين ليسوا عبيداً، بل متمردين نماريد، رافضين لعلاء الدين وسراجه...!

لم تتوان شخصياتي عن الصراخ المكتوم في وجهي..! هل شعرت ذات مرّة بالصراخ المكتوم...كان صراخاً يملأ جو غرفة مكتبي، ولكن بخفوت.. قد يكون الجيران وسكان العمارة لا يسمعونه أبداً، تأكدت من ذلك لأن أحداً منهم لم يهجم ويرن جرس باب شقّتي ليستفسر عما حصل، أو ينجدني مما أنا فيه! إنهم ينكشفون عليّ ويتضحون لي، ولكن يبدو أنهم يلبسون طاقية الإخفاء أمام الآخرين..!

والحقيقة أقولها لك، فبالرغم من البهدلة والإهانة التي تعرضت لها، لم أشعر بالخوف، أو الرعب التقليديين، أو الانزعاج مما أواجه، بل برعب لذيذ، وإهانة ممزوجة بالنشوة.. قد تقول: إن هذا الرجل فقد عقله، أو ركبهُ جن أزرق، أو إنه يرى أشباحاً، أو إن أرواحاً تخرج من عينيه. ولكن الحقيقة يا

أخي غير ذلك. الحقيقة أن شعور المؤلف بخروج شخصياته إلى الحياة مجسّدة أمامه يعني أن الشخصيات صارت حية تسعى..) !فألقى موسى عصاه، فإذا هي حية تسعى(تلك القصة توضح إعجاز الله)فتبارك الله أحسن الخالقين(إنه قمة الخلق، أن تدب الحياة في العصا، فإذا بها حية تسعى..! وبشكل مشابه، دبت الحياة في شخصيات روايتي، هه.. هه..هه..هه..! فإذا بها حية تسعى في مواجهتي !

ودون مقدمات قالت لي ماجدة.. كانت توجّه كلامها لي بعنف، وبدون حياء أو خجل، ولكنني كنت أتأمل ملامحها وهي تتكلم.. نفس الملامح التي رسمتها بالكلمات، سبحان الله..! نفس امتلاء جسدها الأسمر الجميل بلا إفاضة، وعيناها اللتان تشعان ذكاءً وحيوية وزعرنة، وفمها بشفتيه المكتنزتين الذي يتفوه بالعبارة القوية، نفس شقاوة اليافعات، وليست العيال، في حديثها وحركات يديها المشدودتين باتجاهي، وهي تقول :

– نحن نبدي لك احترامنا وتقديرنا، وفضلك علينا، لأنك خلقت شخصياتنا، ورسمتها كما يحلو لك، ولكن وبعد أن دبّت الروح فينا، وبعد شعورنا بأننا صرنا شخصيات حيّة تسعى على الأرض، شعرنا بالمهانة والرفض لأدوارنا، نعم نحن نرفض أدوارنا التي انتهت بهذه الصورة..! نريد أن نسألك: كيف تجرأت ورسمت لنا هذه النتيجة المدمِّرة.. ؟ ومن هو الذي خوّلك التحدث باسمنا، والتحكم بمصيرنا، وكأننا جاريتان أو جاهلتان أو مغفلتان أو ساذجتان، أو من سقط المتاع، فحدّدتَ مصيرنا بالزواج من عمِّنا)أبو مهيوب(، هذا الرجل الثقة....؟ وهنا أيدتها تغريد قائلة:

– يا أخي على الأقل شاورنا في الأمر، أو خذ منا توكيلاً بتحديد مستقبلنا، فنحن معلمتان متعلمتان، مثقفتان ناقدتان للحياة، ونقرأ الصحف والمجلات والكتب، ونشاهد القنوات الفضائية التلفازية، ونتعامل مع الإنترنت، ونتابع وسائل الإعلام المختلفة، وننتقد المحجبات والاقتصاد

الوطني والمقاومة و إلوطاااااان..! ولا نستحق منك أن تحشرنا هذا الحشر، مع رجل نُجلّه ونحترمه ونقدِّره حق قدره؛ كأب أو عمٍّ لنا، خرج معنا في مهمة مُحرَم، وصان الأمانة، فوصفته بأنه قد خان الأمانة..!

كانت تغريد تكلمني بحدّة، وأنا أتفرس في وجهها، وتقاطيع جسدها، منبهراً :

– سبحان الله الخالق الباهي..! ما هذا الجمال يا تغريد ؟ ما هذا السحر والدلال يا تغريد؟ ما هذا العنق الطويل الرخامي الشفاف الطري بنعومة اللبان، وما هذا الصدر الطافح بالمحبة...! سبحان الخالق، والخالق أجمل منك... ! كل هذا رسمته بكلماتي، فظهرت أمامي هكذا، كحورية البحر التي تقفز على أعشاب الشاطىء..! هل هي حوريات البحر بهذا الجمال يا تغريد ؟

وعندما شاهدوني سارح العين والفؤاد، قالت ماجدة :

– يبدو أن الرجل قد ذهب عقله، أو أنه تصنّع الغباء أو السذاجة عندما شاهدنا نقف أمامه وجهاً لوجه، فمثّل علينا دور الأهبل البهلول، الذي لا يدرك ماذا نقول..!

وهنا نطق أبو مهيوب الذي شاهدته كما رسمته؛ رجلاً كبيراً في السن، ولكنه لا يزال مشدود القامة، كما تصورته..! سبحان الله..! يقف كالرمح بين الصبيتين قائلاً :

– يا أخي أنا أعيش مع هاتين الصبيتين بصفتي محرماً، وأنا لا أخون الأمانة من جهة، ومن جهة أخرى، فهما ليستا من عمري، وكذلك فلو رغبت بالزواج، فلن أتزوج بغير واحدة.. يقول المثل) :حطوا على ظهره عنزة، فضرط، ثم قال: ردوا على ظهري الثانية..(! وأنا قبلت أن أمثّل دور المحرم، ولا أسمح لك بأن تشكك في مصداقيتي، وتجعلني مسخرة أمام

الناس والخلق، وهذا لا يليق بمقامي وشرفي، ولا يحقق أمل الأهل، الذين أودعوني أمانتين، جوهرتين، وأنا لا أستطيع أن أكون كالقطة التي تأكل أولادها..

وهنا وجدت نفسي مضطراً لكسر حاجز الخوف، وتفكيك تحنُّطي وتليين جمودي أمام شخصياتي، فنطقت لأول مرة معهم. وقلت له متظاهراً بالمزاح وروح الدعابة:

– هذه عبارة)القطة التي تأكل أولادها يا أبو مهيوب، غير صحيحة، فالقطة تحمل أولادها حديثي الولادة، فتمسكهم من جلودهم اللحمية بفمها، وتنقلهم من مكان إلى مكان آخر أكثر أمناً، فيقول من يشاهدها أنها تأكل أولادها، ولكن هذا غير صحيح... (! قلت ذلك كي أشعرهم أنني لست خائفاً منهم، وكذلك لممارسة النقد، والنقد الذاتي.. فقالت ماجدة:

– دعك من هذه الفلسفة، ولا تبعنا معلومات، لا علاقة لها في الموضوع، فأنت غير القادر على تصريف أمورنا، والذي تسيء قيادتنا وتوجيهنا، تريدنا أن نقبل بالزواج من عمِّنا أبو مهيوب، الذي هو أكبر من عمر والدينا. ! وتجرأ أبو مهيوب قائلاً لماجدة:

– رحم الله والدك الذي مات صغيراً، ولم يتجاوز الخمسينات من العمر..! فشكرته ماجدة على الترحم، وقالت تغريد:

– ولكنك تعرف أننا التقينا بالشابين الوسيمين؛ عباس الأخضر، ونواف الخياط، في البر مرّة، وفي السوق مرّة أخرى، وسرنا معهما مسافة طويلة داخل السوق، وتبادلنا معهما الحديث، وتعارفنا معاً، واستلطفناهما، ولا نريد أن نقول لك إننا أحببناهما، وكانت الطريق سالكة باتجاه عقد قرانين من هذا النوع، فلماذا لم تُوَجِّهنا للزواج من هذين الشابين؟ وزادت ماجدة الطين بلة إذ قالت بحزم:

- وطوال الرواية أشبعت القراء مَرجَلة، وفلسفة فارغة، بأنك مؤلف ألمعي ولوذعي وعتيد، تحرك شخصياتنا كيفما تشاء، وتلعب بنا الشطرنج، والبيضة والحجر، ولكنك جانبت الصواب في النتيجة التي أسأت فيها قيادتنا وتوليفنا وتوجيهنا إلى ما لا يجب وما لا نرغب، وأفقدتنا السيطرة على ذواتنا، وأفشلت تجربتنا الفكرية التنويرية لتطوير المجتمع الذي نعمل فيه، وأفشلت مهمتنا المقدسة التي جئنا من أجلها، لنساعد أهلنا في مجرد البقاء، وعدم الموت جوعاً تحت سنابك الأعداء المحتلين!

نهضت من كرسي مكتبي، ووقفت مشرئباً، وأجبتهم بكل حزم :

- ولكن كيف ألغي قرانين مكتوبين بعقدين خطّيين، وأستبدلهما بكتابين آخرين مع شابين غريبين لم يوافق عليهما وليا أمريكما القابعان هناك في المعسكر؟ فقالت ماجدة ساخرة:

- الذي جرأك على زَجِّنا لارتكاب خطيئتنا الزواجية مع عمنا أبو مهيوب، يستطيع أن يوجه ذهنك لأن يقوم عمنا أبو مهيوب بفك زواجه منا، أي بتطليقنا، وكتب كتابين جديدين، بحيث تتزوج كل واحدة منا الشاب الذي تريد، ويتم الزواج على سنة الله ورسوله، بموافقة ولي الأمر؛ عمنا أبو مهيوب..

وباختصار وبلا طول سيرة، شعرت يا أخي أنني تبهدلت كمؤلف، وشعرت أنني لست أهلاً للتأليف، ولا للتمثيل، ولا حتى للكتابة، ولا للنيلة....! صارت شخصيتي الفعلية هزيلة أمام شخصيات الرواية التي راحت تستقوي عليّ، وتهزني من الأعماق، وصارت هي التي توجه نفسها لتقرير مصيرها، وتشعر أنها هي الحقيقة، وأنني أنا الوهم. وقد يكون ذلك صحيحاً، فكثير من شخصيات الروايات الوهمية صارت حقيقة أكثر من الحقائق نفسها، فشخصية هاملت الوهمية ناقشها القراء عبر العصور، وكتبوا عنها أكثر بكثير مما ناقشوا وكتبوا عن شخصية الملكة إليزابيث

الحقيقية، أو حتى شخصية مؤلفها شكسبير نفسه..!

وهذا يجعلني أؤكد لك أن شخصياتي صارت هي الحقيقة، وأنا الوهم، ذلك لأنها ستحيا بعدي، وأنا سأموت، مثلما عاشت الأهرامات، ومات فراعنتها، الذين لا نعرف أسماءهم الحقيقية، فكل فرعون جاء، مسح اسم الفرعون الذي سبقه ببناء الهرم، ووضع اسمه مكانه، فصارت أسماء خوفو وخفرع ومنقرع، ما هي إلا أسماء سمّيتموها..! والحقيقة غير ذلك !

وهذا ما نراه في السد العالي الذي بناه شعب جمال عبد الناصر، فزاودت عليه البطانة الإعلامية للحاكم الذي تلاه، بكون السد قد دمّر البيئة والزراعة والآثار المصرية، وعندما لم تستطع الإقناع بمسح صورة عبد الناصر من وجه الخارطة المصرية العربية، عاد الحاكم فألصق صورته على النصب التذكاري للسد فوق صورة الزعيم الخالد عبد الناصر، وليس تحتها... ! ذلك الزعيم الذي حارب الغرب واستعان بالشرق، ليجسد أسطورة السد الذي يحمي مستقبل شعب مصر من الجفاف وحروب المياه القادمة! اذهب إلى هناك، وشاهد الصورتين بنفسك - فالسد العالي يبقى نوعاً من الفن، أكثر مما يبقى صانع هذا الفن، والوهم هو ما نعيشه حقيقة..! ألا تشاهد وهم السلام القادم مع المحتلين لأوطاننا، وشعوبنا المقتولة هي الموصومة بالإرهاب والوحشية؟ ألا تشاهد الوهم حقيقة، والحقيقة وهماً؟ ولكن وهم شخصياتي لا يمنع من تراجعي أمامها، وممارسة النقد والنقد الذاتي في كل التفاصيل.

لم أعرف كيف أتصرف، ورفضت أن أتخلى عن هذه الشخصيات العظيمة التي صارت حية تسعى لالتقاط رزقها، فتركت لها القرار لتتصرف بمحض إرادتها، وتتزوج من تشاء، وتركت القرار لك أيها القارىء العزيز.. لتتفاوض مع شخصياتي المُبدَعة..، وتتناقش مع كل واحد منها، أو معها مجتمعة؛ كيف ستكون النهاية، ولو أنه لا يعلم النهاية إلا الله..!

الرواية لم تتم..!

المؤلف

الروائي صبحي فحماوى

- عضو اتحاد كتاب مصر ، ونادى القصة المصرى .
- عضو رابطة الكتاب الأردنيين ، واتحاد الكتاب العرب .

صدرت له ثلاث روايات هى :

* عذبة – دار الفارابى – بيروت – (٢٠٠٥).
* الحب فى زمن العولمة – روايات الهلال (٢٠٠٦)
* الإسكندرية ٢٠٥٠

- له أربع مجموعات قصصية هى :

* موسم الحصاد – دار الكرمل – عمان (١٩٨٧).
* رجل غير قابل للتعقيد – عمان (١٩٩٧) .
* صبايا فى العشرينات – مدبولى الصغير – القاهرة (٢٠٠٦).
* الرجل المومياء – دار الفارابى – بيروت (٢٠٠٦) .

مثلت بعض قصصها ، ضمن حلقات (مرايا) للفنان السورى ، ياسر العظمة.

العنوان البريدى للمؤلف : ص.ب – ٩٦٦ – تلاع العلى – الأردن.

البريد الالكترونى fahmawi @ cyberia. jo

هاتف oo962795187873

عن الرواية

❑ تتخرج تغريد وماجدة من كلية المعلمات فى الإقليم الفلسطينىّ المحتل للمرة التاسعة والتسعين ، فتبحثان عن عمل ، ولكن الظروف الطاحنة ..! تتعاقدان مع بعثة تدريسية عربية ، وتغادران إلى هناك مع رجل خمسينى العمر ، موثقتين عقدى زواج صوريين معه ليكون محرماً لهما .. وتبقيان على أمل الزواج ، كل من خطيبها ، الحداد جهاد صاحب محددة العودة فى معسكر الحصار ، وغازى الذى سافر إلى أمريكا للدراسة هناك .. وتستمر الأحداث المروعة داخل الجيب الفلسطينى المحاصر ، والغربة المهينة خارج الوطن ، والحدود العربية العربية ، حدود حدود دود دود...

ترى كيف تنتهى الرواية ؟ وما هو مصير حب تغريد لجهاد ، وقصة حب ماجدة لغازى ؟ وما هو مصير علاقة الصبيتين الجميلتين مع المحرم (أبومهيوب) الذى يعيش معهما فى نفس البيت ، طيلة سنوات الغربة ؟